
خيري شلبي
صالح هيصة

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة – لبنان ٧٥٠٠ ليرة – الاردن ٣ دينارات – الكويت ٢ دينار – السعودية ٢٠ ريالا – البحرين ٢ دينار – قطر ٢٠ ريالا – دبي/ أبو ظبي ٢٠ درهما – سلطنة عمان ٢ ريال

العدد ٦١٩
يوليه ٢٠٠٠ ● ربيع ثانى ١٤٢١ هـ
NO - 619 - JULY - 2000

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار . القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول . الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع
تلكس TELEX 92703 hilal u n
فاكس FAX 3625469

عنوان البريد الإلكترونى ●
darhilal@idsc.gov.eg

صالح هيصة

بقلم

خيرى شلبى

●

دار الهلال

الغلاف إهداء من الفنان
محيى الدين اللباد

إن الإنسانية تنظر إلى نفسها بجدية أكثر مما ينبغى وهذه الجدية هى الخطيئـة الأولى التى تردى فيـها العـالم . فلو أن رجل الكهف تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ . الجدية هى الملجأ الوحيد الذى يلوذ به ذوو التفكير الضحل .

«أوسكار وايلد»

ربنا خلق الدنيا هيصة ! وخلق فيها بنى آدم هيصة!، كل واحد فى هيصة ! .. بيعمل هيصة ! عشان يلحق الهيصة ويا يلحق يا ميلحقش ! .. وكلهم كحيانين ! .. بس كل واحد كحيان بطريقة ! .. وأنا .. ملك الكحيانين ! .. عشان كحيان بكل الطرق .

«صالح هيصة»

حى معروف

غرزة حكيم كانت في موقع متميز فيما عرف بيننا بمجمع الغرز في حى معروف ، الكائن خلف شارع طلعت حرب - سليمان سابقا - مباشرة . الشارع الرئيسى فيه ، شارع معروف ، مواز لشارع طلعت حرب من الخلف ؛ يبدأ من ميدان التحرير ، يقطع شارع الانتيكخانة المعروف حاليا بمحمود بسيونى ، حيث كانت توجد فيه مكتبة الفن كجزء من متحف الفن الحديث كنا نقضى فيها وفيه كثيرا من أوقات الأصيل من أيامنا التى لا حاكم يحكمها ، فنستمع إلى الموسيقى ونقرأ الكتب الثمينة ونشاهد اللوحات . ينتهى شارع معروف فى شارع ستة وعشرين يوليو ، متقاطعا مع شارع ثروت . آخر مبنى فيه هو دار القضاء العالى المطل على كل من شارعى ستة وعشرين يوليو وشارع رمسيس معا . بهذا المبنى المهيب تتصل عدة مبان من نفس الطراز تطل على شارع ثروت هى نادى القضاة ونقابة الصحفيين ونقابة المحامين . فى مواجهتها - على الرصيف المقابل لشارع ثروت - مبنى كنيسة القلب المقدس وبجوار مبنى مستشفى السكك الحديدية .

شارع معروف هو النقيض التام لشارع طلعت حرب ، مع أن المسافة بينهما خطوات معدودة . فمن مقهى ريش - منتدى المثقفين والوجهاء وصفوة من السواح - على ناصية ميدان طلعت حرب، إلى مجمع الغرز فى حى معروف أكثر من تخريمة لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق ؛ بعدها نشعر أننا - كأنما بسحر ساحر- قد انتقلنا إلى حياة أخرى فى مدينة أخرى لشعب آخر . الشارع يمتلئ عن آخره بنوعيات لا حصر لها من البشر والأشياء : عربات الكارو التى تجرها الحمير والخيول أو التى تدفع باليد .. فروشات الخضراوات والفاكهة والأسماك والأوانى المصنوعة من البلاستيك والألمونيوم بجميع أحجامها .. خردوات ..

ثلاجات للمياه الغازية .. محلات على الجانبين ، بقالة ، فول وطعمية ، كشرى ، قطع غيار سيارات ، ورش دوكو ، ميكانيكية ، عجلاتية ، كهربائية ، مقاه ، وحدات متنقلة من كل هذه المحلات فى فتارين يحملها باعة سريحة : ناهيك عن أركان وخجانيق لاصلاح الكوالين وأبواب السيارات وإصلاح بوابير الجاز والصرماتية المتخصصين فى رتق الأحذية التعبانة وتلميع جلودها .

كل هذه المحلات لها زبائن كثار يأتون إليها بسياراتهم وراجلين . العجيب أنهم ينجحون فى الدخول بالسيارات إلى أى بقعة مفقودة : بأعصاب هادئة يركنون سياراتهم وسط عواصف من الضجيج والزعيق والتزمير الملحاح المثير للأعصاب ولابد - بفضل الأريحية العظيمة للشعب المصرى فحسب - أن يمضى كل شئ إلى غايته ؛ تمر السيارات من خروم الابر ، فلا ينكسر فانوس ولا ينعجن رفرف ولا يختل فرش ولا يصاب راجل ، ولا يتوقف الطريق إلا ليشرع فى الحركة بعد برهة تقصر أو تطول ، حيث يتطوع ناس كثار للقيام بتنظيم المرور إذا اختنقت الحركة لسبب أو لآخر ، ويتطوع آخرون لدفع السيارة إذا تعطلت ، وقد يجئ الميكانيكى لحد عندها بزعقة من أحد الناس .. ناهيك عن زبائن الخضراوات والفواكه واللحوم والأسماك والخبز ، معظمهم نساء من مستويات متعددة يحملن السلال والحقائب الخوص ، سيدات كالخواجات أو أشد شقرة وفرنجة ، خادمات عجفاوات عبيطات مبهورات ثرثارات ، نسوان حفاة يلبسن الأسود فى أسود أتين من بقاع مجهولة ليفرشن ها هنا بأناجر الجبنة القريش والزبد والمش وأفراخ الحمام .

جميع سكان وسط المدينة يشترون كل احتياجاتهم من هذا الشارع السوق الذى لا تهمد فيه الحركة ليل نهار حتى ليشعر السائرون فى زحامه كأن الأرض هى التى تتحرك بكل هؤلاء . رغم ذلك فالشارع ممتع فى كل ساعات النهار والليل. الحياة فيه تمضى بأرخص التكاليف فحيث يكلفك الغداء فى شارع طلعت حرب مرتب شهر كامل إن كنت موظفا غلبانا ، تستطيع فى شارع معروف أن

تملأ بطنك بقرشين اثنين وربما بقرش واحد تأتيك شريحة خبز متخمة بالفول والطعمية والسلاطة ، أو هبرة من البطاطا الساخنة الشهية المشبعة ، وأن تجلس على واحدة من مقاهيه أو بوفيهاته الكثيرة فتحتسي الشاي بالحليب وتدخن الشيشة بقرشين ونصف القرش فقط، وفوق ذلك تمتع عينيك برؤية حشد هائل من النساء من مختلف الأعمار والأشكال والألوان فكأن بيوت المدينة كلها قد أطلقت حرائرها المصونات على هذا الشارع بثياب منزلية بسيطة تكشف عن مفاتن الجسد وبالتحديد عن البقاع المراد سترها ؛ يمشين على سجيتهن بغير تحفظ أو أدنى شعور بأى مراقبة أو تطفل كأنهن يتحركن داخل منازلهن ؛ تندلق الصدور فوق أقفاص المعروضات فتختلط الأثداء بفرد الحمام والأرانب المستكنة فى تحفز خبيث ، والخدود بالرمان والتفاح والخوخ ؛ تتمازج الأباط البيضاء الحمراء المنتوفة الشعر بأفخاذ الضأن والعجالى المعلقة فى الخطاطيف ، ينتفض البلطى والبياض والقراميط فوق جنْبات السماكين للمس أيدى البلطيات البشريات .

ليل شارع معروف له سحره الخاص الفريد . يخف الزحام عقب مرور شمس الأصيل ؛ تظهر أرض الشارع الموحلة وبلاطاته المتقززة تجرى بين شقوقها مياه عطنة . الجو يفعم بزخم ثقيل أقرب إلى رائحة العرق الذى تصببت جباهه فوق أرض الشارع طول النهار . ينتعش الهواء برائحة اللحم المشوى على الفحم المشتعل ، والكبدة والمخ المقليان فى طاسات على عربات نقالى نظيفة بيضاء ملونة الزجاج والأنوار . تزعق الفواكه الفواحة كمدرجات من الزهور كمهرجان من الألوان الطبيعية . تتكاثر طرقات فتح زجاجات البيرة والاسباتس مع طرقعات حجز الطاولة والماشات فوق رخامات المقاهى . صوت أم كلثوم يصدح فى مذياع متكرر فى جميع أنحاء الشارع يدداح فى كل اتجاه ليرتد سريعا من كل اتجاه ، الحياة تبدو هاهنا سهلة رخية هنية مشبعة بالقناعة . أضواء النيون الصاخبة تقيم خيمة مبهجة من التطامن يتمدد فيها الخيال منتشياً بمشاعر إنسانية رطبة خضراء دافئة معا ؛ سيما إذا كنت خارجا لتوك من مجمع الغرز المخبوء فى أعماق هذا المهرجان الكبير .

سكة نافذة

لغرزة حكيم مداخل كثيرة . يمكن الدخول إليها من شارع رمسيس . وهنا يتعين عليك أن تمر على غرزة جلال . هذا أمر محرج فى الواقع ؛ فغرزة جلال منافسة للغرزة التى نفضلها . هى عبارة عن مقهى مبنى بالخشب والبوص وسط هديم على مساحة كبيرة . البيوت من حواليها - بامتداد شارع معروف وشارع رمسيس معا - آيلة للسقوط رسميا فى دفاتر الحكومة ؛ انتهى عمرها منذ أكثر من نصف قرن مضى ، وصدرت أوامر مشددة بإخلاء كل هذه البيوت التى لم تفقد رغم الشيخوخة جمال طرزها المعمارية البديعة حيث كل بيت يعتبر تحفة معمارية ثمينة لكنها أصبحت كعزيز قوم ذل فلم يجد بين البشر الأخساء من يرحمه . السكان لم يجدوا بديلا فبقوا فى بيوتهم على مسئوليتهم وسجلت البيوت فى دفاتر الحكومة على أنها مجرد هديم يخلو من السكان وذلك على الرغم من تكرار وقوع البيوت بالفعل كل حين أمام الجميع وفوق شاغليها ؛ بل إن سكانا جددا جاءوا فاستولوا على الهديم نزعوا حديده وخشبه ، أقاموا بها فى المساحات الفارغة عششا للسكنى ومحلات للبيع والشراء وغرز للتحشيش وورشا للدوكو والمفاتيح والسمكرة ؛ وكان رائدهم فى ذلك هو المعلم جلال صاحب أشهر غرزة فى وسط المدينة إن لم يكن فى المدينة كلها بجميع ضواحيها ؛ سيما وأن الشعب المصرى لديه ولع غريب بشخصيات الخارجين على القانون المتسلطين القساة ، ويجد الكثيرون لذة كبرى فى الانصياع لأوامره والخضوع لسيطرته ، بل ربما يزايدون على بعضهم البعض فى اكتساب وده ، ربما اتقاء لشره ، وربما للاستقواء به فى أمر من الأمور .

المعلم جلال أشهر حرامى خزن فى مصر ، خارج من مؤبد ، مستعد لفتح كرش أى ضابط شرطة يعترض طريقه أو يعاكسه فى رزقه أو حتى يناوشه ،

جميع ضباط الشرطة يخشون بأسه ويأسه . تركوه يفتح هذه الغرزة أفضل من فتح الكروش وكسر الخزائن ، غرزته جميلة فعلا ، نظيفة ، منضبطة ، تأخذ شكل المقهى بما يتوافر لها من كراسى ومناضد بمفارش ملونة مصفوفة داخل العشة الكبيرة الواسعة كملعب الكرة وخارجها . لها نصبة مبنية بالرخام والقيشانى مزودة بأفخر الأكواب والبراريد والصوانى النحاسية والطقاطيق والنرجيلات - للمعسل فحسب - فضلا عن الجوزات للتحشيش الصرف . الصبيان الذين يخدمون الزبائن على شئ من النظافة وحسن الخلق ينطوون على خشونة وعجرفة وغطرسة مستمدة من شعورهم بقوة معلمهم وسطوة نفوذه ، يرفعون سعر الحجر إلى قرش صاغ بدلا من قرش تعريفه يعنى ضعف سعره فى الغرز الأخرى ، والشاى إلى قرشين وذلك - فى زعمهم - للمحافظة على مستوى الزبائن وطرد الواغش .

استطاع المعلم جلال بكياسته وخبرة السجن المؤبد أن يجتذب نوعيات منتقاة من أنظف الزبائن وأميلهم إلى الرصانة والمظهرية ، من صحفيين وفنانين وموظفين كبار فى القطاع العام ، ومساتير التجار ، وأبناء ضباط الثورة الموسرين الذين حلوا محل أبناء الباشاوات يدفعون البقشيشات بغزارة غير مفهومة المصدر . فيحظون بخدمة تميزهم عن غيرهم ، وعلى غيرهم الانتظار حتى ينتهى الصبيان من خدمة البكوات على راحتهم ، ومن لا يعجبه فالباب - عدم المؤاخذة - يفوت الجمل . الكثيرون من الحشاشين العتاة ومن بينهم شلتنا ينفرون من غرزة جلال وإن كانوا من أصدقائه بل ويحصلون - إن حششوا عنده - على أحسن حظ من الخدمة المتميزة ولكن فى أثناء وجوده فحسب ، أما فى حصة النهار حيث يكون هو فى سابع نومة فيخضعون لمزاج العيال الصبيان ، وإنهم لمن الخبثاء الملاعين . تنكسر عيونهم بالفلوس وحدها .

وجهة نظر شلتنا أن التحشيش فى مقهى عام ، أو ما يشبه المقهى العام ، يختصر من المزاج نصف المتعة يؤخر وصول الدماغ إلى مرحلة الفُل ، حيث الشرب بطىء جدا بحكم الزحام ، الحجارة تجئ عشرا عشرا مهما كان عدد

الشلة كبيرا ، الواحد لا ينوبه من الطرحة إلا حجر واحد ، فإلى أن تجئ العشرة التالية ويتم تغيير ماء الجوزة وطحن النار فى المصفاة تكون الأنفاس السابقة على ضآلتها قد تبخرت من الدماغ . فإذا صاح أحد فى استعجال الصبى أو فى طلب جوزة إضافية ردوا عليه فى برود بأن الصبر حلو ، وأن الله مع الصابرين ، وأن الدنيا ما طارت بعد ولن تطير ، وأن كل تأخيرة وفيها خيرة ، إلى آخر هذه الردود الجاهزة المثيرة للغيظ والغضب . عمال بلطجية مسحوبون من ألسنتهم الخشنة العمياء ، ثم إن الراديو عندهم مفتوح بأعلى صوته لا سبيل لتخفيضه لأن الجميع من حقه أن يسمع ؛ فى نفس الوقت من حق الجميع أن يتكلم . وفى ظل الراديو الصادح لا كلام إلا بأعلى صوت . مثل هذا الضجيج يتكفل وحده بتطيير أعمق الأنفاس ، يصدع الدماغ مهما كانت التعميرة جيدة . ومن مصلحة المعلم جلال - بالطبع - ألا تشعر بالانسطال أبدا لكى تظل تشرب وتشرب إلى غير نهاية .

أمثالنا من الحشاشين العتاة يفضلون التحشيش فى غرزة صريحة ، ليست من المقهى فى شئ وإن كانت مثلها تقدم شايا وقهوة ولكن كخدمة جانبية يمكن الاستغناء عنها أو تعطيلها فى أية لحظة لأى سبب . وكلما كانت الغرزة أقرب إلى الكهف أو القبو أو الجحر أو الخن لعبت بمزاج الحشاشين وأثارت خيالهم . يضاعف من متعة الحشاش أن يكون جالسا - حيثما كان - للتحشيش فحسب ، محاطا بتحفظات كثيرة مثيرة . الغرز الصريحة كالبارات لا تشغل نفسها بأى شئ آخر تتسلم الحشاش من لحظة جلوسه بأطقم من الحجارة وراء بعضها فى كثافة لا تضيع دقيقة واحدة ، وفيها يتخصص العمال ؛ واحد لتنظيف الحجارة ، واحد لتعبئتها بالمعسل ، واحد لإحياء النار وطحنها فى المصافى ، واحد لتغيير ماء الجوزات ، واحد أو أكثر لخدمة الشاربين حيث يقعى أمامهم على الأرض ممسكاً الجوزة بيد ومصفاة النار بالأخرى يضغط بها على الحجارة لإحكام الأنفاس وهذا العامل هو أقل الجميع أجرا لأنه يعتمد على البقشيشات .

سرداب «على منجة»

المدخل الثاني لغرزة حكيم من جهة شارع الانتكخانة ؛ لكن المرور منه محرج هو الآخر . على ناصيته بازار المعلم «على منجه» ، هو دكان صغير جدا ، يبيع السجائر وأنواع الحلويات المغلفة والمياه الغازية ؛ مجرد مظهر فحسب ؛ أما التجارة الحقيقية لعلى منجة فإنها الحشيش والأفيون .

المعلم على منجه رجل أريب مصه الأفيون ، لوعته السجون العديدة المتوالية . تعرفه الأحياء القاهرية البعيدة نظرا لحرصه الشديد على مستوى جودة الصنف ؛ يتخصص في حشيشة من البريمو تعرف بالبودرة الزرقاء ، لا يغيرها مطلقا مما يؤكد أنه يتعامل مع مصدر واحد من أصحاب المزارع في لبنان وذلك أمر يحرص دائما أبدا على تأكيده لدى كل فتفوته يبيعها لزبون حتى وإن كان الزبون عجولا وغير معنى بمعرفة شئ من هذا .

عيب المعلم «على منجة» أنه يمص دم المشترى بصنعة لطافة وإن كانت ملحاحة سمجة مكشوفة . إلا أنه ناعم وسام كثعبان صحراوى ، وجهه فى لون الشيح ؛ من فرط هزاله وهروب الدم من وجهه لا تكاد تراه . غليظ الشفتين ، متآكل الأسنان، جاف الحلق باستمرار إذ أن السيجارة «الوينجز» التخينة بدون فلتر لا تفارق شفتيه . بصره حاد ، متلصص ، فيما هو غاطس خلف البنك الزجاجى المزدان ببرطمانات الطوفى والكرملة والفوندام والنعناع واللبان والمصاصة والبمب والبالونات «النفافيخ» يلمح الواحد منا وهو مار فى الطريق على الرصيف المقابل ؛ يختطفه بإشارة جادة حاسمة من ذراعه المعروقة ؛ وبابتسامة تشبه حبة الطماطم المنعصة لكنها مليئة مع ذلك بمشاعر الترحيب ومظهر الشهامة والكرم والوعود البراقة كأنه سيبشرك بخبر سعيد أو سيمنحك هدية ثمينة ، يستميلك خطاف هذه الابتسامة ينغرز فى عنقك فإن حاولت الابتعاد يوجعك فلا تتملص — من باب

الذوق على الأقل – هكذا تدلس على نفسك – لابد أن تميل نحوه لكى تسلم عليه بصرف النظر يا أخى – كما سيقول لك لابد – عن أيها حاجة .

– « إحنا ما نعرفش بعض غير عشان المصالح ولا إيه ؟

دا احنا رجاله يا جدع ؟

ما أن يلمحك تحود عليه حتى يقب ساحبا العكاز تحت إبطه ، يمرق من فتحة البنك إلى الثلاجة الحمراء المنصوبة بجوار فاترينة السجاير خارج الدكان؛ يفتحها متجاهلا صياحك بأنه لا لزوم للتحية ؛ يزيح قطع الثلج يجس بيده الزجاجات يختبر برودتها لينزع أبردها ؛ فى لمح بالبصر : تك اتفضل يا بيه مطرح ما تسرى تمرى . ويضيف دائما كتعليق على قبولك الامساك بالزجاجة .

– « بل ريقك ! الدنيا حر ! نار ! ربنا يكفينا نار جهنم ».

أثناء شربك البطئ للزجاجة الغارقة فى الصقيع ، يعبث هو بأطراف أصابعه الطويلة خلف أذنه فإذا هى بعد برهة ممدودة إليك وعلى ظفر إبهامها لحسة أفيون ذى رائحة نفاذة بالطزاجة المغوية الرهيبة فى آن كطزاجة الخطيئة :

– « ادينى بقك خد البوسة دى»

الشائع لدى الأفيونجية المبتدئين أن المياه الغازية تفسد مفعول الأفيونة . والمعلم «على منجة» دائم السخرية من هذه الغشومية :

– « صل على النبى امال ! الأفيونة الأصيلة مفيش حاجة تفسدها ولا حتى الليمون ! »

أنت تطيل الوقفة مرغما لتفكر فى مخرج من هذه الورطة . ينصحك المجربون من أمثالنا بأنك – خل بالك يعنى – كلما أطلت الوقوف ازداد تورطك ؛ لأنه فى الحال سيعزم عليك بسيجارة محشوة:

– «دى تعميرة لسه طازجة مانزلتش السوق ! ربنا يكرمك ويكون لك نصيب فيها ! مش بعيدة على ربنا » !

عملا بالنصيحة تطلب منه – على مضض – ربع قرش ، أو حتى تمناية . تعتذر عن ضآلة الطلب بضيق ذات اليد حاليا ، ولابد أن تردف هذا بقولك إنك لا

تحب الاستدانة ولا تؤمن بالسلفة حتى ولو بمليم واحد . احذر أن تبدو لينا أو مترددا فى هذا القول ؛ لأنه سيلهيك بالتشجيع :

- « ما يهمكش الفلوس يا أستاذ ! من امتى كانت المدعوقة الفلوس دى لها قيمة ؟! احنا بنعرف بعض عشان الفلوس ؟ جرى إيه يا جدع ؟ عايز قد إيه ؟ » .

هو واثق أن حقه مضمون ؛ فأنت لابد ستشرب هذا الحشيش فى واحدة من مجمع الغرز فى حى معروف فى سرته فى رحاب ضريح الشيخ معروف نفسه . هى كلها غرز تحت عينى المعلم « على منجة» وفى متناول يده فى أى لحظة من ليل أو نهار . ما أسهل أن يطب عليك كالقضاء المستعجل فى لحظة لا تتوقعه فيها على الإطلاق ؛ الدفع أو الفضيحة كلاهما صعب ومهين . لو أنك تعرضت للتهزئ فى الغرزة مرة واحدة - وبسبب الفلوس بوجه خاص - فلن تفلح فى استرداد كرامتك بعدها مطلقا مهما بالغت فى الانفاق عن سعة .

المشكلة أن «على منجة» يبيعك الربع قرش بأربعين قرشا فى عز الرخص ، فى حين تبيعه أم يحيى - زوجه السابقة - بخمسة وعشرين قرشا فقط ، نفس التعميرة وربما أجود منها بكثير ، إضافة إلى أن يد أم يحيى سخية جدا ، قطعيتها تملأ العين ، تشعرك بالرضا والاقتناع التام بأن هذه القطعة ربع قرش حقا وفوقه بوسة تزن عشرة حجارة بالراحة . أما هو ، فيده والعياذ بالله مسممة، تقصول الربع قرش إلى حجم حبة الفول التعبانة ملفوفة فى ربع فرخ من الورق السوليفان ، ومبرشمة بطريقة يستحيل فتحها إلاّ على مهل بعد انصرافك حيث لا فائدة ترجى من اعتراض أو غضب ، لن ينوبك سوى العكننة على اللى حصل فمن الحكمة إذن أن تضع نفسك تحت طائلة المثل الدارج : «اللى وقع ينسلخ» مسلما أمرك وعوضك على الله .

وإذن ؛ فإن المرور من أمام كشك المعلم على منجة شائك وحرج وغير مستحب على الإطلاق .

عطفة أم يحيى

يوجد مدخل ثالث إلى غرزة حكيم من شارع الشيخ معروف من خلف مسجده حيث يقودك سرداب ضيق متعرج ، مزدحم بطوائف لا حصر لها من أطفال ينامون على الأرض عرايا وسط دوائر من خرائهم مغزوة بجيوش من الذباب المعتق والسحالى والخنافس والصراصير الطائرة . نسوان بارشات على الأرض أمام طشوت الغسيل وبوابير الجاز المشتعلة تحت صفائح المياه المجلوبة من حنفية الصدقة على تخوم حى بولاق أبو العلا . عجائز يفرشن بحلوى نبوت الغفير والعسلية وغزل البنات يهاجمها الذباب بكثافة . كلاب ضالة جرباء تلعق مؤخرات الأطفال والأوانى فتباغتها الضربات الموجهة فتعوى قافزة من شدة الألم لتواصل صراخها الملتاع على مبعدة قريبة . رجل بعياله يتحلقون طبق الفول المدمس يتسابقون فى قضم الأرغفة مع رءوس البصل الأخضر . رجل آخر يفترش الأرض الرجلة مستغرقا فى نوم كمومياء هاربة من المتحف المصرى الواقف على مبعدة خطوات قصيرة .

المرور من هذا السرداب يتطلب تدريبا وقدرة بهلوانية . إن المار منه ليبدو للرائى من بعيد كأنه يؤدى رقصة على الجليد أو فى حقل من الأشواك المسنونة . لسوف تمر فى طريقك على بيت أم يحيى . كلبها الشرس - أبوه ذئب - المربوط فى جنزير مثبت فى الباب لكى ينبه أم يحيى لقدوم أى وافد غريب فتأخذ حذرها مبكرا . هو على عكس الكلاب كلها لا يألف أحدا على الاطلاق مهما كان زبونا يتردد عليه عشرات المرات كل يوم : كلب لا يعطى للزبون ريقا حلوا ، من شدة نذالته أنه حين يتبين أن الزبون قديم ومعروف لديه يكتفى بدفن رأسه بين كتفيه ويروح يزأر بقوة وحشية فيما يحملق فى الزبون بنظرات عدوانية مستريبة مستعدة للغدر فى لمح البصر . يظل يزأر ويزوم إلى أن يسكته صوت أم يحيى من شرفة

الطابق الثانى وهذه عبارة عن بقايا جدار خشبى بارز من بقايا مشربية هرمة متهالكة .

إذ تتعرف أم يحيى على الزبون ، تبتسم الغمازتان فى صدغيها المدورين البارزين ، يشرق وجهها الخمرى المدور تحت عقصة المنديل أبو أوية ومن تحت خصلة شعر ناعم تتخلله شعيرات بيض تبدو جميلة فى تدويرة وجهها ذى الجاذبية الشهية الكاشفة عن جمال غابر كان لاشك آسراً خلابا . باطمئنان فولاذى تشد حبلا بجوارها ، ينزاح الترباس عن مرقده ، ينفتح باب الشارع .

أنت يجب أن تدخل بظهرك تحسبا لاستندال الكلب ، سترى فى مواجهتك سلما خشبيا أنت لا شك تعرفه جيدا ، مع ذلك يشد انتباهك دائما كأنك تراه لأول مرة ، درجاته أشبه بعلب أو صناديق خشبية ترقد فوق أطراف بعضها البعض . بسطة فالثانية فالثالثة تراك فوق سطح يطل على الخلاء من ثلاث جهات سقطت أنصاف جدرانها فوسعت المدى . على البسطة الأخيرة تكون أم يحيى فى انتظارك، فى يدها كيسة من العبك معقودة برباط مدكك فيها . عليك أن تمد يدك بالفلوس فى الحال . برؤيتها للمبلغ الممدود تعرف قدر ما تطلب ، تفتح الكيسة ، تنتقى لك طلبك ، فى لمح بالبصر تخفى الكيسة فى سرداب سحرى بين الهديم المتراكم حواليها ؛ تبقى واقفة على رأس السلم تواصل الزئير الخشن فى كلبها حتى تطمئن إلى أنك وضعت قدمك على أرض الحارة فتغلق بابها وتنسى تماما أنها شرفت برؤيتك .

خطوات قليلة من عندها تجد نفسك بعدها محاذيا لغرزة المعرق . إنك لتتجاوزها رغما عنك ؛ إذ هى مجرد دكان صغير كئيب تفح منه الرطوبة والعفونة وأسراب النمل والذباب وبرك البصاق والبلغم المطرود من صدور زبائنه المقرفين شاربى الحشيش السكة يضعون على بشرة الأرض السوداء قروحا منتفخة متقيحة لا تجد من يتحمس لردمها بالتراب . عينيك تنشد تلقائيا إلى غرزة حكيم المواجهة لك مباشرة ، بريحها الطيب الحميم .

إلا أن الدخول من هذه العطفة غير مستحب اللهم إلا إذا اشتريت الحشيش من أم يحيى وقفلت عائدا بضعة الأمتار التى قطعتها فى العطفة حتى بيت أم يحيى ، فإن واصلت السير فى نفس العطفة ستمر على شباب خاملين ، عاطلين ، تقرحت جفونهم من فرط السهر وشرب الحشيش الردئ ، هزلت أبدانهم داخل أسمال مرقعة لا لون لها ، لا شكل ، لا هوية . هم مع ذلك طيبون ، غلابه ، حلانجية ، الواحد منهم يعلق بك بمجرد مرورك عليه سواء نظرت إليه أو تجاهلته ، لابد أن يفرض عليك صحبته وخدماته بأى شكل بأى حيلة ، لا يقيم لاعتراضك أو تأففك أو حتى اشمئزازك أى وزن ، أجارك الله من الولد سوكه مثلا ، هو ليس غرزجيا محترفا ، ولا بلطجيا متمرسا ، إنما هو - هكذا يلفت نظرك بالمفتشر - رجل محترم ، ويعجبك ، توسم فيك الجدعنة فأحب أن يعمل معك واجبا . يقصد طبعا أنه يريد أن يمسك لك الجوزة بنفسه إذ هو يعرف كيف يسقيك حجرين معتبرين أبرك من مائة تشربها من يد العيال الغرزجية أولاد الحرام الذين لا يخدمون بذمة، لا نارا صاحية ، لا جوزات سالكة نظيفة كما يجب ، فوق ذلك يأخذون بقشيشا!! على ماذا يا حسرة ؟! إنهم لصوص باسعادة البك صدقنى ! الولد منهم يضع بوزة كله فوق الحجر؛ قبل وضع النار عليه ، حجته أنه ينفخ الدخان المتبقى فى الجوزة ، وأنت عدم المؤاخذة يتهيأ لك أن فى هذه النفخة فوق الحجر تسليك للحجر حقيقة الأمر - صدقنى - أن الولد الملعون - كلهم أقصد - يسرب لسانه الذى يستأهل قطعه ليلتقط التعميرة من فوق المعسل ولا من شاف ولا من درى ؛ ثم يصب النار فوق الحجر وأنت تشد أنفاسا من معسل حاف ؛ ينقطع قلبك من الشد وليس فى دماغك شئ يوحد الله ؛ يعنى أنت تشترى التعميرة من عرق جبينك ليسرقها منك ابن القحبة هذا ويسقيك الأونطة وهكذا يرمى الآخرين بما يفعله هو، ينبهك إلى نقيصته من حيث أراد تحذيرك منها عند الآخرين .

المؤكد أنك بانتهاء العطفة عند باب غرزة حكيم لابد تفاجأ بأنك صرت مخفورا بواحد أو اثنين وربما ثلاثة يمشون بحذائك مشية الصحاب . يدخلون الغرزة معك،

يجلسون بجوارك رافعين الكلفة بشكل تكاد تضيع معه هيبتك . قد يتناحرون على تحديد من يقوم بخدمتك . فى الغالب يسفر التناحر عن عراك عنيف ، وإن كان مكتوما بشفرة سرية مدركة لديهم ، تنتهى بعد قليل بانسحاب الأضعف ؛ فإن كانت قواهم متكافئة فإنهم سرعان ما يتفاهمون بنظرة مدربة ؛ فبدون عراك أو تناحر يتقدم أحدهم ويبقى الآخران على مقربة منك محتفظين بمسافة قصيرة ، ليس احتراما لك بالطبع ولكن هذه المسافة على قصرها تتيح لهما فرصة الادعاء بأنهما ليسا من ضمن القعدة إذا ما هجم البوليس على الغرزة فى أية لحظة وهى هجمة متوقعة فى كل برهة . الذى تقدم ليسقيك سيكتفى بتنفيض الحجر وراءك ، أى أنه يسحب الأنفاس المتبقية فى الجوزة بعد شدك للنفس بأى عمق تشاء ؛ تلك هى بهريز الأنفاس لم يستطع صدرك احتواء ها كلها حيث النار قد التحمت بالتعميرة فتوهج عطرها وطشطش زيتها . الولد نفسه – برغم نشفان صدره – لن يقدر على سحب البهريز كله إذ هو مكثف وعميق ، سيشد نفسا خاطفا ويدخل بالباقى على رفيقيه ؛ إلا أنه من حين لآخر يدخل على رفيقيه – بعد إذن سعادتك – بحجر يسفحانه معا لا يشاركهما فيه أحد .

أنت لابد أن تضيق بصحبتهم بتطفلهم المقيت الموجع خلال خمس دقائق من جلوسهم قبالتك . حكيم صاحب الغرزة الأرقم ، ومن مكمنه خلف براميل الحجارة فى ركن بعيد ؛ هو الوحيد الذى سيشعر بضجرك قبل أن يظهر عليك ، سيلوى بوزه يمطه شبرين من شدة الحنق . صبيان الغرزة – المعتمدين– سيرمقونك ويرمقونهم بنظرات غير مريحة ، يسخرون بها من شدة استغفالك واستسلامك للابتزاز بسهولة ؛ ولكن عقابا لك على جلبك سيمكرون بك إذا طلبتهم للخدمة .

وإذن ؛ فالدخول من هذه العطفة مجلبة للكدر وتعكير المزاج من كل ناحية . النصيحة أن تأخذ حشيشك من أم يحيى وتستدير مرتدا إلى شارع معروف باحثا عن المدخل الأفضل .

الدرب المكشوف

المدخل الوحيد الآمن لغرزة حكيم فيما يبدو هو ذلك الدرب المفتوح على شارع شامبليون . مع ذلك هو الآخر ليس يخلو من بعض المقلقات . على ناصيته دكان يبيع المقشات والفرش وأدوات التنظيف بوجه عام . صاحب الدكان لا يحلو له الجلوس إلا في مدخل الدرب الرطب ، يدخن النارجيلة مع صاحب أو اثنين . القعدة ملقف ، يجتنب المارين للجلوس . وجوه تتجدد باستمرار في هذه القعدة ، لناس من سكان الحي أو من زبائنه ، عيونهم فضولية بشكل مريب ، تتفحص كل داخل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كأنه خروف معروض للبيع .

بجوار هذا الدكان دكانة صغيرة كانت فى أصلها فراغا ضيقا بين ضلعين بارزين لبيتين متلاصقين ؛ استعمره رجل كان موظفا في البلدية وأحيل على المعاش اسمه حوده المعصراوى قام بتقفيصه بمتانة وإحكام فجعل منه منفذا أنيقا لبيع السجائر والمرطبات ، فلا سكان البيتين اشتكوا ولا أصحاب البيتين تذمروا ، لحوده المعصراوى ابن كبير يعمل محاميا شهيرا ، كما أنه عضو باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ، وكان معدودا بين اليساريين المحترفين .

الأستاذ حلمى المعصراوى المحامى وعضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى كان بطبعه محبا للجمهرة حبه للحوار السياسى المعتدل . شقته السكنية كانت فى شامبليون فى مواجهة دكانة ابيه مباشرة ؛ فاتخذ من رصيف الشارع - تنشيطا لدكانة أبيه - قعدة مسائية يؤمها أرهاط من الكائنات الليلية من صحفيين ورسامين وشعراء وسياسيين محترفين ومحامين مخضرمين وآخرين تحت التمرين وأدباء جدد وفدوا حديثا من قراهم البعيدة يتحسسون ليل القاهرة . كل أولئك وهؤلاء يتناقشون فى السياسة - الخارجية بالذات - وفى قضايا الفن والأدب ؛ يستمعون إلى قصائد الشعراء وقصص الأدباء فى شبه ندوة مفتوحة على الهواء

الطلق يبـاح فيها لكـل من وضع ساقا على ساق أن يستفرغ كل ما قرأه من كتب لطشت دماغه ، ويقول أحكاما كبيرة بكلمات ضخمة وحماسة أشد لكنها بالمجان .

القعدة تستقطب كل يوم وجوها جديدة مطموسة الملامح مجهولة الهوية ، متنكرة فى زى شعراء وقصاصين ونقاد وهواة أدب . تقول الشائعات إنهم مخبرون قد دستهم الحكومة على رواد هذه القعدة لكشف خباياهم ، وأنهم - بالمرة - يترصدون كل داخل إلى هذا الدرب خاصة المثقفين منهم وبالأخص ذوى الأسماء المعروفة وذلك لكتابة تقارير وافية عنهم .

بصرف النظر عن صحة الشائعة أو كذبها فإن الداخل إلى هذا الدرب يشعر بكثير من الحرج إذ يراه كل هذا العدد من المتكلمين المتحذلقين رغم تعاسة مظهرهم ، المتحفظين ظاهريا فيما هم يرمقون الداخل والخارج بنظرات استرابة واستعلاء سمج . إلا أن الواحد منا لم يعد يأبه بهم أو بغيرهم ؛ ذلك أن محيط المثقفين كله - فيما يشاع بقوة وثيقة - مخبرون فى مخبرين متطوعين لله فى لله ؛ لقد أصابهم الجو العام بمرض البحث عن أسرار وخفايا الآخرين وتسقط أخبارهم بكثير من الاهتمام والشغف ؛ ليس لكتابة تقارير فورية مطلوبة لأية جهة من الجهات المعنية ؛ بل ليدخرها المزاج المريض لوقت يترقيه كل واحد بالنسبة للآخر إذا ما نما إلى علمه - صدقا أو كذبا - أن هذا الآخر قد طعنه بتقرير أو بكلمة غير لائقة فى مجلس خاص أو بزمبة فى مكان العمل .. حتى لقد بات المحيط الثقافى على جميع الأصعدة ساحة نشطة من التقارير الشفوية المغرضة يتطوع بها الجميع ضد الجميع كحرب باردة يبادر فيها كل واحد بارهاب الآخر قبل أن يبادر الآخر بارهابه .

وشيئا فشيئا أصبح النهش والتشويه سلوكا عاما ؛ من ثم لم ينج من التشويه أحد على الإطلاق ؛ لم يعد فى البلاد كلها شخص واحد يمكن الاتفاق على طهارته!!

وإذن ؛ فما دام الجميع مشوها فى نظر الجميع حتى ولو كان طاهرا بالفعل ، فليسلك كل واحد على راحته دون اعتبار لأى شئ ؛ يضربها صرمة ويشوف مزاجه داخلا الدرب الذى يوصله إلى ما يشاء ؛ سيما إذا كان هذا الدرب المفتوح على شارع شامبليون هو أسهل وأقصر المداخل إلى غرزة حكيم الحميمة الساحرة الساهرة .

الغــرزة

الغرزة عبارة عن بيت صعيدى مبنى بالطوب اللبن على أنقاض بيت مدينى قديم تمت إزالته منذ سنوات بعيدة منذ أن أعلنت الحكومة عن عدم مسئوليتها عن السكان ، لأن الحى كله آيل للسقوط بقرار رسمى من حكومة الثورة عقب توليها الحكم مباشرة . قاعتان متقابلتان على يمين باب الشارع ويساره؛ يفصل بينهما ممر واسع يمتد داخل البيت، حيث يظهر – فى بركة من ضوء الشمس ساقطة من ناروزة فى السقف – سلم مبنى بالطين تبدو من فتحته – شأن بيوت الصعيد – أطراف أحمال القش والحطب مكومة بكثافة فوق السقف المصنوع من أبواب ورفارف وأسقف سيارات قديمة مطروحة كيفما اتفق على عروق من الخشب تخينة وبعض أسياخ حديدية . تحت حنية السلم زير كبير فوق حامل من الحديد أشبه بميزان القبانى؛ الأرض من تحته رطبة مشبعة برشح الماء . بجواره عدد من البلاليص والباستيلات والصفائح الصدئة . أسراب من الدجاج والبط والأوز والأرانب تجرى وتقأقىء وتجأر فى سنفونية من الزئيط المبهج كلما أطلت زوج حكيم من القاعة الجوانية الوحيدة المعدة لنوم حكيم وعياله .

القاعتان مليستان بالطين والتبن . ثمة مصاطب مبنية بنفس الطين تحت جدران القاعتين ساير داير . يوجد عدد من الكراسى القديمة مفعصة الأرجل رشقت أقراصها بمسامير صغيرة كالخديعة تتآمر على سراويل من يحاول الجلوس عليها من الوافدين الجدد . يوجد أيضاً بعض صناديق خشبية وجرادل مقلوبة ليقعد عليها الصبيان أثناء خدمتهم للزبائن . لكل قاعة شباك مطل على الباحة المستباحة خارج الدار؛ الشباكان مغلقان كل بدرفتيه، فيما عدا شراعة صغيرة فوق كل من الشباكين أشبه بفتحة البرنج الدائرية يتدفق منهما الهواء والضوء والتراب وشخر الباعة الشضلية وغنغ النسوان السليطات فى ردع

بعضهن البعض. ومنهما أيضاً – من هاتين الشراعتين – يقذف الزبائن حشيشهم إلى الشارع إذا ما داهمتهم كبسة الشرطة الغدارة دائماً كهمّ الموت .

القاعة التى على يمين الداخل هى الأكثر حميمية لدى بعض عتاة الحشاشين الذين لا يعنيهم من أمر الغرزة إلا فرصة التحشيش المكثف السريع الإيقاع ؛ سياسة خطف المزاج من وراء ظهر الشرطة واتقاء شرها بالإنصراف مبكراً من مسرح الجريمة؛ تراهم يحششون بغزارة وبجدية لو بذلوا ربعها فى أعمالهم لباتوا من العباقرة . يريد الواحد منهم طرقعة ثلاثين أربعين حجرا فى نصف ساعة على الأكثر فيثيرون فى الغرزة توترا جالبا للشؤم يتذمر له الصبيان ويتبادلون بسببه الشتائم المقذعة . هذه القاعة هى مقر الحجارة ومنقد النار ومجلس الصبيان فى حال ندرة الزبائن . فى هذه القاعة يستطيع المتعجل أن يمد يده فيسحب الحجارة التى يشاء سالكة ملآنة بالمعسل الطرى الطازج؛ لا حرج فى أن يقوم بنفسه فيطحن لنفسه قطعة نار فى المصفاة يتولى إشعالها جيدا، لابأس أن يواصل خدمة نفسه بنفسه إلى أن يدركه أحد الصبيان أو أحد الذين يجلسون هاهنا دائماً من أبناء الحى على فيض الكريم فى انتظار أن يعطف عليهم أحد الزبائن بحجر أو يتفضل بدعوتهم لخدمته مقابل التنفيض وراء الشارب وتوليع حجر من حين لآخر.

الباحة الخارجية أكثر سعرا من الغرزة نفسها ولا سيما فى ساعة الأصيل وفى الليل . ثمة طريق ضيق يمر أمام باب الغرزة كان فى مبدئه حارة ضيقة شأن كل حوارى حى معروف؛ لكن البيت الذى كان مواجها للغرزة مباشرة إنهار منذ سنوات طويلة ؛ بقى منه أساس الجدران فحسب وكان مبنيا بكتل من الحجارة بارتفاع حوالى مترين عن أرض الحارة ، أما الطوب والأسمنت وزلط السقف فقد تكوم كله داخل هذا الأساس الممتد على مساحة مربعة الأضلاع كل ضلع يصل طوله إلى أربعة أمتار . أقدام الناس والمياه القذرة التى تلقى على الهديم من جميع الجهات تكفلت بتحويل الهديم إلى أرض مزلطة ؛ فأصبح الطلل القديم

أشبه أو أقرب مايكون هذه الربوة العالية المربعة أحسن استغلال : جعل منها غرزة إضافية تنتعش فى أمسيات الصيف ؛ أعطت المكان كله لمسة فنية وجوا من السحر الشعبى بزخمه الحراق الموغل فى الدونية بلذة فائقة تنتشر عدواها بسرعة بقوة يعجز عن مقاومتها كل أفندى نظيف الثياب محفلط .

ترتص الكراسى المصنوعة من القش فوق هذه الرابية ابتداء من ظهور شفق الأصيل مصبوغا بدم حياء وجه الشمس وهى تداريه بأطراف الطرحة منسحبة فى هدوء لتدخل مخدع القمر . تلك هى ذروة العصارى فى مزاج القبضايات من سراة التجار والأعيان وصبيانهم ورجالهم ، يحتلون الكراسى فوق هذه الرابية لتمسية العصر السريعة ينطلقون فى أعقابها إلى محلاتهم ومتاجرهم ومكاتبهم وقد اندهن الهواء والفضاء والمرئيات فى أنظارهم بالدوكو بألوان زاهية مبهجة ؛ لاينقطع لهم ورود طوال الليل؛ شلة تسلم الرابية لشلة، لتعود بعد أو قبل منتصف الليل لتتسلمها .

أما شلتنا من الأدباء والشعراء والفنانين والرسامين والصحفيين وبعض طلبة الجامعة؛ فإنها مغرمة بالجلوس تحت شباكى الغرزة من الخارج ، يجاورنا من الجنب الأيسر زبائن غرزة المعرق؛ ومن الجنب الأيمن درب رطيب ينتهى بخرابة يحتلها صاحب ورشة للديكو يتلقى اللعن وسب ديك الأم ليل نهار من الحشاشين الذين تضيع من أنوفهم نكهة الحشيش لأن رائحة الدوكو النفاذة القوية تحتل أنوفهم حتى بعد انصرافهم عن المكان.

الجالسون فوق الرابية – خاصة فى العصارى – يبدون لنا كأنهم ممثلون على خشبة المسرح ونحن فى موقف الفرجة عليهم أردنا أو لم نرد . هم كذلك يأخذون منا موقف الفاعل على خشبة المسرح الذى يشعر أن هناك من يتفرج عليه فإذا هم يبادلوننا القفش والتنكيت والمشاغبة الدائمة . كثيرا ماننمدج جميعاً فى حالة من المرح الصاخب ، نتبادل الردح والتلقيح حول مباريات الأهلى والزمالك .

يدب الوهج فى القعدة مع دخول الأصيل ؛ يتوتر قليلا مابين صلاة المغرب والعشاء فى جامع الشيخ معروف، يصاب بالخمود لبرهة وجيزة عقب صلاة العشاء؛ ثم يرتفع أواره مرة واحدة فى حوالى العاشرة مساء، حيث يكون الاتصال بين الرابية والحارة واضحا ونشيطا ورشيدا؛ لا أحد من هنا أو هاهنا يقع فى الغلط لأن الجميع يرى الجميع، فتكثر المجاملات المبالغ فيها بين الرابية والحارة؛ حجارة ممهورة من الرابية بنهارها وساقيها تهدى إلى الجالسين فى الحارة تحت شباك الغرزة ؛ ومثيلاتها تصعد من الحارة إلى الرابية ممهورة بتعميرات أكثر سخاء. أما فى عمق الليل، فى الجزء الأخير منه على وجه التحديد ، يصير منظر الرابية حافلا بالسحر والغموض والأسرار ؛ قد لايعرف الجالس فى الحارة أن لفيفا من أعز أصدقائنا المحبين للصمت والدورة والتميز يجلسون فى ركن بعيد فوق الرابية حيث لايظهر فى الظلام الدامس سوى أشباح الجالسين ووهج النار فى المصفاة وفوق الحجارة كنجوم تتهاوى تحد أقدامنا فلا نعثر لها مع ذلك على أثر، وسحب الدخان الكثيف تبدو فى الظلام كأن العتمة تتموج تتحرك تتخفف من بعض قتامتها لترتد فتزيدها كثافة .

المعلم

حكيم صاحب الغرزة صعيدى من ريف محافظة أسيوط لايحب ذكر قريته فى معرض الحديث إلا للضرورة القصوى إذا امتد البساط بينه وبين أشخاص يشتم بحاسته السادسة أنهم من نواحى بلدته؛ وفيما عدا ذلك فإنه يعتقد أن اسم المحافظة : أسيوط هو فى نظره أغلى وأهم إذ هو الأكبر أى أنه كلقب العائلة رمز للانتماء .. يملك فى بلدته قطعة أرض زراعية من طرح النهر فى جزيرة أولاد الياس إمتلكها ذات يوم بعيد جدا بوضع اليد ثم تولاها بالإصلاح والتوسيع والردم وزرعها بأشجار الرمان والبرتقال واليوسفى والجوافة والمانجو؛ وابتنى على ناصيتها – فوق شط النهر مباشرة – بيتا جميلا بالطوب الأحمر يحتوى على أربع غرف وشرفات من كل الجهات كبيوت العمد ؛ تقطنه أمه وأخان صغيران وثلاث بنات على وش زواج ؛ يخفرون الأشجار ويرعون الفجل والجرجير والطماطم . فى الصيف من كل عام يسافر حكيم إليهم ، فيمكث بينهم مدة شهر على الأكثر يبيع ما طاب من محاصيل وينشن على قطعة أرض جديدة ليتفاوض على شرائها بنفس طويل وأعصاب هادئة مستخدما فى التأثير على أصحابها سلاح المال الموجود فى جيبه على الدوام واستعداده للدفع فورا؛ وذلك أمر قلما توفر لغيره من بلدياته المقيمين فى مطارحهم لا يبرحونها. إن الفلوس التى يجمعها من الغرزة طوال العام بجلباب واحد لا يغيره صيفا أو شتاء وهو مع ذلك نظيف دائما ، تتحول فى الصعيد الأسيوطى إلى قطع من الأرض والسلاح لاستكمال عناصر القوة التى ينبغى أن يكون عليها عندما يأون الأوان ويعود الغريب إلى موطنه معززا مكرما صاحب أملاك وعزوة .

أثناء سفره يغلق الغرزة . نلوص نحن بين مختلف الغرز التى لا ننجذب إليها ولا تريحنا إن لجأنا إليها خاصة ونحن فى حال اضطرار يضاعف من شعورنا

بالعكننة . نظل طوال شهر كامل نسعى – كل من جانبه – للكشف عن غرز كانت خافية علينا فى بولاق أبو العلا أو زينهم أو الجيارة أو حتى الجمالية والدراسة والنبوية وهى أحياء مكشوفة وخطرة. ولربما وجدنا غرزا جديدة هنا وهناك تعتبر اكتشافا بكل المقاييس لكن اجتماعنا فيها لايتم ، ويظل الشعور بالإغتراب يرافقنا فى كل مكان نسعى إليه؛ فروح الحشاش تظل فى انخفاض يؤوب إلى انكسار فانحدار إذا هو لم يألف المكان ويقيم فيه صداقات تحفظ له كرامته وتحمى كيانه فى هذا العالم المزاجى الغريب الذى يجمع على جوزة واحدة ونفس واحد بين الفيلسوف والدهماء ، المثقف والبلطجى ، وكيل الوزارة والفراش ، البيك وماسح الأحذية .

يعود حكيم من الصعيد فنقيم ليلة كبيرة حتى شروق الشمس ، يعاوننا هو فيها بنسبة كبيرة من المعسل المجانى كمقابل لاشتراكه معنا فى الشرب والتدخين . ذلك أن البعض منا مغرم بشرب البيرة أثناء التحشيش شرط أن تكون مثلجة بمعرفة حكيم فى حلة الغسيل الملآنة بقطع الثلج . يحلو لحكيم – إثباتا للقرننة – أن يمسك بالكوب الملآن تعلوه طبقة من الرغوة البيضاء كتاج من الفل ؛ ويكون قد سحب من الجوزة نفسا عميقا طويلا وكتم دخانه فى صدره ، ليضع بوزه على حافة كوب البيرة تاركاً منخريه ينفثان سحب الدخان فيما هو يجرع منه باستمتاع ظمآنٍ أبدى .

طويل القامة هو، ممصوص البدن ، ناشف صلب العود ، عريض الكتفين نحيفهما؛ إلا أنهما مقوستان قليلا فى انحناءة على الصدر كأنه يحمل شيئاً ثقيلا جدا على ظهره؛ أغلب الظن أن قروانة المونة ، أو القصعة التى اعتادا حملها فى شغل الفاعل قد تركت بصمة ثقلها على كتفيه إلى الأبد حتى أنه لايزال يشعر بأنه يحمل القصعة ملآنة بعجينة الأسمنت المخلوط بالزلط . وجهه مدور ، ضئيل الحجم، أسمر كالرغيف السن ، بارز الخدين ، واسع الحنك ، مطبق الشفتين على بسمة عجوز معتقة ؛ الأرجح أنها تجمدت فتمددت فتورم لها خداه؛ فكأن شفتيه

محصورتان بين قوسين كبيرين . عيناه ضيقتان جداً، لكنه حديد البصر، فيهما سهر طويل قرح الجفون نتف شعر الرموش والحواجب. هما مع ذلك غويطتان لا نهاية لأعماقهما ؛ فيهما شقاوة وخبث خفيف الظل معلن على الملأ، مع كثير من السهتنة، وثقل في الأعصاب ، مع لمعة مراوغة تظهر وتختفي ، فتشي - في الظهور وفي الاختفاء - بأنه ماء من تحت تبن ، وأن وراءه سراً عميقاً غامضاً، محيراً ، أنه يقتل القتيل ويمشي في جَنازته ، سيما وأنه قليل الكلام لدرجة أننا لانكاد نحفظ صوته .

نحبه ، نعشق قعدته ؛ ربما لطيبة قلبه ؛ ربما لطول صمته الذي يعطي الشعور بالإطمئنان ويلفت انتباهنا - دائماً وفجأة - إلى مخاطر الثرثرة في جو كهذا لانملك فيه السيطرة على أنفسنا المبسوطة على البساط الأحمدي للقعدة ؛ فإذا بنا نمسك بعد طول انفراط ولو لبرهة وجيزة ننصت خلالها إلى أنفسنا أو إلى غناء أم كلثوم الذي يتضح أنه شغال منذ فترة . على أن حكيم بميزة الصمت هذه أصبح مستودعاً لأسرار الشلة وجميع الشلل كلها؛ يحدثونه في أخص خصوصياتهم دون وجل أو تحفظ ؛ فلا يبخل عليهم بالنصح والمشورة بل والمعونة إن كان في مستطاعه. فإن وصلت المعونة حد إقراض المال فإنه لصبور في المطالبة برد الدين صبر أيوب ؛ وقد لا يطالبك مطلقا ، لا بالتصريح ولا بالتلميح . معرفة الرجال في نظره كنوز لا تقدر بمال ، وكلنا معرضون للزنقة والأزمات حتى الحكومة نفسها يجد عليها أوقات تشحذ فيها من الدول وتستلف بالفايظ من البنك الدولي؛ تحدث في أحسن العائلات ؛ نحن كلنا إخوة من أبناء آدم وحواء؛ والملآن يكب على الفاضي .. أهم حاجة أنك لا يجب أن تتكسف منه وتروح تحشش في غرزة أخرى؛ هذا هو الشيء الوحيد الذي يوجعه ، أن يكون قد طردك بفلوسه يعني موت وخراب ديار.

الشلة التي يعتبرها من أهم أصدقائه - شلتنا يعني - لا يقل عددها عن ثين شخصا تآلفت أرواحهم توحدت أمزجتهم ومشاربهم . منهم الأستاذ في

الجامعة ، والكاتب ، والشاعر ، والرسام ، والممثل ، والصحفى ، وصاحب البازار المتخصص فى العاديات ، والملحن ، والمطرب الهاوى ، ومؤلف الأغانى ، والمخرج المسرحى ، والمدير فى شركة بيع المصنوعات المصرية ، والمحاسب فى البنك الأهلى ، والمحامى الناشىء، وكاتب النيابة ، والسكرتير بجمعية تعاونية ، وطالب الجامعة المزمن المدمن لانتخابات اتحادات الطلاب.

كلنا دخلنا غرزة حكيم أفرادا ، بعضنا طفشان من غرزة خطرة كئيبة نلقى فيها الهوان ، أو هربان من ديون غير قابلة للسداد . بعضنا الآخر مغرم بالبحث عن الأماكن العتيقة فى عوالم متداعية . بعضنا الثالث يبحث عن السعر الأرخص، عن الدورة ، عن التحشيش الثقيل ، عن غرزجى صديق ينوب عنه فى شراء الحشيش على ضمانته .. إلخ .

بفضل حكيم صرنا جماعة متحابة متجانسة الطباع . يراك داخلا عليه وجميع صبيانه مشغولون ، حسب تقديره المبدئى لوزن شخصيتك الجديدة عليه – وهو فى العادة تقدير لايخيب أبداً – ينتقى لك أحد الزبائن النظفاء يتوسم فيه أنه مساو لك فى الوزن والقيمة وكل منكما لم ير الآخر من قبل .. يبتسم حكيم قائلاً لك بكل سماحة وأريحية :

– «إتفضل هنا حضرتك عشان الولد يسقيكم مع بعض قوام قوام!».

تنتقل أنت من مكانك دونما حرج وهو من ورائك حاملا خشبة الحجارة الخاصة بك . يدعوكما للتعارف ؛ فبما أنه فى تسعة وتسعين فى المائة من الأحوال يعرف الآخر من قبل فإنه يبادر بتقديمه لك فى تفخيم واحترام ولطافة؛ فتسارع أنت بتقديم نفسك إلى الآخر . أهلا وسهلا ، فرصة سعيدة . وهكذا تجلس بجواره على المصطبة . الولد الساقى ينقل الجوزة بينكما ، حجر من عندك وحجر من عند الآخر. وفيما يعود حكيم إلى مكمنه خلف نصبة الحجارة الملفقة كيفما اتفق لا يكف عن متابعتكما فلا يهدأ حتى يتأكد من أن الود قد نشأ بينكما كأحسن ما يكون : الآخر يعزم عليك بحجر من عنده لتذوق تعميرته فرأيك فيها مهم بالنسبة

له؛ الواقع أن رأيه أيضاً فى تعميرتك مهم بالنسبة لك؛ كلا كما يجب أن يطمئنه الآخر على أن تاجر المخدرات لم يسرقه . إن هى إلا دقائق معدودة ، طريحة أو طريحتين من الحجارة ، بعدهما يصير لا فرق بين التعميرتين بين الشخصين كلاهما يتسابق على إمضاء الحجارة بتوقيعه كلاهما يتسرع قبل الآخر فى دفع حساب الشخصين لحكيم . علاقة جديدة تفتح رافدا جديدا على الشلة فتقوم لها بهجة تظل طازجة لوقت طويل ، وحكيم لا ينى يحسن صورتك فى نظر الآخر ويحسن صورة الآخر فى نظرك بكل ما أوتى من لباقة وطلاقة لسان وحكمة بالغة يعطى لكل منكما فى نظر الآخر أوصافا تكاد تكون مطابقة تماما لأحسن ما فيك وما فى الآخر تندهش أنت ، بل تذهل من براعته فى فهم جوهرك الأصيل واكتشافه لمزاياك التى ربما لم تكن قد انتبهت إليها فى نفسك من قبل؛ فإذا بك تصدقه فى وصفه للآخر وإذا بك تؤكد فى سلوكك المقبل على هذه المزايا التى نبه إليها فيك . من خلاله تحب الآخر ويحبك الآخر فكأننا جميعاً بالنسبة له – وهو الأصغر من بعضنا سناً – أبناءه وهو يريد بإخلاص ونية صافية أن يربينا على الغالى . كان مثالاً على العبقرية الصعيدية البارعة فى فن تشكيل العزوة والتحضين عليها وتقوية أواصرها . إنه كصعيدى مغترب فى هذه العاصمة الجبارة الكافرة برغم كثرة مآذنها لن يتأتى له الإطمئنان إلى شىء – وقد اختار هذا الطريق الشائك الخطر للحياة – إلا بتحويل زبائنه إلى أصدقائه ، إلى عزوة يستمد منها روحا معنوية وعوناً عند الأزمات.

إن جئت وحدك مرة ، أنبأك حكيم باهتمام شديد أن فلانا كان هنا وسأل عنك، كان نفسه يشوفك بفارغ الصبر . الواقع أنه طوال الجلسة – عبر لحظات مختلسة من فترات صمته الطويل – لاينى ينبئك من حين لآخر بأنباء كثيرة يفترض أنها تهمك مادمت صديقا : فلان الفلانى سيجىء الليلة الساعة كذا؛ فلان يعزمك غداً حفل عيد ميلاده؛ فلان رزق بتعميرة قادمة من بيروت رأسا فى الحقيبة بماسية ويريد أن يذيقها لك قبل نفادها ؛ قلت لفلان إنك كنت بعافية منذ

يومين ؛ فلان جاء من البلد أمس وترك لك هنا فطيرة مشلتتة لكن الصنايعية الطفساء التهموها زاعمين أنك لست محروما من مثل الأكلات الفلاحية؛ فلان واقع في مشكلة وواجب علينا أن نساعده على النجاة منها ؛ فلان كلفني اليوم بأن أبحث له عن نقاش أمين يوضب له شقته التي سيتزوج فيها العقبى لك وقد دورت على ولد أثق فيه فلم أجد وسوف تراني الآن أواصل البحث أمامك لتكون شاهداً على أني بحثت بذمة وإخلاص ؛ فلان - على فكرة - زعلان من فلان ولابد أن تجيء الليلة لتحضر مجلس صلح سنقيمه بينهما غصباً عنهما فعيب علينا شغل العيال؛ فلان جاءت أمه من البلد فحبست حريته؛ فلان مزاجه مش ولابد لأن مدير التشغيل في الشركة دائم الإضطهاد له! بالمناسبة ألا تعرف شخصاً كبيراً في هذه الشركة يضغط على مدير التشغيل كي يلايمها حبتين ؛ فلان .. فلان .. فلان .

أبداً أبداً لانميمة لا اغتياب لا تقطيع فروات؛ كلها أخبار حميمة تجعل للعائلة حضورا قويا على مساحة واسعة . إن رأى منك ميلا - ولو خفيا - للخوض في سيرة شخص لم يعجبك سلوكه لسبب من الأسباب إنبرى هو يشرح لك طبيعة الظروف التي أحاطت بذلك التصرف غير المقصود حتما وكيف أن فلان هذا ولد يعجبك ابن ناس و.. كده (يشهر إبهامه واقفا مفرودا للدلالة على شدة استقامة الشخص وانضباطه) ؛ قلبه - يقول - مثل اللبن الحليب ، والعلم هو يحبك ويسألني عنك باستمرار.

صرنا شلة واحدة متحابة كعائلة واحدة . دخلنا بيوت بعضنا البعض ، زرنا بعضنا في أماكن العمل ؛ تبادلنا الدعوات في المناسبات والأفراح ؛ آزر بعضنا البعض في المشاكل والأزمات ؛ تطارحنا الهدايا الثمينة ، سلفنا واستلفنا ؛ شاعت ملكية التعميرة فيما بيننا فلكل واحد يشتري له وللآخرين قدر الطاقة دون انتظار لمردود حسابي؛ فليتصادف أن الجميع يشتري للجميع في لحظة واحدة فإذا بالكمية المشتراة كبيرة وخطيرة ؛ لابأس فمخزن حكيم السري لا تهتدي إليه

الجن . قد يجيء أحدنا والآخر يتأهب للإنصراف ، فيتراخى لطريحة أو طرحتين من الحجارة لزوم التحية الواجبة . كل واحد منا يعيش في مشكلات الآخر كأنها مشكلاته الخاصة . روح من التآخي والتآزر والتضامن والتعاطف والتعاون جمعت بين أفراد هذه الشلة لتؤكد حقيقة أن الإنسان مجبول على حب الانتماء لجماعة ما . بات من الواضح لنا أن تدخين الحشيش لم يعد هو الهدف الذي اجتمعنا هاهنا من أجله ، بل كان مجرد مبرر جميل يضفي على الصحبة ماء الورد فيرطب عروشها ينعش أوراقها الطروبة لنغم يسكنها يعمرها بالأنس الجميل .

الزعيم

كأننا كنا محتاجين إلى سبب إضافي يجمعنا ليوحد بيننا وبين غرزة حكيم !! كأن جاذبية المكان ومعلمنية حكيم وحصافته وموهبته فى إقامة العزوة حوله ببراعة قاطع طريق صعيدى ملطوشة بلطشة صوفية محتبسة تحت ركام لم يفرغ لفرزه بعد؛ كأن مزاج الحشيش واستئناسا ببعضنا بعزوتنا الخصوصية .. كأن كل ذلك لم يكن كافيا؛ فإذا بالغرزة – فى واحدة من أهم تجلياتها – تهدى إلينا شخصية صالح هيصة ، الذى كان جزءًا لا يتجزأ منها منذ أنشئت؛ بل هو جزء بارز من حى معروف والأنتيكخانه وشامبليون.

له وجوده الحيوى فى الغرزة . إلاّ أنه كان متواريا طوال الفترة التى كنا فيها مجرد أفراد يترددون على هذه الغرزة من حين إلى حين حيث كل منا يجىء فى الوقت المتاح له دون ارتباط بمواعيد حميمة . ولاشك فى أن كل فرد منا قد رآه مرات عديدة يقدم خدمات داخل الغرزة يقوم بأعمال لا تستلفت الإنتباه . المؤكد أنه لفت نظر كل من رآه بشكل أو بآخر . إلا أننا حينما صرنا شلة متحابة تتواعد لتلتقى كل ليلة، تتمازج الأمزجة تتناضح الهوايات والمهن والطباع من الجميع على الجميع ، تتقارب وجهات النظر ، تجيد العيون فهم بعضها البعض بمجرد النظر .. حينما صرنا هكذا بدأ الحضور الحقيقى لصالح هيصة ؛ ليس فحسب لأننا شغلنا به جميعاً وبات سلوتنا وموضوع حديثنا موضع تندرنا مثار حكايانا؛ وإنما لأنه – إلى جانب كونه كفؤاً لذلك – فيه من كل واحد منا شىء بل أشياء ؛ ففى كثير من الأحيان يتصرف كأنه نحن جميعاً ؛ وفى أكثر الأحايين نتصرف نحن كأننا هو. الواقع أنه – لا ندرى بالضبط منذ متى – بات فى حقيقة أمره هو الجاذب الأكبر لكل زبائن هذه الغرزة إذ هو قد أضفى عليها جوا من الرجولية والبهجة ، الأنس والشقاوة والحميمة والجنون المحبب . كل تصرفاته وأقواله

وأفعاله التى نضحك منها ونعتبرها ضربا من الجنــون المطلق سرعان ما نكتشف بعــد برهة أننا ننتشى بها لأنها بعض مانتمنى أن نفعله أو نقوله . أيا ما كان الأمر فقد أصبحنا مولعين بترديد مأثوراته باعتبارها من درر التراث الحى، نستشهد بأقواله فى مناقشاتنا فى كل أمور الحياة بل ونأخذ منها بعض المصكوكات اللهجية لنطبقها على نظريات الفنون والأداب فنجد لها عمق بلاغة وحكمة فطرية حتى ليبدو لنا أحيانا كما لو أن صالح هيصة قد درس الفنــون والآداب بل وأسهم فى حركاتها بجهد فعــال سكت عنه التاريخ ضمن الكثير مما يسكت عنه!!

صالح هيصة ذو قدرة خارقة على أن يسرب إليك هدوء أعصابه مهما كنت متوترا قلقا ؛ لكأنه هو نفسه مخدر قوى كالأقراص الناجعة يظهر أثرها الفورى على متعاطيها. فى مشاعره دفء وذكاء، فى نفسه بداوة وبكارة وبراءة وطزاجة ؛ لكأنه مولود لساعته رغم أنه عملاق فى منتصف الأربعينيات من عمره .

برونزى اللون، من أسوان؛ بذرة سوداء البشرة فى وعاء فخارى اللون أنجبت لونا فريدا لا هو بالأسود الغطيس ولا بالأبيض الفاتح لون أقرب إلى لون التين المهيطل. أما شعر رأسه فأبيض فى لون السماء يقف على فروة رأسه غير متناسق الأطوال فكأن هذا الكائن هابط لتوه من السماء وكانت حزمة من خيوط السحاب مربوطة فى رأسه لتحفظ توازنه ، إذ هو يتدلى إلى الأرض فلما شدته الجاذبية الأرضية بقوة متزايدة بتزايد اقترابه منها تقطعت الخيوط كيفما اتفق وظلت جذورها عالقة برأسه . إنما شعره جميل ، مهيب، متسق من الجبهة إلى الفودين كأنه يحلق عند أعظم الحلاقين المتخصصين فى الحلاقة لكبار النجوم وذوى المراكز الإجتماعية الرفيعة . حليق على الدوام رأساً ولحية إلا فيما ندر من الحالات حيث يبدو كأن شعر رأسه قد ساح على صدغيه مكونا حول الوجه شبكة منسوجة من صوف غنم أبيض غير محلوج جيداً، تلف تحت الذقن المدور فكأن الوجه قد أحيط ببرواز من الإرلواز الخشن.

بشرة وجهه نضرة ملساء لامعة. فى عينيه كياسة وعظمة فطرية راسخة لا

يشوبها أى ظل من الإدعاء. فيهما إلى ذلك حياء شديد يكاد يختصر بصرهما الحديدى حتى لا يرى أبعد من شغله الذى بين يديه . وجهه مستطيل كقنديل ؛ ملامحه مكتنزة فى رصانة القانعين عن شبع أصيل . رقبته طويلة مبرومة فى امتلاء ، تبرز عروقها عند اتصالها بالصدر والكتفين كجذع شجرة باسقة بارزة الجذور . صدره عال ، عريض الكتفين ، مفتول الذراعين ، رشيق ، لو دخل فى مسابقة كمال الأجسام لتوج بطلا من أول حركة .

يرتدى سروالا قصيراً لاشك أنه استعاره من شخص قزم أو اشتراه من بائع الروبابيكيا، وقميصا بياقة تشى بأن عمره لايقل عن عشر سنوات ضاع خلالها لونه وشكله ممزق عند الكتفين لكنه اكتسب من طول عشرته لجسده من العرق والغبار والوسخ صلابة ومتانة، صار جلداً آخر فوق جلد الجسد به صار هو الجلد الأخشن والأقوى على الإحتمال. مع ذلك لاينتابك الإحساس مطلقا بأنه زرى المظهر ؛ بل على العكس تماماً ، ماتكاد عيناك تقع عليه حتى ينتابك شعور جارف بأنك أمام نبيل من نبلاء التاريخ جار عليه الزمن الوغد فلم يستطع النيل من كبريائه وشموخه . بمجرد النظر إليه لن تجد فى نفسك الجرأة على إعطائه بقشيشاً أو حتى تعرض عليه ملابس جديدة ولو على سبيل الهدية من صديق لصديقه !

شغلته فى الغرزة أساسية ، محددة وما عداها فمن ذوقه وحبه للخدمة فى سبيل الله. أما شغلته الأساس فإنها شاقة تحتاج إلى صبر ودأب وطول بال . مهمته هى الحجارة ؛ يتلقاها برميلا كبيراً ملأنا لحافته بما لايقل عن ثلاثة آلاف حجر حرقت على مدى يوم وليلتين تقريباً . عليه أن ينظفها كحتا بالسكين ويسيخها ثم يمسحها بخرقة مبلولة ثم يحشر فى كل حجر حصوة ملائمة لفتحته بالضبط ؛ ثم يبدأ المرحلة الثالثة فيملأ كل حجر بالمعسل فى حنكة إقتصادية ذات ضمير ينتفع بكل شعراية معسل لاصقة فى ورقتها . يرص الحجارة فوق رقاع من الخشب فى كل رقعة - وكلها مستطيل - دقت عشرة مسامير بحيث يلبس كل حجر فى مسمار يضبطه فلا يهتز ولا يقع. ترتص الرقاع الخشبية بجواره فوق

بعضها كناطحة سحاب على طراز رعوى لا يخلو من بدعة وطرافة. صبيان الغرزة لا يقتربون من هذه الرصة حتى يتم الانتهاء من الطريحة السابق رصها منذ يوم وليلتين كما أنه يتسلم الحجارة بالعدد ويسلمها بالعدد ليعرف كل من الطرفين - العامل وصاحب العمل - دخله من خرجه .

قدرته على الصبر والجلد تتيح له أن يرص طريحتين فى يوم بليلة ونصف ضحى: وهذا فى الغالب مايفعله دائماً بنجاح وحينئذ يحق له أن يتقاضى أجره من حكيم ثمانين قرشا بالتمام وهو مبلغ لو تعلمون عظيم . يدسه صالح هيصة فى السروال الداخلى فى دكة الأستك/ ثم يمشى فى تؤدة كعملاق يتبختر فى حفل زفافه حتى ليبدو كأنه يتأبط عروسا وهمية . يندس فى حارة ضيقة تبدو للغريب كأنها فتحة باب بيت . بعد بضع خطوات يصعد فوق تل من الهديم المتصلب المتكلس ، ما تلبث قامته حتى تغوص فى المنحدر لا يبقى منها إلا شعر رأسه الأبيض كما لو كان بجعة تحلق مقتربة من الأرض فتهاوت فى واد سحيق . إن هبطنا خلفه فى المنحدر - وقليلا مانفعل - وجدناه قد انعطفت على بقايا بيت متهدم ، مجرد جدران بلا سقف منزوعة الأبواب والشبابيك لكن أرضه مع ذلك مستوية وبلاطها لايزال ملتصقا بها . يشد من عبه جريدة الجمهورية المطوية أربع طيات ، يعدلها ، يفك أوراقها ، يفرشها على الأرض، يشد قالبين من الطوب كبيرين يضمهما يضع فوقهما ما بقى من ورق الجريدة ، يتمدد على ظهره مسترخياً ، واضعا ذراعه اليمنى فوق عينيه ؛ سرعان ما يستغرق فى نوم عميق يتحول عمقه إلى مهرجان صاخب مجلجل مزلزل حيث يتصاعد من حلقه شخير كالرعد المتلاطم فى ليلة عاصفة بل كدوى القنابل . من يأتى مهرولا مفزوعا على صوت الدوى لن يجد بيتا انهار لتوه ولا جاموسة تذبح ؛ لن يجد إلا صالح راقدا فى غيبوبة تامة يقذف الأصوات من أنفه من حلقه من دبره؛ يصيبهم الذهول من قدرته على النوم بهذا العمق تحت دوى هذه الانفجارات . إنما هى الرقدة لا صحو منها إلا بعد سبع ساعات كاملة . المنبه الكامن فى مخه أكثر انضباطا من ساعات الناس . فى الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة يزيح ذراعه اليمنى فاتحا

عينيه فاذا شيئا خالينان تماما من اى عناصر لكنهما أسيه تبدو من ام الفناجل مفتوحتين في فنجانين مليئين بالتل . يدفع بصدره إلى الأمام يعتدل حاملا بملك زوره بكحة ناشفة يشيع إلى الهوا . يصفه مثل كتكوت ينادى من سطح بعد فطن برهة ثم اصطك بالأرض منسيا .. يمد اصابعه السبيبة بالمسامير الحدادى الى جيب الصدر، يسحب سيجارة هوليود ملتوية منطلة، يعدلها يسويها برسمها بين شفتيه يشعلها بعود الكبريت يشد أنفاسا متلاحقة عميقة يبلعها . بأنها . السيجارة يكون دخانها قد تكفل بغسل عينيه وتنشيفهما على الأمر وضبط نظراتهما ، يطير العفن في الهوا . يلم ورق الجريدة بضمه بطويه كظروف صغير يدسه في صدره. يقف ، يمد ساقه الطويلة عابرا فتحة الشباك المطل على شارع جانبي يوصل إلى عمق شارع معروف بمجرد عبوره فتحة الشباك يحني على الأرض يزيح قطع الحجارة عن خبيئته ' زجاجة بيرة فارغة ملفوفه في كيس من أكياس الفاكهة. يدلف إلى البقال الافرنجي على ناصية الشارع الجانبي يشترى منه نصف لتر من السبرتو الأحمر وزجاجة بيبسي كولا وقطعة جبن أبيض بقرشين ، وبقرشين باذنجان وطرشي ، ورغيفين ثم يعرج على المطعم فيشترى طعمية ساخنة بقرشين ، ويعرج على عربة السمين الواقفة قرب سينما أوديون ، يعطى صاحبها شلنا كاملا ، والرغيفين، يفتح البائع في الرغيفين جيبين يملاهما بالكرشة والفشة والممبار وآم الشلاتيت واللسان والجوهرة والأباوى. يتلقاهما صالح منكسا رأسه في خجل لطيف وبسمة امتنان شديدة التهذيب لايتقنها هكذا إلا واحد من علية القوم المحترمين جداً .

بكل هذه المشتريات يقفل صالح هيصه عائدا إلى غرزة حكيم . ينزوى في ركن قصي، لا شأن لأحد به على الإطلاق لحظتذاك يخلط السبرتو بالبيبسي كولا. يفرد مأكولاته على الأرض، يستعير كوبا من حكيم ' يروح يصب فيه ليدلق في جوفه مع الإستمرار في الأكل . حينئذ يتحفز الجميع لمراقبته من تحت لتحت في حذر وحيطة شديدين ممزوجين بالتوجس والبهجة معا لان صالح هيصه هو الآن .. الآن .. يعمل الهيصة.

الهيصة

تقوم الهيصة بعد إذ يسرى مفعول السبرتو الأحمر المخلوط بالبيسى كولا فى عروق صالح هيصة ويصعد إلى مخه الذى لم يعد يستجيب لنداء الهيصة بسهولة . هى لحظة عابرة ، يصاب فيها صالح هيصة بالدوار المباغت العنيف الذى لا يقوى جسده - رغم عملقته - على مقاومته ؛ فيمدد ساقيه متكئا بكوعه على أى خرق متكومة يغيب فى ملكوت الله الذى يعزله تماماً عما حوله وحينئذ لا يجرؤ أى مخلوق على اقتحامه أو الإحتكاك به لمسا أو كلاما ؛ ذلك أنه يكون فى ذروة المشاعر العدوانية الصرفة ، يكون فى كامل استعداده للإتيان بما لا يخطر على البال من تصرفات؛ ربما يضرب أحدا فى مقتل، بأى شىء تطاله يده، ربما هدم الغرزة على من فيها، أو أشعل فيها النار . مكمن الخطر ليس الفعل الذى قد يفعله على غير توقع فحسب ؛ إنما الخطر الأكبر أن الفعل نفسه إذا حدث يكون بداية كارثة لايمكن إيقافها بأى حال من الأحوال . ذلك أن صالح هيصة نفسه لا يعرف كيف يقفل نفسه متى أفلت منه الزمام واندفع ؛ فإذا بدأ بإشعال النار مثلا - وبداياته دائماً حادة ومفاجئة كأنها ذروة الانفعال سابق غير مرئى - فانه سرعان ما يمسك بأى شىء يصادفه حينذاك ليلقى به فى قلب الأتون ، بشراً كان أو حيوانا أو هدوما . وإذا رفع يده ليضرب فلا مفر من أن يضرب بل إن الضرب يتحقق قبل أن يرفع يده . ضربته غشيمة ، إن لم توصل إلى القبر فعلى الأقل تترك عاهة مستديمة . وإذا انفجر فى الشتائم والسباب فإن صوته الجهورى الرنان يستلقط المارة من الشوارع البعيدة ليضفوا إلى لذة الإستماع متعة مشاهدة هذا الفاصل من الشتائم المبتكرة الطريفة حيث تحتوى على صور سوريالية تفجر فى الصدور ضحكات خالدة . مبدأ طرافتها أنها شتائم تفهم بالويم ، تتضمن ألفاظاً أجنبية من الإنجليزية والطليانية والتركية والنوبية ؛

يقذفها مفخمة . صوته يضفى عليها جلالاً وجدية ومهابة . صوته يحمل بصمة العظمة ، طابعها، فيه نبراتها ، إيقاعات الأسياد بلهجة الأمر الباتر ؛ فيه قدرة السادة على التهكم باللهجة، ونبرات التقريع والتوبيخ والتبكيت ؛ لدرجة أنه ليس محتاجاً لكلام بمضمون إجتماعى يؤدى هذه المعانى ؛ فإيقاعاته الصوتية المرنة الشفافة تكفى للإشعار بها ؛ سيما وأنه صوت عريض جداً، مبطن بطبقات فوق طبقات من النغم السيادى الناعم والخشن على السواء ، ما عليه إلاّ أن يفك حبال هذا الصوت كلها دفعة واحدة فإذا الطبقات النغمية قد ساحت على بعضها حيث يختلط التلطف بالقسوة والأمر بالرجاء والتوبيخ بالاعتذار فيربك سامعيه بين تصديق الأذان وتكذيب العين حيث تؤكد الأذن أنهم يستمعون إلى واحد من علية القوم وتقنعهم العين أنهم لايرون إلا متسولا مصابا بداء العظمة الكحولية «يتصادف فى مثل هذه اللحظة أن ينادى على أحد أحبائه ليطلب طلبا وديا، وهو بالتأكيد يحب أن يضع فى صوته كل مشاعره الطيبة وهو ينادى على حبيبه فلان؛ لكنه حين يصيح : يافلان ، يظن الايقاع بعاطفة عكسية فكأنه صاح : ياحيوان»

تتواتر مثل هذه المفارقات وتترادف . ينفجر الضحك من حواليه ولكن فى صوت مكتوم خشية استثارته . كل هذا ليس يعنى أنه شرير وخطر على الأمن؛ إنما هو – كما لمسنا ذلك وتأكدنا منه على الحقيقة بعد طول عشرة – حين يشرب مايشربه ليعمل الهيصة يكون فى الواقع قد حمل على كتفيه عبئاً ثقيلاً سخيفاً رذلاً ويزداد ثقلاً واسوداداً كلما سرى لهب السبرتو الأحمر فى دمه ، هذا العبء الثقيل هو خوفه المزمن من التهزىء، الخوف أن يتطاول عليه ناس حقراء لم يميزهم الله عنه بشىء سوى أنهم يلبسون فاخر الثياب وينفقون عن سعة ؛ وإذا كان هو قد نجح فى إيقاف كل متطاول عند حده وأجبر الجميع على احترامه فإنه يجب أن يكون حذراً من ناحيتهم وهو سكران ، فكل هذه البدل الفاخرة المحشوة بلحم بشرى تفوح منه العطور وروائح البنكنوت لاتخلو من جبن

حقيقى يدركه صالح جيدا ، وللحقيقة فقد لاحظنا أنه فى مثل هذه الإنفلاتات لا يصطدم إلا بنوعيات معينة من الزبائن كانوا يثيرون فضولنا لهذا السبب - إشمعنى دول يعنى؟ - فنترصد سلوكهم بانتباه فيتضح لنا أنهم بالفعل جبناء بدرجة أو بأخرى لكن جميع درجات الجبن حتى وإن ضؤلت تثير فينا شهية التشفى بدرجة أو بأخرى كذلك . إذن فصالح هيصة يشم رائحة الجبن والخسة فى الناس مهما تخفوا فى ثياب مستوردة ومراكز مرموقة وخزائن بنكنوت خلف ظهورهم:

- «إنما على مين يابك؟ لازم ولاد القحايب يعرفوا إنى صاحى لهم ! أنا ماباسكرش ! وإن سكرت لازم الكل يحترمنى! غصب عنه! تحترمنى قيراط وأنا فايق لكن وأنا سكران تحترمنى أربعة وعشرين قيراط! ناقصين قيراط لأ!! إنما عدم المؤاخذة يعنى تستندل وتقل بأصلك حاشعوطك ! أخليك ماتنفعش فى الحياة بمليم ! وإلا عشان باشرب سبرتو يعنى؟ ماهى العملية كلها سبرتو فى سبرتو حتى الويسكى والشنبانيا! طظ فى الإسم اللى يخلينى أدفع تمن غالى قوى؟ هى صحيح مشاريب نضيفه ماقلناش حاجة لكن تبيع للناس العنطزه الفارغة يدفعوا فيها دم قلبهم!».

أصابعه تسحب السيجارة الثانية ثم تعدل قامتها برعشة خفيفة لتشعلها من عقب السيجارة السابقة . ينبعث الدخان فى استمتاع شديد .

- «شوف يابيه ! الدنيا هيصه! فيها بنى آدم هيصه!» كل واحد فى هيصه! بيعمل الهيصة !! عشان يلحق الهيصه! وياليلحق يميلحقش!.. وكلهم كحيانين! بس كل واحد كحيان بطريقته !.. وأنا .. ملك الكحيانين!..

عشان كحيان بكل الطرق!!».

بهذه الهيصة التى لا تزيد عن ساعتين يتمكن صالح هيصه من تثبيت دعائمه وفرض سطوته واحترامه . ننصرف نحن إلى بعض شأننا على وعد بالتلاقى فى السهرة حيث يكون صالح هيصه قد دخل فى مرحلة الوهج المبهج؛ لا يبقى منه

سوى الضحاك المضحك ، على أعلى درجة من الصفاء والحيوية والألمعية والذكاء .
كل الذين شعر بأنهم تعنطزوا عليه من قبل بشكل أو بآخر، والذين لابعجبه أشكالهم بما فيها من قنزحة أو خلاعة أو طراوة ، والذين آساءوا إليه عن غير قصد ذات لحظة .. كل هؤلاء يجلسون الآن فوق الرابية يحششون وينصتون . تنعكس بهم الآية فيتحولوا إلى جمهور مع أن موقفهم فى العلو المتميز يعطيهم حق المسرحة على الجالسين قدام الغرزة . صالح هيصة هو وحده - بنظره الحديد - يستطيع تمييز أشباحهم فى الظلام الدامس ، يعرفهم بالأسماء وبالصفات وبالأشكال . هو صحيح - كأى سكران - يحلو له أن ينفى السكر عن نفسه حتى وهو فى عز السكر؛ إلا أنه فى هذه اللحظة فحسب يحلو له إظهار السكر ليستفيد من حقيقة أنه لاحرج ولا تثريب على السكران . مايكاد يسمع صوت أحد ممن يضعهم فى دماغه حتى يعاجله بالقفشة الحراقة المناسبة المنطبقة عليه تمام الإنطباق، ويكون هو أول الضاحكين . ضحكة مهرجان كامل من أصوات مرحة مبهجة منطلقة ، حتى ليحار المشاهدون هل يضحكون على القفشة العبقرية أم يضحكون لاستغراقه فى الضحك بهذا العمق بهذا الصخب المريع؟!.

الشلة

بعيدا عن الهيصة فإن صالح هيصة رجل بالغ الكياسة والأدب والخجل . صديقنا قمر المحروقى يصفه بلقب الجنتلمان بكل ما يعنيه اللقب من ظلال وأبعاد. وقمر المحروقى مغرم بانتقاء المفردات وتحديدها وأصبح ولوعا بالبحث فى تواريخ ومعانى المفردات الدارجة منذ أن التحق بالجامعة الامريكية ، مساعدا لأحد الباحثين العاملين فى قاموس : إنجليزى - عامية مصرية ، تعده الجامعة الأمريكية استعدادا لإحكام السيطرة الأمريكية على مقاليد الحياة فى مصر فى الحقب المقبلة على الأبواب .

لحظة أن وصفه قمر المحروقى بالجنتلمان كان بالفعل يستحقها عن جدارة . ذلك أن الذين تعرضوا لسلخه مساء أمس جاءوا إلى الغرزة فى اليوم التالى ، فإذا هو يستقبلهم ببشاشة وأدب جم ، فبطرف قميصه ينفض التراب عن المصطبة قبل جلوسهم ، ثم : أعمل لكم شاى ؟ مفيش حشيش معكم ؟ مش إشكال ! معى تمنايه خذوها من عندى هدية تصطبحون بها إلى أن يصحو بائع الحشيش . يقول هذا وكأنه بالأمس فحسب لم يمسخر هذا البك ويضحك عليه طوب الأرض . نظرات هذا البك تقع فى عينى صالح هيصة فلا تجد ثمة من أثر على الإطلاق لما حدث بالأمس كأن شخصا آخر غيره قد فعل ما فعل أما صالح هذا البالغ الأدب والكمال والدفء فيستحيل أن تخرج منه العيبة .

بهذا الرسوخ فى البراءة ، وبراءة الرسوخ والثقة يصادر صالح هيصة كل أثر لما حدث بالأمس ، فلا يبقى فى نفوس الآخرين إلا الصفاء تجاهه . أما إن حاول أحدهم - على سبيل المداعبة والاستثارة اللطيفة - تذكيره بلفظة نابية جارحة رماه بها أمس ، يمتلئ فى الحال وجه صالح هيصة بالدم الفوار من

فـرط الخـجل والحـرج والاسـتنكار ، بل يهـز رأسـه فـى تأفف السـادة المتحـضرين ويعـلن قـرفه الشـديد من مـجرد ترديد مثل هذه الألفاظ القبيحة الجارحة للسمع . يبدو مقتـعا جدا فى تأله وتقززه وهو ينكس رأسه مرددا بصوت عريض دافئ :

- «تؤتؤ تؤتؤ ! لا لا لأعـيب ! مـفيش داعـى للألفـاظ دى ! حد يقدر يقـول لك كـده يا بيـه ؟ ودينى أقطـع رقـبتـه ! الأدب فـضـلوه على الـعـلم يا بيـه ! والبنى آدم مننا لسـان ! لسـانك حصـانك إن صنته صـانك وإن خنته خـانك ! تشـرب إيـه حـضـرتك عـلى حـسابى ؟ لا والله أنا عـازمك ! مـا تكسـفنيش بـقـى ؟» .

عنـدئذ يتفلسف البعض منا حول الازدواجية وانفصام الشخصية وما إلى ذلك من مصطلحات أصبحت سهلة ودارجة على جميع الألسنة ..

طلعت الإمبابى ، المعيد بكلية الآداب جامعة القاهرة قسم التاريخ ، والمفتون بفرع من روافد علم النفس اسمه علم نفس الشعوب والمجتمعات ، ويقرأ لإريك فروم أكثر مما يقرأ لتوينبى مثلا ؛ يحذرنا دائما من إتهام صالح هيصة بأنه مصاب بازدواج فى الشخصية ، أو البارانويا ، لا ولا تلك الميلانخوليا .. إنما صالح هيصة فى حقيقة أمـره شخصية سوية تماما ، متوافقة مع نفسها تفعل كل شئ سواء فى السكر أو فى الصحو بملء إرادتها ومطلق حريتها إذ إنها تريد أن تفـعل ذلك عن وعى وإدراك ؛ أمـا لماذا هى تريد أن تفـعـل ذلك أصـلا فـإن لديها أسبابها المنطقـية النابعـة من وعيها وإدراكها . ثم يردف طلعت الإمبابى فى تقـرير العليمين ببـواطن الأمور إن شـخصية صالح هيصة سوية أكثر منا جميعا ، بل إنها قد تتميز عنا بخلوها من العقـد النفسـية لأنها تفعل ما تريده بدون تردد ، لقد اختارت لنفسها أن تعيش هكذا بمحض إرادتها ، فصالح ليس مرغما على أى شئ ، ليس مضطرا ، ليس واقعا تحت ظروف قهرية قاسية ، كلا ، إنه يسـتطيع أن يشـتغل أشغالا كثيرة سيما وأنه يجيد أكثر من صنعة تتيح له

أن يأكل الشهـي ويلبس المقصب ويتزوج وينام على فراش وثير في بيت نظيف آمن ، غير أنه - بكل بساطة - لا يريد ، ليس عن عجز طبعا فها أنتم ترونه كالثور ، وليس عن كسل فها أنتم ترونه كالنحلة في غاية النشاط والحيوية والعزم ؛ وليس عن غباء أو غشومية فها أنتم ترونه على درجة كبيرة من الذكاء واللباقة وصفاء الذهن وسرعة البديهة وإجراء عمليات حسابية معقدة بأرقام كبيرة دون أن يستخدم ورقة وقلما أو يعد على أصابعه ؛ المسألة كلها كما ترون أنه اختار هذه الحياة على هذا النحو عن اقتناع تام : أما كيف ولماذا ؟ فهذا ما يجب أن نبحث فيه .

طلعت الإمبابي كلامه مفحم ، رأيه - فيما يبدو لنا - سديد ومدروس . إنه بالفعل قارئ نهم ، لديه مكتبة متخمة مكومة في شقة كبيرة استأجرها حديثا في ذلك الحي المستحدث والمسمى بمدينة المهندسين . متزوج من شابة إيطالية تدعى ماتيلدا ، مبرومة متختخة بيضاء مشربة بحمرة مخففة ، تطفح أنوثة بدائية حوشية تعلن انتماءها الاجتماعي لفصيل من لونها في الريف الإيطالي ؛ إلا أنها جامعية مثقفة ، ماركسية ، تحترف العمل السياسي لصالح الأممية العالمية وفي سبيله النبيل لا تجد أي غضاضة في أن تعيش في أي دولة تروق لها وأن تتزوج من أي رجل تقتنع بأنه يطاول أو يوائم أو يماشي طموحها .

طلعت وإن كان ماركسي الهوى فإنه لم يحترف العمل السياسي بعد وإن كان يأمل فيه بعد أن ينتهي من مشروعه العلمي بالحصول على إجازة الدكتوراه في علم التاريخ المادي للشعوب النامية . لم يسافر إلى إيطاليا ليعود بزوج خوجاية بيضاء كما يفعل مسافرو البعثات العلمية المصرية منذ فجر التاريخ الحديث وإلى الآن ؛ إنما هو ولد ذكي جدا ، لهلوبة في كل شئ حتى في كلامه العجوز السريع الطلقات المجنح دائما نحو جنونيات التغيير والتجديد والحداثة وما بعد الحداثة وجماعات الهيبي والخنافس والغاضبين ، ويقرأ بشغف كبير لفيلسوف

الشباب الطالع علينا من الغرب حديثا ذلك المدعو ماركيوزا صاحب كتاب «الإنسان ذو البعد الواحد» . نخلط في وجدانه الملتهب بأثيرات كثيرة علقت بمخه الذكي النجيب واستوطنت ، من الفلسفة إلى التاريخ إلى علم النفس الى الادب بجميع أشكاله القصصية والروائية والشعرية الى الفنون التشكيلية والسينما والمسرح والموسيقى الكلاسيك ' له في كل هذا آراء عميقة متطرفة ومحاولات إبداعية محبطة . لهذا يتفوق في دراسته ويملأ دماغ اساتذته فيعطونه الثقة والمودة .

لديه قدرة على الكلام بطلاقة وإنسجام في جميع ما يمكن طرحه من موضوعات تستهوينا : من الفرق بين وجودية سارتر وعبثية البير كامي وايمانية جابرييل مارسيل ، الفرق بين بودلير ورامبو ، توينبي وبرتراند راسل ، صوفيا لورين وكلوديا كاردينالي ، كولن ولسون وماركيوزه . لويس عوض ومحمد مندور ، محمد أنيس وعبدالرحمن الرافعي ، يحيى حقي ويوسف إدريس ، عادل كامل ونجيب محفوظ ، محمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين ، مصطفى أمين ومحمد التابعي ، روز اليوسف وفاطمة رشدي ، إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي ، جمال عبدالناصر وتيتو .. إلى الفرق بين ماتش الأهلي مع الترسانة وماتش الزمالك مع الإسماعيلي : وقد تؤوب التجليات المرسلة إلى مناقشة الفروق - الجوهرية هذه المرة - بين غرزة حكيم وغرزة جلال ، تعميرة أم يحيى وتعميرة على منجة .

كيف إذن تزوج طلعت الإمبابي ابن الفلاح نصف الموسر في قرية وراق العرب ، من مثقفة إيطالية تعمل في الحركة اليسارية الدولية وتكسب عيشها بتدريس اللغات وآدابها في المدارس الأجنبية المتوافرة في كل الدول ' فأينما توجهت ستجد مدرسة أو معهدا إيطاليا يطلب أساتذة ..

هكذا يتساءل السذج من أعضاء الشلة وإن كان تساؤلا قلما يخرج عن بحيرات العيون إلا على خجل واستحياء محجم عن الإفصاح : ما الذي يا ترى

جمع الشامى على المغربى ؟! طلعت صحيح لا يعرف حرفا واحدا من اللغة الإيطالية لكنه يجيد التحدث بالانجليزية ويتأهب للدراسة بها عما قريب فى أكسفورد أو أمريكا . وزوجه وإن كانت الإيطالية لغتها الأم فإنها تجيد الانجليزية والفرنسية والروسية قراءة وكتابة ومناظرة ، وكثيرا ما تشغل وقت فراغها – على ضآلته – بالترجمة من إحدى هذه اللغات لتلك أعمالا أدبية أو ملفات صحفية أو بيانات ووثائق لجهات دبلوماسية فى دول كثيرة عاشت فيها . هذا إلى جانب كونها تتحدث بالعربية وعلى وجه التحديد العامية المصرية بلكنة جذابة ذكية ؛ فإن أعجزتها العامية المصرية عن معنى دقيق فإنها تكمل التفاهم بالإنجليزية الشائعة، يعنى ليس ثمة من مشاكل على الإطلاق بين هذين الزوجين المتحابين المتوائمين توائم الفل مع الياسمين .

المقربون من طلعت الإمبابى يسخرون من مثل هذه التساؤلات التى لا محل لها من الإعراب ، سخرية علنية لا بأس من أن يسمعها طلعت نفسه ويضحك منها هو الآخر فى كثير من الزهو وقليل من الحرج . من سخرياتهم أن هذه الزيجة ليست أمرا على الإطلاق بالنسبة لطموحات طلعت الإمبابى . ذلك أن طموحاته ليس يقف فى سبيلها اللهم إلا عقبة مجنونة زنت على خراب عشها . إن طموحه كاسح كالقطار المجرى لا يعترف إلا بمحطات المراكز الكبيرة ؛ وكل ذلك فى الظرف والحلاوة واللطافة والنعومة الخطرة .

عود مصرى صرف ؛ نفس قامات النقوش الفرعونية قامته بين الطول والقصر. نحيف البدن ، صلب العظام ، مدور الوجه كالطبق الذى يوضع فوقه الفنجان ؛ خمرى اللون ؛ قوى العينين لدرجة أنهما أبرز ما فى جسده كله ؛ يذكرك بالشخصيات الأسطورية من قاطعى الطريق ذوى الأبدان النحيلة والإرادة الصلدة، ملامحه حادة التقاطيع وإن وشت بمرونة وطراوة حتى لتخضر بشرته أحيانا كورقة من شجرة الخروع ، تشترك مع فتحة حنكه الحادة فى الإيحاء بأنه ينطوى على عزيمة وقوية وإصرار لا يلين . يمشى بتؤدة وثقة لكنه عند الخروج

من الغرزة مُسبهلا يتأود كمشية ابن البلد المعجبانى أو أحد العياق المشاهير : مرتديا البنطلون الچينز المحزق ، والبوت الكاوتشوك المستورد بنصف رقبة فى قدميه يهدهده على الأرض ، وقميص من لينو الشوربجى الشفاف سمنى اللون مفتوح أزرار الصدر كلها تقريبا ، والبول أوفر الصوف ماركة سان مايكل بلونه الفخارى مطوى على ذراعه تحسبا لاستنذال الجو المتقلب . يتجه نحو سيارته الڤولكس واجن الخنفساء زرقاء اللون مشدودة الحيل رغم قدمها .

هو فى الواقع لم يسع للزواج من ماتيلدا ولا من غيرها بل إن الزواج لم يكن فى خطة حياته مطلقا قبل انتهائه من مشروعه التأسيسى . إنما الفرصة جاءته لحد عنده مقشرة جاهزة لوضع اليد . فماتيلدا كانت متزوجة من الشاب المصرى، عضو شلتنا أحمد عاصم ، ابن عميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة العتيدة وهو رجل فاضل جدا ويحسب ضمن آخر الأفذاذ ممن لم يلههم تخصصهم العلمى الدقيق عن التبحر فى فقه اللغة العربية وآدابها ، لدرجة تمكنه من تحقيق بعض كتب التراث والحصول على شهادات إضافية عليا فى دراسة اللغة العربية . ابنه أحمد مفتون بفن السينما رغم أنه تخرج فى كلية العلوم ، لا بأس فليدرس السينما دراسة علمية . ولكن أحمد الراغب فى السفر والإنطلاق أو ربما الانعتاق بدا له أن معهد السينما المصرى متخلف لن يغذى طموحه بشئ يضيف إليه علما وخبرة حيث لا أجهزة ولا معامل ولا بلاتوهات اللهم إلا بعض أدوات بدائية لا تسمن ولا تغنى من جوع . هكذا شرح الأمر لأبيه المتعبد فى محراب العلم ، فلم يمانع فى سفر ابنه أحمد إلى الخارج بشرط ألا يكلفه ما لا يطيق ، فطمأنه أحمد بأنه سيلتحق بعمل ينفق منه على عيشه وتعليمه . إيطاليا كانت قبلته لأنه فى الأصل مسحور بالسينما الإيطالية .

أحمد ولد متفتح ، مدردح ، متودك ، أدمن انتخابات اتحاد الطلاب فى الجامعة واحترف الفوز كل عام ؛ وله علاقات طيبة ومتينة بالجماعات اليسارية السرية ومنها جماعات ذات اتصالات واسعة النطاق فى جميع أنحاء العالم . ما

اسـتطاع أن يحصل خطاب توصية من رئيسه المحلى الى رفيق مماثل فى دولة أخرى
ليجد أكثر من مساعدة تتيح له العمل والدراسة . التقيت فى طريقه ماتيلدا ، أو
لعلها التقت فى طريقه . تعارفا . تحابا . وجد فيها الخواجاية البيضاء التى تشبع
رغبته حينما يعود متأبطها عروسا إلى القاهرة تغيظ حسين وحسين فوزى ويحيى
حقى وصفوح شناعى وعبدالغنى النط وغيرهم وغيرهم . هى الأخرى وجدت فيه
الشرقى الأسمر المتحمس العفى المتصحح ذا شبابة فطرية مسنودة بأخلاق
إسلامية متينة قد تربى عليها منذ الصغر . عرض عليها الزواج رغم أنها تكبره
فى السن بأربعة أعوام وربما خمسة . وافقت فى الحال ، عرفته على أهلها
المسيحيين . أقنعتهم به . أقام معها فى شقة تملكها فى العاصمة الإيطالية .
سرعان ما حملت منه . جاءت لتضع مولودها فى القاهرة بين أجداده الفراعين
كما أحبت . ما كادت تسترد لياقتها البدنية بعد الولادة حتى دب الخلاف بينهما
فجأة ولأسباب غير مفهومة على الإطلاق حتى بالنسبة لهما لدرجة أن كلاهما عند
محاولات الأصدقاء لإذابة الخلاف لم يستطع تقديم أسباب تبدو حقيقية ومقنعة .
كان فيما يبدو خلافا حادا يقوم على أسباب جوهرية حساسة يصعب الكشف
عنها او صياغتها فى كلمات محدودة . ولهذا كان الانفصال بينهما سريعا وسلسا
فى آن وإلى حد شديد المرونة والأريحية من الطرفين . طلعت الإمبابى صديق
لأحمد عاصم منذ الطفولة جمعت بينهما الحضانات المتميزة والمدارس الإعدادية
والثانوية فالجامعة . كما أن محاسن عاصم - شقيقة أحمد - كانت زميلة لطلعت
فى نفس الكلية فى نفس القسم فى جميع الأعوام وما أطول الليالى التى قضياها
معا فى مذاكرة جادة ومثالية . كان معاصرا لنشوب الخلاف بين أحمد وماتيلدا ؛
وفى الحقيقة لقد بذل جهودا جبارة مضنية حتى لا يقع الطلاق بينهما لأنها فى
نظره مكسب لصديقه على جميع المقاييس والمستويات كما أنه يستخسرها فى أى
شخص اخر قد لا يكون لائقا بها وتقع فى حبائله . ركبه الجنون حينما رأى
الطلاق نافذا ، أصابته رغبة قوية مفاجئة فى الاحتفاظ بها تحت سيطرته لبعض

الوقت لعل أحدهما – هى أو أحمد – يراجع نفسه فتعود المياه إلى مجاريها ، فنقلها إلى شقة فى نفس الحى وخصص لها خادمة تعنى بشئون طفلها أثناء وجودها فى عملها بمعهد دانتى الإيطالى على مرمى حجر من غرزة حكيم . فلما تأكد له بعد شهور طويلة أن كلا الطرفين قد استراح للانفصال ونسى الآخر تماما ، تقدم للزواج من ماتيلدا مبديا كامل استعداده وترحيبه بأن يتبنى هذا الطفل عن طيب خاطر .

قلة قليلة جدا بين أعضاء شلتنا يعرفون بعض التفاصيل لعلنى أحدهم بحكم تقاربى الأشد حميمية من صديقنا قمر المحروقى لما استشعره فيه من ذائقة أدبية أكثر نضجا وعمقا واتساع أفق من ذائقة طلعت الإمبابى ذات الطابع التاريخى المغمض العينين عن الجوهر الإنسانى والفنى للعمل . كان حريا بأن يصبح أحد كبار أدباء القصة والرواية لولا انشغاله الدائم وتوزع اهتماماته بين اتجاهات كثيرة متعارضة متضاربة .

قمر المحروقى متزوج من محاسن عاصم . لديه منها طفلة جميلة اسمها نهلة ، قال مفسرا علاقة صهره بطليقته الإيطالية إن الأوساط اليسارية العالمية ذات النزعة الأممية تذيب الفوارق بين الناس بجميع أنواعها الطبقية والعرقية والعلمية إلا فيما يتصل بالسلوك الشخصى ، الذى قد يبدو لنا أنهم يتساهلون فيه باعتبارهم شيوعيين أميل إلى الانحلال والإلحاد لكثرة المنتمين إلى الأحزاب الشيوعية من عناصر فوضوية متحللة من جميع القيود الأخلاقية والدينية . ولربما كانوا بالفعل هكذا فى بعض علاقاتهم ؛ لكنهم لا يتساهلون مطلقا فى أمور الكذب والغش والخداع وما إلى ذلك من سلوكيات دونية ممقوتة . تبعا لذلك فإن قمر المحروقى لا يستبعد أن يكون صهره أحمد قد بالغ فى تقديم نفسه لطليقته الإيطالية ، لابد أنه أوهمها أنه مثلها من أسرة غنية مرموقة وأنه يملك ويملك ويملك أى أنه لا يقل عنها يسرا – وماتيلدا – فى رأى قمر المحروقى – لم يكن لديها أى مانع على الإطلاق من السماح لزوجها الذى أحبته وأنجبت منه ولدا بأن يتمتع

بأملاكها كيفما شاء ودون تحفظ ؛ ولكن بشرط أن يكون هذا بمحض مزاجها على أرض من الصراحة والمكاشفة المبدئية من قبل الارتباط الرسمي ؛ يعني أنه لو صارحها منذ البداية بحقيقة وضعه الطبقي لما كان هناك أي مشكلة سيما وأنها ليست من أنصار الملكيات الشخصية . أما أن تجئ معه من إيطاليا لتتعرف على أهله وترى بيت الزوجية المعد لها مستقبلا وترى المزارع والضياع الخاصة بأهله مثلما أرته هي أملاك أهلها ومزارع أبيها المهندس الزراعي الكبير .. ثم تفاجأ بشقة أبيه المتواضعة التي لا يملك سواها من حطام الدنيا ، وحالة أهله الشديدة التواضع لدرجة أنهم جميعا لا ينفقون في الشهر ما تنفقه هي في يوم ، ثم تفاجأ بأنه عاجز عن العودة إلى الدراسة عجزا ماديا ، وأنه يبحث لها ولنفسه عن عمل في القاهرة ، فإن هذا ما لا يمكن أن تغفره ماتيلدا مطلقا كما أنها إضافة إلى ذلك ليست محتاجة إليه بأي قدر بل إنها تنفق عليه في بيت أهله وبمقدورها تدبير عمل محترم لنفسها خلال ساعات قليلة . إنها - يقول قمر المحروقي - من ثقافة أخرى لا تطغى فيها العاطفة على العقل مثلنا ، ولا تترك حمولها على جناب الله وتجلس مستريحة تندب الحظ على التعاسة أو تشكر الله على البلهنية ، لا يا حبيبي ، باي باي ما أعطلكش . هي لن تغلب ، فها هو ذا عريس آخر في انتظارها مستعد للخضوع لكامل شروطها تاركا العصمة في يدها . طلعت - يقول قمر - أرجل من أحمد بغير شك ، كما أنه أنشط وأذكى ، أنشف ، أغنى ، على الأقل يملك أهله أطيانا بالفعل ويستطيعون مده بمئات الجنيهات تلو المئات بلا تذمر ، يخلق لنفسه أشغالا نظيفة في المحيط اليساري وفي سفارات الدول الشيوعية كلها ، يترجم لدار الشرق الروسية مقالات تنشرها مجلة الشرق التي يرأس تحريرها الدكتور محمد مندور في طبعتها العربية ؛ يكتب الدراسات التاريخية لبعض الدوريات والمجلات المصرية ، والمتابعات وعروض الكتب للصحف العربية ؛ يسافر في إعارات خاطفة لبعض جامعات ليبيا والكويت والجزائر لإلقاء المحاضرات والتدريس والمساهمة بأبحاث في

مؤتمرات . من هنا فالأموال سائلة في يديه باستمرار ، وقد اكتسب مظهرا وسمعة يؤهلانه للإقتراض من الموسرين دونما حرج ، وأن يشترى سيارة بالتقسيط من إحدى الصالات ، ويدبر خلو رجل لشقة واسعة فى عمارة محترمة في حي محترم . إنه أكثر دردحة وتودكا منا جميعا ويجيد صرف النقود فيصنع بالقليل منها شيئا كبيرا ، كأن يقوم بجولة مع ماتيلدا فى شارع هدى شعراوى مرورا على المحلات المتخصصة فى المزادات ، استلقط مجموعة من قطع الأثاث الثمينة الأصيلة جعلت شقته مثل شقق الوزراء والكبراء . لقد بات من الواضح أن ماتيلدا تعشق طلعت وتنطق اسمه برقة خفيفة الظل مموسقة : يا تلعت ، فنصاب نحن بنشوة مجانية .

إلا أن صديقنا الثالث – ضمن البؤرة الضيقة للشلة – مصطفى لمعى ، الفنان التشكيلى المتخرج حديثا فى كلية الفنون الجميلة قسم تصوير ، والمتزوج هو الآخر من امرأة تشيكية لا ندرى كيف ولا أين ولا متى التقاها والتقته ، له رأى آخر فى مسألة طلعت الإمبابى وأحمد عاصم والمثقفة الإيطالية اليسارية . نحن فى الواقع نحب أن نستمع إلى رأيه . إنه أحد أقطاب الجناح الثقافى الأدبى الفنى فى شلتنا الكبيرة المتنوعة الأشخاص والأهداف والمهن والمستويات .

مصطفى لمعى يميل إلى العزلة بشكل يقترب من أن يكون مرضا فى بعض الأحيان ، العزلة حتى عن الخمسة ستة ممن يكتبون ويقرأون ويرسمون وينشرون ؛ ليس بمعنى أن يجلس بمفرده بعيدا عنا ؛ بل بمعنى أن يكون متوحدا مع نفسه حتى وهو جالس بيننا نتبادل بوصة لجوزة واحدة من تعميرة واحدة . نادرا ما يشترك معنا فى المناقشات أو يدلي برأى فى أية قضية من قضايا الرأى العام ؛ ربما بفعل الخوف الذى انزرع فى قلوب الكثيرين من شباب المثقفين – خاصة أبناء الفقراء الذين أتموا دراساتهم بشق النفس – بسبب شيوع آفة التقارير وانتشار المخبرين إلى حد الاندساس بين الأب وابنه والزوج وزوجه بل

وبين الفرد ونفسه مما يترتب عليه القبض على ناس أبرياء والزج بهم فى معتقلات مجهولة الموقع .

على أن مصطفى لمعى كثيرا ما يرفع رأسه على غير انتظار وهو يزيح بيده سحب الدخان المتدفق من منخريه وحنكه فى لذة ونشوة ؛ ثم يتحفنا بتعليق عابر على ما نتحدث فيه فإذا هو قد جمع فأوفى وأوجز فأبلغ ؛ ولربما يقلب تعليقه مجرى الحديث رأسا على عقب أو يحوله إلى اتجاه آخر أكثر صوابا وفاعلية وربما خبثا ، أو يحبط الحديث كله فينهيه تماما . قال مصطفى لمعى بطريقته التى تضن دائما باستكمال الكلمات والعبارات والمعانى ؛ دائما أبدا يكتفى بالإشارة والتلميح تاركا لذكائك مهمة التكميل أو الصياغة المناسبة لتكون على مسئوليتك أنت فى صورتها الكاملة :

– «بماذا تشغلون أنفسكم ؟ ضاعت أمخاخكم ؟!»

– «بمعنى ؟!»

– «زواج .. حب .. كذب .. خيانة .. طفل .. كل هذا كلام .. يعنى .....»

– «ماذا تقصد يعنى ؟!»

– «يا غبى أنت وهو .. الشيوعية الدولية .. يعنى .. هذه التنظيمات التى .. صاحبت هذا المعتقد المسمى بالأممية .. تعيش مثلكم بالضبط .. يعنى فى أوهام .. هل تعتقدون أن العمال إذا تسلموا قيادة العالم هل يعنى .. كل هذا مضيعة للوقت وخرفشة مخ ..»

– «ما دخل هذا فيما كنا نتكلم فيه ؟!»

– «تريدون رأيى بصراحة ؟»

– «من فضلك وإحسانك !»

– «بالمفتشر ! .. المسألة باختصار .. كوادر الأحزاب والتنظيمات السرية .. تكلف بالقيام بأدوار فى بلادنا .. خصوصا إذا كان الكادر إمرأة .. الزواج هذا مجرد سبب .. ذريعة .. مبرر للإقامة فى البلد !»

يتصادف فى مثل هذه اللحظة أن يطب علينا طلعت ممسكا . بمجلد ضخم مكتوب باللغة الإنجليزية هو على الأرجح مسرحيات شيكسبير ، والأكثر رجحانا أنه من مقتنيات زوجه ، تتدلى فى يده الأخرى ميدالية المفاتيح الفضية الحافلة بحزمة من مفاتيح غريبة مختلفة الأشكال والأحجام ؛ يشبك حلقتها فى خنصره ليمرر أصابعه فوق شاربه التخين المتربع على حنكه فيجعل ذقنه صغيرا حادا كبروة الصابون المعطر مما يوحى بقوة العزم والحزم والإرادة . تكون المفاجأة مذهلة حين نلمح من خلفه أحمد عاصم صديقه الأول والزوج السابق لزوجه . يجلسان فى قلبنا أو فوقنا لا بأس ولا ضير حتى تتسع المساحة بانصراف بعض الزبائن . يظهر فى عين طلعت وفى قسمات وجهه الطحين المسفرت أنه قد عرف فيم كنا نتحدث لتونا ؛ فهو من الذكاء بحيث يستطيع معرفة رأيك الحقيقى فيه حتى وإن أبديت نقيضه ، كذلك هو غير معنى على الإطلاق بتصحيح أى رأى فيه حتى وإن كان رأيا جائرا ؛ فكل الناس فى نظره أحرار فى آرائهم كما أن كل الناس فى المقابل أحرار فى تصرفاتهم . وباعتباره منتميا إلى الحركة الشبابية الرافضة البازغة فى العالم تعبر عن رفضها لكل مالا تقتنع به أو بفاعليته حتى وإن كان مقدسا ، لتعيش حياتها كما يروق لها فى المكان الذى يلائمها بعيدا عن القوانين العتيقة والتقاليد البالية والأخلاقيات الجافة والأعراف السقيمة التى شكلت سجنا تاريخيا يخنق انطلاقة الإنسان ويصادر حرية المبدعين .. باعتباره ينتمى لهذه الحركة ويتعاطف مع جماعاتها المختلفة فإنه ليس فحسب يدعو إلى ما يدعوا إليه بل ويطبق على نفسه فلسفاتهم الجديدة التى يرى فيها محاولة مهمة لإنقاذ البشرية من الجمود والاضمحلال . إذن فليقل كل واحد رأيه كيفما شاء وفيمن يشاء بل على العكس فإن من لم يفعل ذلك بكل وضوح وبتحديد قاطع يكون خائنا لنفسه وللبشرية بشرط وحيد هو أن يقال الرأى فى المواجهة بشجاعة وموضوعية ، أما أن يقال من الوراء فإن ذلك لا يعتبر رأيا بل نميمة لا تستحق الرد عليها وإن وجب احتقارها والاشمئزاز منها .

جلس أحمد عاصم بجواره كالولد الفافى ، كصبى تعلق بأخيه الكبير ليمرنه على القعدات مع الرجال . ها هو ذا يضع يديه على ركبتيه رافعا رأسه المحندق الجميل بتسريحة شعره المنضبطة الفودين ضبطة حلاق أريب ، وأنفه الطويل المدبب ووجهه الأبيض المحمر المتناسق السمات مسمسم القسمات ولكن فى رجولية واضحة ؛ سريع الابتسام سريع التكشير كأنه بهاتين السمتين وحدهما يشارك فى أى حوار دائر حوله ؛ أما الكلمات فلا يستخدمها إلا للتوضيح إذا ما التبست فى العيون إحدى هاتين : البسمة أو التكشيرة . ها هو ذا يمسك بوصة الجوزة بأطراف أصابعه مسكة تنفى عنه شبهة الولد الفافى ؛ يشد الأنفاس العميقة شدا يضعه بين عتاة الحشاشين الأصلاء ، فيبدو بين سحب الدخان الكثيف كأحد أشقياء مدينة نابولى أو بمبوطية الموانئ البعيدة عن العمران .

علق مصطفى لمعى وهو يرمقه بنظرة مغتبطة :

– «الطلاينة حشاشين برضه يا جدع !»

علق حكيم من ركنه البعيد الصامت وهو منهمك فى علاج بعض البرطمانات ليجعلها جوزات للشرب السريع :

«إزاى يا بيه ؟ دا سعادة البيه حشاش كبير قوى ! أنا أعرفه من سنين طويلة كان بيجينى دايما ! وبالأمارة كان دايما يجيب معاه خواجات ! مش البيه برضه مرشد سياحى ؟ ولا .. نظرتى مش فى محلها ؟»

أكمل هذه العبارة وهو يلوى رقبته القصيرة فى اتجاهنا منتظرا الجواب بشغف . فأطلق قمر المحروقى ضحكته التى كانت محتبسة فى قاع حلقه . وضحك طلعت الإمبابى نفس الضحكة بنفس الإيقاع لأن بينه وبين قمر وجوه شبه كثيرة جدا لدرجة أن الأمر يلتبس علينا فى كثير من الأحيان حول : أيهما مؤثر فى الآخر ؟ إلا أن التشابه يتطابق حتى فى الجسد النحيل السنار وإن كان قمر أكثر نحولا وأطول قامة بعض الشئ . كذلك ضحك مصطفى ضحكته المعهودة

حيث يعض على نواجــذه فاشخا حنكه عن أسنان كبيرة مقوسة ، فإذا كانت الضحكة قــوية منفعلة هز رأسـه بإيقاع المندمج فى قهقهة عالية مع أنها بغير صوت .

قال طلعت الإمبابى مصححا لحكيم ؟

- «لا يا حكيم وأنت الصادق ! .. دا .. مرشد سينمائى !»

وكان صالح هيصة منغمسا تماما فى حجارته بانهماك إلى حد الإنهاك ؛ فما أن سمع هذه العبارة الأخيرة حتى رفع رأسه عن كومة الحجارة وتطلع فى وجه أحمد عاصم بنظرات منسربة من تحت جبهته المفلطحة المدورة معا . ثم قال بصوته التخين الناعم :

- «متهيألى شفت البيه وهو بيقعَّد الناس فى السيما ! بالأمارة حضرتك مرشد فى سيما روفولى اللى هنا قدام دار القضاء العالى ! آهو الواد اللى ماسك البوفيه بتاع السيما دى صاحبى أنا اللى مربيه يعنى !»

تدفقت الضحكات تكسرت تهشمت تصاعد غبارها سحبا تخترق سحب الدخان الأزرق تبدده تحت ثقلها . مال طلعت الإمبابى على رأس أحمد عاصم قائلا وهو يمسد شاربه بأطراف أصابعه المشبوكة فى بنصرها ميدالية المفاتيح :

- «هو ده صالح هيصة مانتاش تايه عنه !»

هز أحمد عاصم رأسه وقد أحمر وجهه واتسعت ابتسامته فيما يقول بنبرة رقيقة كلها ترحيب وأريحية :

- «عارف عم صالح طبعا ! عارفه من زمان قوى !»

بضحكة مهذبة قال صالح هيصة :

- «والنبى يا بيه أما يكون عندكم فيلم فيه شوية ضرب حلوين كده إبقى اعزمنى عليه !»

فى شخطة ودودة ؛ إذ هو الوحيد الذى بينه وبين صالح هيصة لمسة ود خاص تسمح له بأن يكلمه كيفما شاء ؛ قال قمر المحروقى :

- «يا بنى آدم أنت أفهم ! الاستاذ أحمد عاصم مخرج سينمائى يعنى هو اللى بيعمل الفيلم من أساسه مش بيقعد الناس فى السينما !»

بك الدم من وجه صالح هيصة من فرط الشعور بالحرج . تحول وجهه البرونزى اللون إلى وجه طفل أخطأ خطأ فادحا ؛ تلعثم مشيرا إلى طلعت الإمبابى :

- «عدم المؤاخذة يا بيه أصل الأستاذ بيقول مرشد سلمائى !»

- «مرشد بالفكر يعنى ! بالفن ! فهمت والا مافهمتش ؟»

هز صالح هيصة رأسه وقد أضاء وجهه بكثير من الإعتذار مما يعنى أنه قد فهم بالفعل . وقال مصطفى لمعى بصوت خافت :

- «ما هى بينى وبينك ما تفرقش كتير ! اللى بيعمل الفيلم هو اللى بيقعد الناس فى السينما مش حد تانى !»

هتف أحمد عاصم :

- «مظبوط يا درش !»

صفق طلعت الإمبابى بيديه فى مرح يمزج بين الرصانة والصبيانية المستساغة:

- «صلوحة ! نهارنا فل إن شاء الله ! إنت وراك إيه النهاردة ؟»

رمقه حكيم فى شئ من التوجس ، وشيع إليه صالح هيصة نظرة تقطر بلاغة وسحر بيان ، تكاد تسخر من غباء السؤال وغفلة صاحبه ، تكاد تقول بصريح العبارة : «ما أنت شايف اللى ورايا أهه» . يبدو أن طلعت استوعب مضمون النظرة فأوجعته قرصتها المؤلمة ، فإذا هو يستدرك مصححا عبارته :

- «قصدى .. بعدما تخلص شغلك يعنى ؟»

تمددت الإبتسامة الميتة على شفتى حكيم المزمومتين ، قال كمن يقرر بديهة لا تحتاج لسؤال :

– «حيعمل هيصه طبعا !»

– «الليلة ؟»

– «هو حيخلص الليلة ؟!»

– «أمال حيخلص إمتى ؟»

– «ليه طيب ؟! عاوزه فى حاجة يعنى ؟»

– «الحقيقة آه !»

– «عندك شغل فى البيت مثلا ؟ مشوار ؟»

– «لا ده ولا ده ! .. أنا عاوزه ضيف !»

– «ضيف ؟! .. عندك فى البيت ؟!»

– «غريبة يا حكيم ؟!»

– «ما غريب إلا الشيطان !»

هكذا عقب قمر المحروقى فى لهجة مفعمة بالغمز الساخر الخفى . فالتفت إليه طلعت محاولا استقطابه لمساعدته فيما يهدف إليه :

– «على فكرة يا قمر ! إنت اللى ممكن تقنعه وتقنع حكيم !»

– «بإيه يا ترى ؟!»

ووضع ساقا على ساق متراجعا بظهره إلى الحائط فاستطال جسده بشكل لافت للنظر ؛ انحسرت ثنية البنطلون الأسود عن جورب أبيض من الصوف الناعم يمتد برقبة طويلة من داخل الحذاء الأسود المتين العريض البوز على القالب الإنجليزى ؛ انزاحت ياقة الجاكيت الكاروهات ذى اللون البنى المحروق وفى كوعيه رقعتان جلديتان ؛ فبانت عظام صدره تحت الفانلة الصوف البيج أم رقبة ، كشرائح كنزة من خشب الأبلكاش . مد أصابعه الطويلة السرحة إلى جيب الجاكت الداخلى فسحب علبة سجائر معدنية تبدو كأنها من الذهب ولا غرابة أن

تكـون كـذلك بالنســبة لقمر ، ملحـق بها قداحة داخليـة سحـرية غيـر مرئية . إلتقط سيجارة بحركة رشـيقة خـاطـفة ثم رشقـها بين شفتيـه ، ولمس طرف العـلبة فارتفع غطاء كعقـلة الأصبع متراجعا أمام عامود من اللهب . كل ذلك فى انتظـار أن ينتـهـى طـلعت من توليــع الحجر لكى يرد على تساؤله . شد من السيجارة نفسـا عميقا ؛ فى حين دخـل عليــه الولـد صابر ببـوصـة الجوزة فالتقـطها قمـر بين السبابة والوسطى حيث توجد السيجارة . راح يســحب الأنفـاس لاويـا وجـهـه فى اتجاه طلعت باهتمام ينم عن شغف كبيـر لمعـرفة الوسـاطة التى يريد طلعت أن يكلفــه بها . لكن طلعت قال له :

– «سكت يعنى ما قلتليش آه أو لأ !!»

نحى قمر البوصة جانبا وأبقاها بين أصبعيه هاتفا :

– «أنا لسة عرفت إيه اللى أنت عايزه يا بنى آدم انت ؟!»

قال طلعت وهو يمسد شاربه بحنو شديد :

– «أنا لى مـزاج أعـزم صـالح هيصـة عندى فى البـيت يومين تلاتة أسـبـوع أسبوعين زى ما يحب !»

– «إيه المناسبة ؟!»

خـرجت هذه العبارة من حلقــه بصـعوبة لأنه نطــقها فيـما يكتم دخـان النفـس فى أنفه فيصدر أزيزا حادا كزيق باب ريفى معصلج . قال طلعت بلهجة كأنها شخرة استنكار :

– « .... من غير مناسبة !»

إحمر وجه قمر المحروقى وبدت رأسه أشبه برأس الجزرة ؛ ابتسم ، فتراجع صدغاه المصفوطان الغائران فاختفيا تماما فى تجاعيد طولية تقطعها الابتسامة بالعرض ؛ فظهر من اتسا ع حنكه وبروز أسنانه البيضاء المتسقة الجميلة أن فمه أبرز معلم فى وجهه ؛ ولشدة اتساعه تضيق عيناه ، ويزداد ضيقهما عندما يتكلم ، وتختفيان تماما إذا ابتسم فلا يبقى منهما أثر على المحجرين إلا رموش تبربش

مرسلة رخات من البرق الحاد . هكذا اتجه بهما مائلا بجذعه كله نحو صالح هيصة مركزا فيه نظراته :

- «تروح يا صالح ؟»

قالها بحيادية شديدة . في خجل أشد ابتسم صالح دون أن يرفع عينيه عن تنظيف الحجارة ، قال :

- «يا أستاذ قمر أنا يزيدنى شرف بس ...»

وأكمل العبارة بنظرة نحو حكيم . صار حكيم ينظر إليه من تحت لتحت فى تركيز وترقب وتوجس ، ثم نظر نحو قمر :

- «طب وأكل عيشه ده ؟!»

هتف طلعت الإمبابى :

- «عادى ! حاديله يوميته كإنه بيشتغل !»

قال حكيم فى حيرة :

- «كإنه مش حيشتغل ؟ والا حيشتغل ؟»

- «لا شغل إيه ؟! ده حيقعد زى الباشا ! ياكل معانا ويشرب معانا وينام على فرش نضيف وياخد مصروف كمان ! وحشيشه وسجايره وقزايزه كله علينا !»

- «بس ؟!»

- «لا أزيد ولا أقل !»

- «ما هو صالح ده أمه داعيه له ! هنياله !»

- «قُر عليه بقى !»

هكذا قال مصطفى لمعى غامزا بعينه فى اتجاه صالح كأنه بهذه الغمزة يبرم عقدا مع المشاهدين على أنه يقصد مشاكسة صالح واستثارته ضد حكيم . بالفعل رفع صالح رأسه قائلا فى جدية :

- «على إيه يقر ؟! ده البيه حيشغلنى لحد ما أطفح الكوتة !»

بجدية مماثلة رد عليه طلعت موضحا ما عساه يكون قد وقع فيه من لبس :

– «إطلاقا يا عم صالح ! باقول لك حتبقى ضيفى ! أشغلك إزاى وأنت ضيف؟! ده أنت حتقعد فى البيت معزز مكرم وحتلاقى اللى يخدمك كمان !»

– «يعنى حتشغلنى إهه ! اللى حضرتك قلته ده يبقى شغل بالنسبة لى ! وشغل فاعل كمان !!»

– «حد جاب سيرة الشغل عندى ؟!»

– «يا بيه خلى بال حضرتك معاية ! أنا دلوقت صالح هيصة الغرزجى مش كده ؟»

– «وحتفضل زى ما أنت !»

– «ما أنا حابقى ضيف ! كل شغلتى إنى آكل وأشرب وأحشش واسكر وأنام وأقوم آكل وأشرب وأحشش وأعمل الهيصة بتاعتى وأنام !! فيه أشغال شاقة أكتر من كده بزمتك ؟! ده أنا يمكن ما أفلحش فيها يوم كامل !»

بحر من الضحك تلاطمت أمواجه بقوة . حكيم يحملق فى وجه صالح متمتما :

– «صنف مفترى ! حتى الراحة بتسميها شغل ؟!»

أحمد عاصم هز رأسه مقررا :

– «أنا فاهم قصد عم صالح ! عاوز يقول يعنى إنه راجل واخد على الشغل والشقا ! وبالتالى جسمه ما بيجيش على الراحة ! فيه ناس كتير كده !»

هتف صالح هيصة ملوحا بذراعه المبروم الصدئ :

– «يا بيه مش واخد بال حضرتك ! مش حضرتك مخرج سلمائى ؟ يبقى لازم تفهمنى ! وعلى كل حال أقولها لك بالبلدى ! معنى الكلام إنى حاروح عند البيه

فى بيته أمثل شخصية الضيف المعزز المكرم اللى مالوش أى شغله غير الأكل والشرب والتحشيش والهيصة والنوم فى الفرشة النضيفة ! حلو الكلام ؟»

– «حلو !»

– «أنا بقى عشان أمثل الدور ده كويس حاتعب قوى ! نمرة واحد عشان أنا ما باعرفش أمثل ! نمرة اتنين عشان الدور نفسه عاوز تمرين والتمرين ده كان لازم يبدأ من تلاتين أربعين سنة فاتوا !! عشان أما اتحط ف مزنق زى ده يبان على أن أنا صحيح ضيف محترم يستحق العزومة !!»

– «يا ابن الكا .. ا .. ا .. لب ! ده أنت حدوته !»

همس بها طلعت الإمبابى فلم يسمعها سوانا . ثم استطرد بصوت عال :

– «ومين قال انك تمثل ؟ بالعكس إحنا عاوزينك على طبيعتك دى زى ما أنت كده ! البيت بيتك واحنا اخواتك الصغيرين ! يعنى على راحتك خالص من غير أى تكليف !»

– «يعنى أفضل صالح هيصة زى ما أنا ؟!»

– «لا تزيد ولا تنقص !»

– «يبقى إن شاء الله لا حاكون محترم ولا معزز ولا مكرم !»

– «منين جالك ؟!»

– «من عقلى ! عشان انتوا عدم المؤاخذة لابد حتعاملونى فى بيتكم على إنى صالح هيصة مش حد تانى ! صالح هيصة الغرزجى اللى عمره ما كان محترم .. فى نظر الناس اللى زى حالاتكم يعنى ! .. أقصد الناس المحترمين !»

– «بس أنت ف نظرنا محترم ! والدليل على كده إننا بنعزمك عشان تيجى تعيش معانا كام يوم كام شهر زى ما أنت عاوز !»

– «كلام حلو بس الـ ......»

يقاطعه قمر المحروقى لينهى هذا الصداع :

- «تاهت ولقيناها يا صالح .. ما تيجى نجرب ؟ إنت يعنى حتخسر حاجة ؟»

- «هئ هئ ! طبعا حاخسر !»

هكذا قال صالح وهو يدارى بسمة حرج على وجهه الشفاف ثم اُستدرك ضاحكا خلال تقطيع الكلام :

- «من - جهة .. حاخسر حاخسر .. طبعا .. أمال !»

إعتدل قمر المحروقى محملقا فيه وهو على ثقة من أن وراء هذه الكلمات التى قالها صالح هيصة معنى جديراً بأن يكون عميقا ومن المهم أن نعرفه . ذلك أن قمر المحروقى يقول لنا دائما إنه يأخذ من صالح هيصة موقف التلميذ المبتدئ فى الحياة من أستاذ صاحب تجربة محشوة بالخبرات والمعانى والحكم . قال ليستفزه :

- «حتخسر إيه يا روح ماما ؟ تقدر تفهمنا ؟!»

رفع صالح ذراعه بحركة استسلام :

- «صراحة ما أقدرش يا أستاذ قمر ! إنت كلك مفهومية بس العيب فىّ أنا !! اللى عاوز أقوله مانش عارف أقوله مع إنه باين قدامى خالص !! حيعوز له هيصه ! وأنا دلوقت متباع لحكيم ! يعنى مش ملك نفسى عشان أقوم أعمل هيصة ! خصوصا كمان أن احنا دلوقت عاملين أحسنها هيصة ! فخلينا فى الهيصة بتاعتنا أحسن لنا كلنا من الهيصة بتاعتى !»

- «عداك العيب يابو الصلح !»

قالها مصطفى لعى ونفث الدخان فى أثرها . ران على القعدة صمت عميق لبرهة وجيزة ، قطعها صالح هيصة ناظرا لطلعت الإمبابى نظرة امتنان عميق جدا ، مدعومة بابتسامة دمثة . قال بصوته الدافئ :

– «علـــى كل حـال يا طلعت بيه أنا من إيدك دى لإيدك دى ! بعـدما أخلص الطريحــة اللى ف إيدى أروح مــعـاك مطـــرح مـا أنت عـاوز ونجـرب على رأى الأسـتاذ قـمـر ! وحكيـــم أهو عـرف من دلوقـتـــى عشـان يتـصرف بدالى يوم ولا يومين !»

ظهـر الجـذل والاغـتبـاط عـلى وجـهى طلـعت وأحـــمد فـتبادلا النظرات المرحة مع الباقــين فـــى زهو وشقاوة مبـهجة لكنها غير مفهومة الأسباب على الإطلاق .

القتاريني

إبراهيم القماح عضو بارز في شلتنا الموقرة، تراه جالسا بيننا فلا تستطيع تمييزنا عنه بأى حال من الأحوال رغم أنه ليس من المثقفين بل ولا يعرف القراءة أو الكتابة من الأساس، إن كان على المظهر فهو في كثير من الأحيان أكثرنا أناقة، ذوقا وثمانة ملبس، أفخم ما تعرضه فاترينات وسط المدينة من قمصان وبنطلونات وسويترات وشروز وأحذية وجوارب وصنادل وشباشب، يدخن السجائر الأجنبية ماركة روثمان الثقيلة الحامية اللاذعة، وإن كان على لهجة الكلام فإنه أكثر لباقة من كثيرين مشهود لهم بالذكاء ووفرة الإطلاع بل والعمل السياسى الجماهيرى، يتكلم بنفس مفرداتنا الميالة للفصحى المخففة، تشيع في كلامه نفس المصطلحات التى نستخدمها ونفس العبارات المسكوكة البليغة سواء كانت تراثية أو عصرية. يستمع جيدا إلى الشعر فيفهمه يتذوق صوره ومعانيه كأى واحد متذوق للشعر، إدمانه للسينما العالمية يؤهله لأن ينصحك بمشاهدة جديد مهم سيخرفش مخك خرفشة لذيذة اسمه (الزيارة) وبطله أنطونى كوين وانجريد برجمان ، أو فيلم اسمه (بيكت) أو فيلم (جاتسبى العظيم) أو فيلم (رجل وإمرأة)، وإن أنت سألته عن فيلم جديد معروض في إحدى سينمات وسط المدينة وجاويك بمط شفتيه اشمئزازاً وقرفا، أو شوح بذراعه في استهانة، فإن هذا يكون سببا كافيا لاقناعك بعدم ضرورة مشاهدة هذا الفيلم، هو إلى ذلك ذواقة للجمال النسائي بشكل يعكس ذوقا نيراً.. لا تستلفت نظره أية إمرأة مهما كانت زاعقة الشكل جسداً وزينة، في حين قد يتسمر في وقفته مذهولاً مرددا لنفسه بصوت خافت : اللهم صلى على النبى، فإذا هى امرأة أو فتاة عادية مرت من أمامك دون أن تخطف بصرك لكنها بمقاييسه جميلة الجميلات، فإن أعدت النظر في طيفها

المتباعد اكتشفت أن هذا الولد يتمتع فعلاً بذوق رهيف ينم عن نفس مضيئة صافية تخلو تماما من العكار.

قبل انضمامه للشلة كان يلفت أنظارنا، ليس بنظافة مظهره، وأناقة ملبسه فحسب، إنما إلى ذلك لاناقة ألفاظه المختارة بعناية فطرية، وحسن أدبه، واقتصاده الشديد فى الكلام إلا للضرورة فإن تكلم فلا ثرثرة ولا التواء ولا ادعاء ولا مبالغة فى أى شىء، حتى أيقنا أنه ابن ناس من علية القوم أكمل دراسته العليا فى لندن أو باريس، سيما وأن وجهه يقول ذلك، وجه كالفطيرة الموردة من فرط اللهب، مدور الخدين فى امتلاء ، صدغاه مقوسان تتدفق فيهما صفائح الدم الرائق، يلتقيان عند ذقن لطيفة يتوسطها طابع الحسن على هيئة غمازة كسرة الطفل الوليد، تخين الرقبة ممتلىء الصدر والكتفين، جبهته عريضة على هيئة حزمة من الأهلة تتقابل وتتجاور تحت طبقة كثيفة من الشعر الغزير الأشقر القصير تفلقه التسريحة عند تخوم الأذن اليسرى، ويبدو الشعر مع الجبهة كأنهما قبعة تظلل عينين فاتنتين واسعتين كعيون جنيات الأساطير برموش طويلة مشرعة قامته قصيرة، مبرومة، رفيعة الخصر فى نعومة وصلابة، تأخذ فى الامتلاء والإتساع كلما صعدت إلى الصدر والكتفين، حيث تظهر غابة من الشعر المتكور فى حلقات تنفذ من عراوى القميص؛ وغابة مماثلة على الرسغين والساعدين فى يده اليسرى طوق من الفضة منقوش بالحفر كالإسورة يسمى بالإنسيال؛ أما الساعة ذات الجلدة السوداء فعلى خلاف الناس يلبسها فى يده اليمنى.

منضبط فى سلوكه فى إنفاقه فى شربه، عشر حجارة مكثفة ثم ينصرف ليعود بعد بضع ساعات فيخطف عشرا، وفى مدخل الأصيل عشرا؛ حتى إذا اقترب الليل من منتصفه جاء يصحبه واحد أو اثنين من معارفه ليشربوا عشرات لا حصر لها.

عبثا حاولنا التكهن بنوع شغلته صنعته وظيفته مهنته قال قمر المحروقى إن شكله يصلح أن يكون مهندسا معماريا مثلا فأومأ مصطفى لمعى برأسه تأييداً

لهذه النظرة، وأضاف أنه يتوقع أن يكون مهندسا للديكور على وجه التحديد يعنى من المحتمل أن يكون من بين زملاء قمر المحروقي متخرجا في كلية الفنون التطبيقية ، أما طلعت الإمبابى فمسد شاربه بأنامله محملقا فى الولد بتركيز لبق، ثم أعلن أنه يقطع ذراعه إن ما كان هذا الولد مصوراتيا صاحب استديو فى إحدى الحارات، الدليل على ذلك أنه يزر على إحدى عينيه إذا دقق النظر وهذه العادة من مخلفات التعامل مع آلة التصوير لوقت طويل . وقال زكي حامد، الممثل الطالع المجتهد: إن هذا الولد - ريحوا نفسكم - من طائفة الكومبارس الحالمين بمخرج يكتشفهم، ولهذا يهتم بمظهره هكذا، وقال العقله رسام الكاريكاتير الذى بدأ ينشر رسومه فى بعض الصحف إنه متأكد أن هذا الولد ابن لواحد من طبقة النصف في المائة الشهيرة طبقة العاطلين بالوراثة يعنى لديهم مال يكفيهم إلى ما لانهاية ويجنبهم مشقة العمل وإلا فانظروا إلى جودة التعميرة التى يشربها وكثرة شربه وفخامة لبسه ورقة كلامه واحترامه لنفسه ، لكن شاعر العامية فاروق الجمل ضحك بمرح اسكندرانى وعينين تلمع فيهما زرقة البحر برغم اسمرار بشرته، وقال: أياً ما كان الأمر فى حقيقة وظيفته فإنه ولد لطيف مؤدب جذاب.

ولما كانت عادة التفرس فى زبائن الغرزة ومحاولة استكناه حقائقهم ومعرفة أصولهم إحدى هواياتنا التى تفوقت على هواية النميمة عند غيرنا فقد اضطررنا لسؤال حكيم عن حقيقة أمر هذا الشاب النظيف، غرضنا كله التيقن من صدق فراسة كل منا وقدرته على فض مغاليق الناس من على البعد.. تردد حكيم قليلا، وبدا انه ـ لأول مرة ـ يعانى من عجز فى المعلومات، لكنه قال:

ـ «الكدب خيبة! إنما أنا اعرف من صحابه إنه بيشتغل فى التجارة حالته ميسورة يعنى! بس أهم من ده وده انه ولد زيجوريا ! بيدفع الحق وفوقه بوسه ميحبش كتر الكلام ! وجدع قوىْ زى ما انتوا عارفين وشايفين جدعنته مع المعفن!».

وأشار بذقنه فى حركة مورية نحو وجيه فرحان، ذلك الذى انزوى فى ركن

بعيد فى أخر الحجرة الثانية مقعيا يسند على ركبتيه كراسة ويندمج فى شرود ليكتب من حين لآخر كلمة، إنه يكتب شعرا بالعامية المصرية، وجهه مكشوف جدا، لا يشعر بالتورط ولا ينكسف من أى موقف، كثير السلف، كثير التردد على جميع الأمكنة بحثا عن أى فرصة للتكسب بشعره، بكتابة اغنية، بعض طرائف لبرنامج اذاعى، شعارات للدعايات الانتخابية ، هو مع ذلك وبكل أسف ـ على شيء من الموهبة لكن نفسيته غير مريحة على الاطلاق، سرعان ما يصيبك بالجزع. شيء ما فى شخصيته يمنعك من ان تكون صديقه، صحيح انه قد أشيع عنه اتصاله بالمخابرات والمباحث والاجهزة الرقابية، إلا ان هذه التهمة قد طالت الكثيرين بلا استثناء حتى لم نعد نصدقها إلا بدليل مادى قوى، لم يكن هذا إذن هو السبب الذى حال دون اندماج وجيه فرحان فى شلتنا رغم انه يكتب شعرا عاميا جيدا وفيه نفس ثورى غاضب ناقم ساخط، لقد حاول ان يجاملنا بقدر ما يستطيع فإذا بنا نرد له مجاملته ـ فى الحال ـ الصاع صاعين ولكننا ابدا لا ندعوه للجلوس معنا فان جاء من تلقاء نفسه ـ وكثيرا ما يفعل ـ أو دخل علينا ونحن جلوس فحازانا، فإننا نهمله تماما لا ننبه على صابر بان يدخل عليه بالبوصة عملاً بالدورة فإن فعل صابر لوحده سكتنا إلى حين، فإن كان طلعت الإمبابى موجودا فى القعدة فإنه سيمسك بوصة الجوزة بيده ويسلمها لمن عليه الدور منا متخطيا وجيه عن عمد وبغلظة، ومع ذلك يصر على ان ينبهه الى ما فعل ولكن بصيغة اعتذار مسموم، لمؤاخذه يا وجيه !. فكأنه يقول له: قوم اقعد بعيد».

وجيه ليس ينزعج حتى إذا قيلت له هذه العبارة صراحة، بل سيفشخ حنكه عن اسنانه البارزة بابتسامة محايدة قائلا:

ـ «وما له ! هات لى حجارة لوحدى يا صابر!».

وقد يرغب فى الكيد لنا فيبقى ملاصقا لنا بحجارته، وقد يرغب فى التعبير عن رفضه المقابل لنا فينسحب إلى مكان بعيد.

كثيرا ما كنت اشفق عليه من جراء هذه المعاملة القاسية التى حرت أنا نفسى فى تفسير أسبابها، أحاول علاج الاثار المترتبة على مثل هذه المواقف المؤلمة، بأن أتلطف فى محادثته، أحييه أو أرد تحيته باحترام وترحيب وحماسة، أعزمه على شاى على حجر دخان على سيجارة ، فلا ألبث حتى ادفع الثمن باهظا، أفاجأ ذات ليلة فى الثانية صباحا بعد منتصف الليل بصخب مدو فى البوابة العمومية للبنسيون المسمى بفندق أميريال فى شارع رمسيس حيث أسكن فى غرفة فى أحد أجنحته بالطابق الثانى.. يأتينى الصخب قادما من المنور المحاذى لسلم الخدم المجاور لشباك غرفتى، أسمع اسمى يتردد فى الصخب، أتوجس خشية ان يكون وفد من بلدتى قد أتى بليل يطلبنى لفجيعة، ثم تحدث قلقلة بوقع خطوات كثيرة تصعد السلم العمومى مصحوبة بأصوات برطمة وصيحات احتجاج وتهديد، ثم ينفتح باب الجناح الذى تقع غرفتى فى منتصفه مطلة على ممر ضيق، ثم يطرق باب غرفتى، فأنزع جسدى عن السرير وافتح الباب، لأرى الممر الضيق ملآنا بالبشر، اميز فيهم فراش الجناح، والخفير الحارس، وموظف الاستعلامات ووجيه فرحان، وفتاة سنكوحة شكلها مدموغ بالتسكع والبؤس الشديدين.

ـ «فيه إيه يا جماعة ؟ إيه يا وجيه؟!».

يتقدم موظف الاستعلامات ملوحا بغيظ:

ـ «الأخ ده عامل لنا دوشه من الصبح ! عاوز يطلع لك بالبنت دى على الأوضه ! واللى طالع عليه طب قولوله بلغوه!».

يصيح فيه وجيه فرحان بانفعال يوشك على الشروع فى الضرب:

ـ «احترم نفسك! قلت لك البنت دى تبقى مراتى! إنت مابتفهمش؟! أدى قسيمة الزواج اهه يا بنى آدم عشان تصدق!».

وقلب فى ملف يتأبطه ليل نهار، حتى انتزع منه وثيقة زواج رسمية، صار يلوح بها فى وجوهنا:

ـ « أهه ! أهه أحطها في عين التخين! ما بتصدقوناش ليه؟! والا يعنى عشان مظهرنا متواضع؟! ده مش ذنبنا يا استاذ! ده ذنب اللى ما يتسموش وانت عارفهم كويس! معدناش لاقيين الا.. ما تخليناش نفسر أكتر من كده!».

شوح موظف الاستعلامات فى حركة يائسة تعنى انه قد رمى الليلة بمخلول معتوه لن تفوت ليلته على خير، وعاد فنظر لى فى ضراعة، فنظرت بدورى الى وجيه فرحان وشرر الغضب يتطاير من عينى:

ـ «يا بنى آدم انت مالنا احنا ومال كل اللى قلته ده ؟!

ثم انت جاى لى فى الوقت ده ليه؟! أنا مالى ومالك أصلاً؟! إيه قلة الذوق دى؟!».

ـ «يا سيدى الفاضل حلمك شويه انا الليلة عقبال عندكم جميعا عريس لسه كاتب كتابى وجاى! مالقيتش حد يحتفل معايه بالفرح! ولقيتنى فايت من هنا! تذكرت إنى لىّ فى هذا البنسيون اخ عزيز وزميل فى شرف الكلمة!

قلت فرصة أبلغك الخبر تفرح معايه! وبالمرة نقعد معاك لحد الصبح ! ولو عاوز تنام يا سيدى نام وسبنا قاعدين مش مشكلة ! وإلا يبقى على الدنيا السلام!».

ضاق صدرى وصبرى انسحبت قائلا:

ـ «اعتبر ان على الدنيا السلام خد الست بتاعتك واتكل على الله! وثانى مرة لازم تعرف ان ده ممنوع هنا!».

وأغلقت الباب وعدت إلى السرير، صرت أتلذذ بصوت الخفير وهو يجعر فيه بلهجة صعيدية: ما تعفركش معاى؟

وانسحبت الخطوات الثقيلة حتى غابت. العجيب اننى فى اليوم التالى مباشرة التقيته في الغرزة.. فرد على تحيتى بابتسامة كأن شيئا لم يكن، يومها نبهنى حكيم إلى ان بنتا سنكوحة تنتظر «صاحبك» على كرسى فى الحارة. ثم تطور الأمر بعد ذلك الى جلوسها معه داخل الغرزة، إلى ان شعر حكيم ذات يوم

بالحرج من منظرها فدعاها للدخول الى القاعة الجوانية تجلس مع عياله ، فإذا بهذه الدعوة تغازل ذكاء ابراهيم القماح وروحه الساخرة المرحة، فإذا هو يعلق على هذه الدعوة قائلا بغمزة من عينه الجميلة:

ـ «كده تبقى ضمنت حقك!».

فنضحك ضحكة صاعقة، لاننا نعرف الطقس اليومى المعهود فبعد دقائق معدودة سيشتعل العراك بين حكيم ووجيه فرحان بسبب الحساب كل منهما يتهم الآخر بأنه يغالطه، وفى النهاية وبعد المناهدة ووجع القلب يتضح ان ما تبقى مع وجيه من حطام الدنيا لا يفى بكامل الحساب.

وفى النهاية ودائما ابدا يضع ابراهيم القماح كفه العريضة على صدره البارز العريضة فى اريحية وهو يومىء برأسه لحكيم بما يعنى أن حساب الشاعر عنده.

كان ابراهيم القماح هو الوحيد فى شلتنا الذى لم يكن حكيم واسطة التعارف بيننا وبينه. إنما التعرف جاء تلقائيا فذات عصرية خريفية رقيقة النسمات جاء فوجدنا مرتصين فى الحارة تحت شباك الغرزة، ولصقنا كرسى شاغر.

نظر داخل الغرزة فوجدها مزدحمة بكثير من الواغش، فألقى علينا التحية بابتسامة دمثة خجولة مشيرا بعينه إلى الكرسى الشاغر فى صيغة استفهام عن وضعه . فأومأنا له هاتفين فى نفس واحد: تفضل.. جلس لا يفصلنا عنه سوى سنتيمترات قليلة ، كنا قد شربنا كفايتنا وتلكأنا فى الانصراف أملا فى مجىء الولد توحه بتعميرة جديدة قيل إن اسمها البودرة الزرقا، وماركتها: هلت ليالى القمر، جاءت الحجارة لابراهيم فانبرى فى التقطيع ، بأظافره لا بأسنانه، من كلكيعة كالليمونة فى كفه واضحة المرونة تكاد ترى شعيرات قلبها الاخضر تعميرات سخية مبططة تغطى الحجر كله . جاء صابر بالجوزة ومصفاة النار، وحين مد الوصة لابراهيم مد هو ذراعه فأزاح البوصة نحونا فيما يرمق صابر بنظرة تأنيب كأنه يقرعه بقوله:

مش عيب؟ فأزاح صابر الصفيحة التى يقعد فوق قعرها حتى توسطنا قائلا: إبراهيم بيه بيمسى.. شكرا يا بو خليل ألف شكر ، وشربنا بلا تردد فلما جاء دوره ليشرب زحزح الكرسى قليلا فصار جالسا معنا، ومنذ تلك اللحظة وهو عضو بارز فى الشلة، ولولا أن العين لاتعلو على الحاجب لكان هو عميد الشلة بغير منافس.

إلا أننا بعد ذلك اللقاء بيومين، وفيما نحن جلوس فى نفس المكان فى الحارة تحت الشباكين نتفرج باهتمام مفعم بالغبطة على قصيدة لفاروق الجمل منشورة فى مجلة صباح الخير على صفحتين كاملتين مع لوحة بديعة لأحد رساميها الكبار وأوشكت بجمالها أن تصرفنا عن قراءة القصيدة، إذ طب علينا إبراهيم القماح كاعتياد تلقائى هم بدخول الغرزة لكنه غير وجهته فى الحال واقترب منا. سلام عليكم، أهلا يا إبراهيم صافحنا باليد واحدا واحدا ولابد أنه استشعر حرارتنا فى الترحيب به فسحب كرسيا وجلس معنا لاحظنا أنه أخلد للصمت وبدا كأنه لايريد التطفل علينا أن يقتحم اهتمامنا بما نتفرج عليه فى اهتمام ، فما كان من قمر المحروقى إلا أن قرب المجلة مفرودة من إبراهيم مشيرا بذراعه نحو فاروق الجمل قائلاً:

– «صديقنا فاروق الجمل! ودى قصيده من تأليفه!» توهج الدم فى خدى إبراهيم وصدغيه؛ تألق الضوء فى عينيه بنظرة تقدير واغتباط أبرقها إلى وجه فاروق ثم هز رأسه بابتسامة فرحة:

– «أهلا يابيه! إحنا زادنا شرف! طول عمرى باحب الشعر والشعرا مع إن حالتهم دايما تصعب علىّ ! كان نفسى ومنى عينى أطلع شاعر زى أحمد رامى اللى بيألف أغانى أم كلثوم ! قلبى مليان كلام بس المشكلة إنى ماعرفش أوزنه!».

تبادلنا نظرة ذات معنى؛ ترجمها طلعت الإمبابى فى تعليق بصوت محايد:

– «كسبنا صلاة النبى!».

ثم تراقصت همزات الشياطين على صفحة وجهه كإعلانات النيون تضئ وتنطفئ متقلبة بين الأخضر والأحمر والأصفر والأبيض كل ذلك في جزء من الثانية، ثم إنه سحب المجلة من يد قمر المحروقي وقدمها لإبراهيم في احترام شديد الشيطنة؛ قائلا كأنه يخاطب أستاذه المشرف على رسالته للماجستير:

- «إتفضل حضرتك اقراها عشان تقول لنا رأيك! لأن رأيك في الحقيقة يهمنا جداً!».

إزدادت قتامة الدم في وجه إبراهيم كأنه بسبيله إلى الإحتراق التام، تلبسه صمت طفولي غاية في البراءة والحزن الصادق مع نفسه قال في حسرة تمزق الأكباد:

- «ياريت يابيه! أنا مع الأسف الشديد مباعرفش أقرا ولا اكتب! بامضي اسمي بالعافية! واعرف اكتب الأرقام بس! وممكن اجمع واطرح واضرب لكن في النهاية دماغي هو رسمالي!!».

صرنا كعرائس الماريونيت إنفكت خيوطها الخفية فانبطت متربعة في أماكنها مخلفة صدى مكتوما. لاندري كم من الوقت مضى علينا ونحن هكذا؛ إنما أفقنا على مصطفى لمعي - الذي كان ملاصقا له في القعدة - يتلقى منه بوصة الجوزة ويسأله بصوت دافئ:

- «إنما أنت بتشتغل إيه يا ابراهيم؟».

فانتبهنا جميعا ناظرين إليه في رجاء وشغف فإذا هو يبتسم قائلا في بساطة من يعتز جداً بمهنته:

- «منظم قتارين!»

- «منظم إيه؟!».

هكذا تساءل فاروق الجمل، فتكفلنا جميعا بالرد عليه في تأكيد وتفخيم:

- «قتارين!»

- «يعني إيه؟!»

ومط طلعت الإمبابى بوزه وهز كتفيه كأنه يعترف بغبائه فضحك إبراهيم القماح ضحكة مهذبة قصيرة وقال كأنه يعتذر:

- «هى على كل حال شغلة مش معروفه لكنها موجودة من قديم الأزل! وياما فيه مهن كتيره فى الحياه محدش يسمع عنها مع إن اصحابها واخدين فيها الدكتوراه!».

شوح قمر المحروقى بذراعه الطويلة صائحا بلهجة فيها الكثير من التقريع:

- «مستغربين على إيه؟ المهنة واضحه من اسمها!».

فالتفت إليه ابراهيم القماح:

- «بس مش واضحه قوى!»

- «طب ما تتفضل توضحها لنا!»

نظر إبراهيم إلى فاروق الجمل شاكرا دعوته، ثم وجه نظراته إلينا:

- «على فكرة! تنظيم الڤتارين ده فن وهندسة مش فتاكة! مش أى واحد يقدر ينظم ڤاترينه حتى لو كان مهندس ديكور!»

قال الممثل زكى حامد بلهجة تضمر الاستخفاف:

- «أى ڤتارين تقصد؟!».

قال إبراهيم:

- «عموم الڤتارين! ڤتارين المحلات! أقمشة! أحذية! خردوات! ملابس جاهزة! أدوات كتابية أدوات صحية أى شئ يتعرض للبيع! الڤاترينة هى واجهة المحل! عنوانه يعنى لازم تكون مترتبة بطريقة علمية فنية مدروسه! لازم اللى فايت على الڤترينه يقف غصب عنه ويتفرج! دى أول حاجة تهمنى قبل ما تهم صاحب المحل! وقف الزبون خلاص؟ حيتفرج على إيه بقى؟ الأصناف اللى بيبعها المحل! الموديلات الجديدة مثلا إزاى نعرضها بشكل يغرى الزبون ويشجعه يدخل يشتريها؟! إزاى نخلى الموديل يلبس القميص ولا البلوڤر ولا الفستان ولا البدلة وازاى نوقفه بزاوية معينة تبين شياكة البدلة؟! إزاى تخلى جوز الجزمه زى العروسه فى

القترينه؟! لابد من حاجتين فى منتهى الأهمية: الجمال فى شكل العرض عشان يجذب ويريح العين! الحاجة الثانية إن القترينة تتسع لأصناف كثيرة! وللعلم بقى! أحيانا كتير تكون البضاعة فالصو لكن الشياكة فى عرضها تخليها تبان على أعلى مستوى!».

وضح الاقتناع على وجوه طلعت وقمر ومصطفى وزكى وفاروق، وكان اقتناعا مصحوبا بكثير من الإعجاب والتقدير قال قمر وقد أسقط عينيه فى محجريهما:

– «مش ممكن!! الدنيا فيها حاجات كتيره لسه مانعرفهاش مع إنها قدام عنينا!»

وقال مصطفى لمعى:

– «دى على فكرة علم بيدرسوه فى أوروبا فن العرض!».

وقال طلعت الإمبابى:

– «لكن تفتكر إن دى شغله مربحه يا أخ ابراهيم؟»

لوح إبراهيم برأسه وبيده بما يعنى أنها تدر خيرات كثيرة، ثم أضاف:

– «كل قتارين وسط البلد أنا اللى بانظمها وبانسقها! ومتنساش أن احنا قليلين يعنى ما نزيدش عن خمسة ستة فى كل مدينة! وكمان مش أى صاحب محل يعرف يوضب قترينته!».

سأل زكى حامد:

– «والقترينه تتوضب فى قد إيه وقت؟»

– «ممكن يوم! أحيانا يومين إذا كنا فى وسط السيزون وعايزين ننشط موديلات جنب موديلات! أما تأسيس القترينة نفسه! يعنى الافتتاح لأول مرة أو لبداية سيزون جديد فده ممكن يا خدله عشرة اتناشر يوم!» .

صار مصطفى لمعى يرمق زكى حامد بنظرة يطل منها رمق من الخبث الطيب ناغب، أوضحه بسؤال وجهه إلى إبراهيم القماح:

– «لكن قول لى يا أخ إبراهيم! مالكش أى علاقة بمكاتب الكومبارس؟!»

فكأنه اتهم زكى حامد بالغباء وضيق الأفق لأنه سبق أن أكد بثقة أن إبراهيم هذا ليس إلا كومبارسا. ضحكنا بالعض على النواجذ فحسب ، وقال ابراهيم:

– «أنا جربت كل حاجة! واتمنيت أكون حاجات كتير جدا إلا شغلة السيما دى عمرى مافكرت فيها أبدا ولاخطرت على بالى! رحم الله شخصا عرف قدر نفسه! الرياضة مثلا حققت فيها بطولات على مستوى الأندية!».

– «بطولات فى إيه مثلا؟!»

سأله طلعت باهتمام فقال:

– «الملاكمة! لعبت فى النادى الأهلى!»

– «وبطلت ليه طيب؟ مادمت حققت بطولات؟!»

أشار إبراهيم إلى أنفه ضاحكا:

– «مناخيرى اتكسرت تلات مرات! والفك اتعوج مرة وكانت مصيبة! وخدت لى خبطتين فى عينى كانوا حيعجزوها! اللى بيلاعبنى دايما كان بيحب يضربنى ضرب غيظ عشوائى بقصد أنه يضرنى وبس! لأنى كنت متمكن من الضرب الفنى المكار ولازم أفوز بالقاضية حتى ومناخيرى مكسورة!! وفجأة لقيتنى اتمليت بالحقد من كتر الإصابات! وكل مباراة أروح لها كأنى رايح اتخانق ياقاتل يا مقتول! شئ إلهى قال لى ماتسيبك يا أبوخليل من اللعبة العنيفة البايخة دى؟ واتأكد لى إنها ضد طبيعتى! مش ماشيه معايه! ولاجل النصيب خدت لى ضربه فى معدتى نيمتنى شهرين فى الفرشة وكانت دى آخر مباراة لعبتها فى حياتى من تلات أربع سنين!!».

مازحه قمر المحروقى، المحب دائما لأن يكون البساط أحمديا.. إلى أقصى حدود رفع الكلفة:

– «بس أنت باين عليك عجوز قوى يا إبراهيم مع إن شكلك عيالى قوى!!».

ضحك ابراهيم بأريحيه:

– «أكبر واحد فيكم ما يزيدش عن تمانيه وعشرين سنه مش كده؟ أنا بقى النهارده أبقى أكلت تلات تشهر كاملين من التلاتة وتلاتين!».

داعبه مصطفى لمعى برقة ووداعة:

– «بس باين عليك حشاش قرارى!»

– «تعرف أنا بآجي الغرزة دى من إمتي؟ من عشرين سنه فاتوا!! كان سنى اتناشر سنة لما بدأت أحشش فى غرز! وأول غرزة دخلتها فى حياتى كانت غرزة حكيم أيام ما كانت وراء الغرزة دى قرب شارع معروف! لفيت على قد ما لفيت ورجعت لها تانى».

علق طلعت ساخرا:

– «من فات قديمه تاه!»

إعتدل قمر المحروقى يبربش باحثا عن عينيه خلف جفونه المكرمشة:

– «سنك اتنشار سنه وعرفت تيجى الغرزه دى لوحدك؟ اللى ما بيجيهاش غير العتاولة؟! ده أنت على كده واعر من يومك!».

– «بالعكس! تعرف مين اللى جابنى هنا؟ صالح هيصه! أيو الله! قابلته فى الشارع صدفه! قال لى رايح فين يا ابرهيم؟ قلت له صراحه يا عم صالح نفسى اشرب حجرين حشيش راح جايبنى على هنا ! وراح اشترى لى الحشيش بنفسه! ومن يومها أدمنت غرزة حكيم كرامة لصالح هيصه!».

– «يعنى أنت كنت بتعرف صالح هيصه من الأول؟!»

هكذا سأله طلعت؛ فشوح إبراهيم بذراعه إلى الوراء:

– «أعرفه من وأنا سنى خمس سنين!»

– «منين بقى؟!»

سألناه فى نفس واحد، فقال ببساطة:

– «ماهو عم صالح هيصه ده هو اللى كان بيدربنى على الملاكمة من أول الطريق!! هو اللى علمهالى أصلاً!! حببنى فيها! ودربنى على أعلى مستوى!!»

– «صالح هيصه بتاعنا ده؟!»

– «أيوه صالح هيصه ده! إيه الغرابه فى كده؟!».

تجمدنا لبرهة وجيزة سرعان ما انفجرنا بعدها فى ضحك هستيرى عميق مسح طلعت الإمبابى دموعه بمنديل حريرى يحشره فى الجيب الخلفى لبنطلونه الچينز:

- «وإيه علاقة صالح هيصه بالملاكمة ياجدعان ؟!». فى اندهاش عظيم صاح ابراهيم القماح:

- «إيه علاقته ازاى؟! دى كانت شغلته الرسمية ف يوم من الأيام: مدرب ملاكمة!».

- «مش ممكن! جنون! جنون! جنووون!».

هكذا ردد قمر المحروقى بعد أن خبط جبهته بكفه خبطة صكت آذاننا واستدرك إبراهيم القماح:

- «الظاهر إنكم ماتعرفوش عم صالح كويس! طبعا لأنكم عرفتوه من هنا بس!».

- «طب كلمنا عنه شويه وحياة والدك!»

ترجاه طلعت الإمبابى فبلهجة تقريرية تخلو من أى محاولة للإثارة قال إبراهيم:

- «عم صالح هيصه فى الأصل بطل ملاكمة ! واخد بطولة مصر سنة سبعه وأربعين! وثمانية وأربعين كان مجند وخلص التجنيد واتعين عسكرى شرطة! وكان نادى الشرطة واقف له على رجليه عشان يواصل التمرين كل يوم!! أصل ده حدوته طويلة وأنا مش فاضى دلوقتى! يووووه!!».

وقف قمر المحروقى نصف وقفة هاتفا بإبراهيم القماح أن يحدثنا عن صالح هيصه، أن يقول لنا كل كبيرة وصغيرة يعرفها عنه. إعتذر إبراهيم بأن الحكاية أطول من قصة أبى زيد الهلالى سلامة وربما أهم؛ يلزمها وقت ورواقة، ليس لكثرة أحداثها فحسب وإنما لأن من يحكيها لابد أن يجد متعة ولذة فى حكيها بحيث يستمع إليها وهو يحكيها ليتعلم منها ما فاته أن يتعلمه من صالح هيصه.

حلفه طلعت بتربة أبيه ، ووقع قمر فى عرضه كاد يقبل يديه؛ ونصحه مصطفى لمعى بألا يستندل معنا فى هذا الموضوع بالذات، ولوح له فاروق الجمل بأنه يتوقع قصيدة ملحمية عن صالح هيصة، واكتفى الممثل زكى حامد بإبتسامة ملق - ربما لأول مرة فى حياته - ونظرة تودد ركزها فى عينيه. إلا أن ابراهيم القماح طمأن خواطرنا بأنه شخصيا يجد لذة كبرى فى مسك سيرة صالح هيصه؛ وأنه أكثرنا اشتياقاً لها سيما وأنها هى التى ربطته بهذا المكان، كل ما فى الأمر أنه الآن مربوط بمواعيد شغل لايجرؤ على فرقعتها، أما إن تواجدنا فى السهرة هاهنا فسنشاهد فيلم صالح هيصه دون رقيب سمج يقص منظرا واحداً من شريطه .

ابن ليلة القدر

أنشط صبيان غرزة حكيم هو الولد صابر العسال؛ ينطبق عليه وصف الشطر الشعرى الشهير: لولا مخاطبتى إياك لم ترن ، ولكن لأن صابر العسال قليل المخاطبة، يعرف حدوده كصبى غرزة ويلتزمها بكل صرامة فلا يتدخل فيما لا يعنيه ولا حتى فيما يعنيه إذا كان المتكلمون هم سادته المكلف هو بسقيهم. سادته هؤلاء ربما كانوا جرابيع مثله لا أصل لهم ولا فصل بل ربما كانوا من أولاد الحتة الصيا ع؛ إلا أنهم بمجرد أن يجلسوا ها هنا طالبين الحجارة، وبمجرد أن يقعى أمامهم على الأرض ممسكا بالجوزة ومصفاة النار: يصيروا فى الحال سادته فلا يحق له أن يهزر معهم أو يشرب حجر إلا بإذنهم، ذلك لأنه نشأ هكذا واكتشف بالتجربة أنه قد أراح نفسه من وجع القلب.

نحن أحيانا نكاد لا نراه مطلقا أو ربما نتساءل عنه فيما هو مقع أمامنا على الأرض يسقينا، انه مجرد طيف، كتلة من سحب الدخان المتدفق من نافورتين فى وجهه، فمنخراه لا يكفان عن طرد الدخان الكثيف من عمق النفس الذى يشده فى التنفيض وراء الشاربين أو المراجعة للتأكد أن الحجر قد انتهى إدامه ، كثيرا ما يشد الواحد منا أعمق الأنفاس وأطولها إمعاناً فى الكيد لصابر – هكذا لله فى لله– حتى لا يجد ثمالة فى قعر الجوزة ينفضها، فإذا هو يطبق على البوصة بشفتيه المحروقتين فتومئ لنا سحب الدخان الكثيفة أن الحجر لم يكن قد نفد وأن صابر – ربنا يعطيه الصحة – هو الذى أشعله واستلب صلب قوامه ورحيقه.

ما رأينا فى حياتنا شبحاً بهذه القوة التحششية المذهلة مثل ذلك الشبح المسمى بصابر العسال. كنت كثيراً ما أضطر للبس منظار القراءة المقرب المكبر لكى أتبين ملامحه وقسمات وجهه فى لحظة من اللحظات التى تخلو من الزحام، من الضحى إلى القيالة سيما وأنه مخصص لنوع معين من الزبائن، نوع الشلل

و«البرتيتات»، من مستوى خمسين حجرا فما فوقك ؛ فمثل هذه الشلل تحتاج ولدا فوريجياً متودكا صاحب مزاج يعرف كيف ينقل صهللته الذاتية إلى الجوزة التى يمسك بها ومنها إلى الزبائن فتسبهلّ طالبة المزيد والمزيد، ثم إن مسكة الجوزة فى حد ذاتها صنعه، بحيث يقعى الولد على مسافة تسمح للشارب أن يشد النفس براحته وهو مفرود الصدر مستقر فى قعدته لا أن تكلفه الإنحناء والعناء فى الشد، ناهيك عن التعامل مع الجوزة تسييخاً وتنظيفاً مستمرا.. تلك كلها مسائل فى أصول الصنعة يعرفها صابر جيداً ويحقق شعاره الذى يرفعه دائماً.. حجرين أبرك من عشرة ، بمعنى أن حجراً واحداً مخدوما جيداً يمكن له وحده أن ينعش مزاجك يفتح شهيتك للشرب وقد يغنيك عن مائة حجر غير مخدومة.

مع ذلك فإن كنت وحدى فى الغرزة لسبب من الأسباب فإننى أفضل أن يسقينى ولد آخر غير صابر لأن الأخير سوف يأخذنى قشقلة، سيسقينى – قدرت أو لم أقدر – خمسين ستين حجراً فى بحر نصف ساعة على الأكثر.. لا ياعم، يفتح الله؛ فليجلس بجانبى كصديق يشاركنى الشرب على مهل يتناسب مع إيقاعى المزاجى وقدرة رئتى، حينئذ يتكور صابر على نفسه فوق المصطبة؛ حتى فى عز الصيف، إذ الواضح أن طول تكوره فى البرد شتاءات عمره كلها قد عوده بل صبّه فى هذه القعدة القنفذية إذ يكاد يدفن رأسه بكتفيه النحيلين بين ركبتيه المكسورتين. يطيب لى أن أتفرس فى ملامحه، أقصد بقايا ملامحه الممسوحة تماماً كالمليم البرونزى الماسح الضائعة فى خدين غائرين وصدغين مصفوطين حتى ليبدو حكنه كقنطرة ممدودة على بركتين جافتين، ويبدو أنفه النحيف كجسر وهمى بين هديمين فكأن وجهه خريطة صفراء تهرأت وبليت أطرافها وثنيات تطبيقها ، ومع ذلك لا تزال تعتبر وثيقة تسجيلية ، للهديم الذى دب فى حى معروف منذ أواسط القرن ويأبى أبناؤه مغادرته حتى لو جئ لهم ببلدوزر الحكومة يكسحهم كل بضعة أشهر ليفاجأ بأنهم نبَتت رءوسهم من قلب الهديم وتطاولت قاماتهم.

أحملق فى عينى صابر؛ أراهما ناعستين على الدوام وإن كانتا مفتوحتين، يلفهما جسران متقابلان من عماص لزج؛ تجرى من تحتهما عوامتان سوداوتان فى بركتين دقيقتين من مياه زرقاء راكدة، ولكن برغم جريان هاتين العوامتين الدقيقتين فإن العينين تبدوان ميتتين من عبء السهر الطويل المتصل ليله بنهاره.

الولد مجرد لقب يطلق عليه فى محيط المهنة فحسب أما هو فعمره لا يقل عن خمسين عاما بأى حال يعنى أكبر من صالح هيصة ببضع سنوات. مع ذلك فجميع المترددين على هذه الغرزة وجميع أبناء حى معروف يخاطبون صابر بقولهم: واد يا صابر فى حين يخاطبون صالح هيصة بقولهم: عم صالح بالتأكيد ليس لأن هذا شعره أبيض كله والآخر شعره منحول مجرود تحت الطاقية الصوف الكابسة على أذنيه وجبينه؛ أو لأن صالح ضخم الجثة عملاق أما صابر فسفروت ضئيل الحجم يصعب تثمينه أو اختبار عمره على وجه التقريب؛ إنما الفيصل هو الكيان الإنسانى نفسه؛ فصالح هيصة رغم ثيابه الرثه ومظهره الزرى تشع منه هيبة فطرية تفرض عليك احترامه فى الحال، ربما لأنه يجسد لك من أول وهلة ذلك النموذج المعنوى الشهير بـ: عزيز قوم ذل؛ بينما صابر بطبيعته نموذج للهزأة المهزار المدبر للمقالب الصامتة الخبيثة الكاسرة لأى تعيس غبى يقع فيها؛ ثم إنه شغوف بلقب الولد تيمنا بشريعة الله القائلة بأن كل مولود ولد، كما أن لقب الولد يرضى ميوله الخفية نحو المعيلة المكبوتة وشقاوة اليتامى وعفرتة اللقطاء سيما وأنه فى طفولته قد أصيب بالنكبتين معا فكانا لقيطا ويتيما معا.

نوع ما من المودة كنا نلاحظه بين صالح هيصة وصابر العسال، ربما أعمق من المودة التى تربط بينهما معا وبين حكيم صاحب الغرزة، لامانع لديهما، صالح وصابر، من التصريح بذلك جهراً أمام حكيم. كما أن حكيم نفسه يعرف هذا. وحين يسأله قمر المحروقى عن السر يترك ابتسامته المحبوسة بين شدقيه تقاوم الحبس تخطط للهرب فيفرج عنها قليلاً بالكاد حتى بوابة الشفتين المزمومتين ثم .

يقبض عليها يردها إلى الحبس هاتفا كأنه يحيي واحدا من أهم المبادئ التي تربى عليها في الصعيد ويحترم كل من يرعاها:

- « أصلهم بلديات! ولاد حته واحدة! مولودين في بيت واحد! كانوا بيلعبوا مع بعض وهما عيال!».

تكون ابتسامته الشقية قد أصابها الهياج خلف زنزانة الخدين فراحت تطل من شبابيك العينين تريد أن تفضح شيئاً يفشل هو في إخفائه، يستثار فضولنا يستطرد حكيم كأنه يكمل كلامه متجاهلا الإبتسامة التي طفشت منه وراحت تبرطع على جميع أنحاء وجهه:

-«الله أعلم كانوا بيعملوا ف بعض إيه وهما صغيرين! إن الله حليم ستار!».

ثم يفلح في اصطياد الإبتسامة واعتقالها. حينئذ تهدر الضحكة مجلجلة في صدر صالح هيصة؛ وفي هدوء ورصانة يرنو إليه بنظرة ذات إشعاع سيادي فطري؛ وبنبرة أسيفة خلال الضحكات الهادرة الأسيانه:

-«والله ما حد عمل فيّ صحيح إلا انت! إنت اللي فضيت بكارتي صحيح! ضحكت عليّ واغتصبتني خليتني أخدمك بالمجان! آه بس لو افوق لك شويه وأحاسبك من أول وجديد! بس المشكلة يا اسيادنا إني كل ما أجي أفوق أعمل هيصة! لكن معلهش أنا وانت والزمن طويل! حابيعك الأرض اللي في الصعيد كلها!».

على وجه صابر تنهار القنطرة الرابطة بين بركتي الخدين الغائرين؛ تظهر الأضلاع الحديدية الصدئة على هيئة صفين من الأسنان المسودّة، فنعرف تلقائيا أنه يقصد إلى الضحك إلا أن أنفاسه التي استلبها شد الأنفاس من الجوزة لا تساعده على إصدار صوت للضحك، إذ هو بالكاد يقوى على تصويت الكلام بنبرات مرتبكة متقطعة الأوصال. ها هو ذا يمد ذراعه المعروقة ملوحا بها بجوار أذنه مما ينبهنا إلى أنه يحلف بساكن السماء العلي القدير مؤكداً أن:

-«حكيم ده.. عمره ما حيورد على جنة! مضانى أنا وصالح على الورقة فى غمضة عين!! خد منابى ومناب صالح بتراب الفلوس!».

- «بس ما تقولش فلوس يا صابر! فلوس إيه؟ هو اللى دفعه ده فلوس برضه؟!».

هكذا هتف صالح وهو منهمك فى تعسيل الحجارة؛ ثم أضاف موضحا بأصبعيه الكبيرين:

-«كل واحد تلات ملاطيش عمى!».

-«أنا حتى ما قبضتهمش! وكّلنى بيهم أفيون! أصله كان تاجر أفيون بالبوستة أول ما جه من الصعيد شادد «اللبان بتاع المركب!».

وكان يهم بأن يقول شيئاً آخر لولا أن مصطفى لمعى استوقفه بإشارة من يده فى حركة مراجعة:

-«لحظة واحدة! يعنى عاوز تفهمنا إن الغرزة اللى احنا قاعدين فيها دلوقت دى كانت بتاعتك أنت وصالح؟!».

قال صابر فى زهو وقد مطّ رقبته لأعلى:

-«طبعاً! إسأل أى واحد فى معروف يقول لك!»

إستدرك صالح:

-«إحنا وناس تانيين معانه! بس هو اشترى نصيبى ونصيب صابر بس! المساحة دى كلها من أول الباب لحد الهيصة اللى جوه ! كانت شقة تلات أوض! صابر وارث أوضه! والوليه بتاع الفجل اللى على ناصية الشارع دى كانت عاملة لها دروه فى الصالة! إيه رأيك بقى إن الوليه دى هى اللى عرفت تنحنحه وتاخد حقها تالت ومتلت؟! إنما أنا وصابر يا حسرة علينا سبنا له الجمل بما حمل!!» طفشت الإبتسامة نهائياً من جميع أنحاء وجه حكيم؛ فترك هروبها خفقانا شاحب اللون فى بشرته المدبوغة ؛ ثم شسوح بذراعه هازا رأسه فى أسف:

-« تقولش خدت الملك بتاع أبوهم؟! دول كانوا حيا الله مولودين في البيت ده!! أبو ده وأبو ده كانوا مأجرين من واحد مستأجر قديم! صاحب البيت الأصلي مات ومالوش ورثة!! البيت اتشرك والحكومة أمرت بإخلائه! إللي كان معاهما عقود إيجار قديمة خدوا بدالها في المساكن الشعبية!! اللي مأجرين من الباطن الحكومة قالت مالكمش عندي زي البنك الدولي ما قال لعبد الناصر!! البيت كان على شقتين كبار! أربع تدوار فوق بعض ما فضلش منه غير صحابنا دول في الشقة دي في الدور الأرضي! عايشين متهددين كل ما تفوت عربية في الشارع الجدران ترقص والسقف يسقف لها على وحدة ونص!! يعني لو ماتوا تحت الردمة مالهمش ديه لأن الحكومة طارداهم! جيت انا رحمتهم وبنيت بفلوسي أبقى أستحق الشكر ولا المذمة؟!»

ضحكنا. قال طلعت الإمبابي في سخرية واضحة:

-«لا والله عداك العيب! تستحق الشكر طبعاً!» وسأل قمر المحروقي:

-«لكن إيش عرفك إن صاحب البيت الأصلي مات؟ مش جايز تبص تلاقيه طالع لك من تحت الأرض؟!».

وقعت الإبتسامة ميتة قبل أن يدركها حكيم فراح يفركها مع كومة المعسل في صينية كبيرة حيث يقص أوراقه وينعمه ليتمكن صالح من رصه على الحجارة بسهولة واقتصاد:

- «صاحبه مين بقى؟! أصله كان من بلدنا وكنت باجي ازوره هنا وأنا صغير! وكنت عارف خباير البيت كله أول بأول! وجيت وأنا مالي إيدي!! ولو كان راجل بقى يطلع لي من التربه!!»

قال مصطفى لمعي:

- «مايقدرش طبعاً! يخاف منك !»

وقال فاروق الجمل:

- «إنما أنت كنت صغير في يوم من الأيام يا حكيم؟ كنت طفل يعني؟!»

علق طلعت الإمبابى:

–«حكيم ده طلع شيطانى زى ما هو كده!»

ضحك ولاء الدين كاتب القصص المنتسب إلى الشلة بحضورها مشى كقصصه الحداثية المفرغة من المشاعر؛ وأشار نحوى:

–«أنا وهذا العكروت نعرف حكيم منذ عشر سنين وهو لم يتغير! فاكر؟ كنا بنيجى نشترى منه كل واحد بوستة أفيون بشلن! حكيم ده هو اللى شجعنا على الهباب الاسود ده!!»

قلت فى تأفف لأدارى كذبتى المفضوحة:

–«الحمد لله ربنا تاب علينا منه!»

وكان قمر المحروقى مندمجا فى شرود باسم وقد استقرت نظراته على صالح هيصة، ثم جعل يردد كأنه يكلم نفسه: إذن فصالح هيصة مولود فى هذا البيت؟!. فمد صابر ذراعه إلى الأمام موضحاً:

–«في الركن اللى هناك دهه! تحت بير السلم بالظبط! كان سرير أبوه محطوط وأمه ولدته فوقه!»

ثم انتعش فجأة واعتدل فى قعدته؛ دبت فيه حماسة سخنة لدرجة أننى لمحت فى عينيه – لأول مرة – علاقة بالحياة فجأة ولأول مرة وجدت فى عينيه ثمة معنى. هنا تكشفت لى حول عينيه وأنفه علامات كالبصمات تبين كم هو عجوز.

كانت وجوهنا جميعاً قد اتجهت إليه عقب حركة اعتداله المفاجئة. راح يهز رأسه وذراعيه فوق ركبتيه:

–«طب تصدقوا كمان إن صالح هيصة دهه مولود فى ليلة قدر؟! أى والختمه الشريفة صالح اللى قدامكم دهه! أمه! خالتى منتهى الله يرحمها استنت ميعاد ليلة القدر وقعدت فوق السطح تستناها! شافت النجمة أم ديك بتجرى فى السما! قال: يارب نفسى فى حتة ولد يبقى ديك البرابر! يشاء السميع العليم إنها فى ليلة القدراللى وراها تولد صالح اللى قاعد قدامكم دهه! عشان تعرفوا إنه راجل مبروك!!».

شعور بالغبطة كان مسيطرا علينا فى تلك اللحظة كأننا اكتشفنا كنزا أثريا ثمينا.. أفقنا على ضحكات صالح هيصة المرحة الصافية المتدفقة داخل صدره كالفيضان:

-«أبويا ليلتها عمل هيصة حتقولوا على كداب لو قلت لكم إنى كنت سامعه وأنا ملفوف فى اللفة !!

أنا كمان عملت هيصة! واء واء واء ! أبويا يقول لأمي: انبسطى يا اختى بالولد! طب كنتى اطلبى شوية فلوس نصرف منها! بيت حلو نسكنه !! سمعت أمى بتقول له هى العادة كده تطلب قرش يديك كرش قلت اطلب الكرش يمكن يدينى القرش بالعند فىّ!! أيامها كانت الدنيا هيصة والعالم كله ماسك فى خناق بعضه والملك فؤاد بيخاير نفسه عشان يموت! ولما مات قالوا إنى نحسته !! أبويا كان منكاد عشان أنا جيت من هنا وأمى قالت له خد عندك: خمسة صبيان ورا بعض ومن قبلهم ست بنات!! أبويا ساب لنا البيت وطفش على السودان اخواتى الصبيان كانوا أندل منه! إستنوا لحد أنا ما دخلت التجنيد وجات الكوريرا قشتهم!! طب الكوريرا بنت القحبة دى ماقشتش حكيم ليه؟! عشان هو نفسه كوريرا أكرر منها!».

عاصفة الضحك أرعشت الإبتسامة داخل شدقى حكيم، فراح يفش غله فى فرك المعسل:

-«ما انت صنف نمرود! طلعت بيه خدك تعيش معاه فى بيته ماطقتش النعيم أصل الفقر ليك دوا إنت وأمثالك ولو انى ما شفتلكش مثيل!».

هدرت ضحكات صالح فى صدره مرحة صافية عريضة دافئة لكنها مضمخة بنبرة لافتة شعرنا أنه يقصدها ليقول بها شيئاً لا يصح أن يقال: مع ذلك فإن الضحكات كانت من الواضح أنها، تسخر من طلعت بيه من بيته من نعيمه المزعوم، وفوق البيعة تسخر من أفكار حكيم الهايفة وتصوراته الهبلاء. ما أدهشنا أن ضحكات صالح هذه قد رنت على وجه طلعت الإمبابى فكبسته فبدا منكسر

العينين يلعب بأنامله فى شاربه بتوتر واضح يمسح وجهه بكفه. خيل لى كأنه يريد أن يزيل عن بشرته شحوب الحرج، أخيرا شوح بحركة مصحوبة بنظرة يقصد بها معنى موجها إلينا نحن فحسب هو أنه لا داعى للمن والتشدق بالإحسان، ثم أضاف بلهجة أكدت فشله فى الهروب من لهجة المن والتفاخر مع أنه قصد العكس تماماً:

-«فضك من الموضوع ده يا حكيم! عم صالح كان مشرفنا! وبيتى كان سعيد بيه ولسه تحت أمره!».

إنزلقت الكلمة من حنك صالح هيصة:

-«تشكر يا طلعت بيه! أنا سبق وقلت لحضرتك إنى ما أنفعش أكون ضيف محترم! مش لأنى مش محترم لأ! إنما لأن الدعوة نفسها هى اللى أكدت على إنى مش محترم وجاى لى فرصة أنى أبقى محترم لمدة يومين تلاته جربت زى ما وعدتك! لقيت أن اللى مش محترم هنا مش محترم هناك يعنى الدورباطه!!».

-«يعنى إيه؟!».

قالها طلعت وهو يهز رأسه ليفيق..

-«فسرها زى ما تفسرها وأنا موافقك على الخط!» رمقه حكيم فى اشمئزاز:

-«باقول لك منتاش وش نعمة!»

نفث مصطفى لمعى الدخان بصوت على إيقاع أهة قرفانة، ثم أزاح البوصة فى شئ من العصبية ! انتبه لها صابر العسال فنفض الكسل عن ظهره المقوس وهب واقفا، ربت على ظهر الولد الذى كان يسقينا:

-«لمؤاخذه يا سوكه! أنا سبتك تسقى البهوات عشان ما تقولش أنى بانقى الزباين اللى على كيفى! بس البهوات دول عدم المؤاخذة محدش بيعرف يسقيهم غيرى أصلها عشرة عمر يا صاحبى وع العموم متخافش حقك فى البقشيش محفوظ برضه!».

وسحب الجوزة الكبيرة القاتلة، قام بتسييخها وغسلها وضبط إيقاع مياهها حتى تصاعد لها في آذاننا رنين موسيقى أشبه بالترتيل. طحن في المصفاة ناراً جديدة وشد الصفيحة الخاصة به فوضعها تحت مؤخرته. لاح في الأفق أننا سنبدأ لتونا في التحشيش الحقيقي أما تلك الطرائح السابقة فاعتبرناها تسليك زور وتنفيض صدور.

الكرباج والقانون

فى عام ألف وتسعمائة وثلاثين - طبقا لرواية صابر العسال - كان صالح هيصة يخطو نحو السابعة من عمره تقريباً - كان أكثر أبناء حي معروف هدوءاً ووداعة وخفة ظل. فى أول شقة فى الطابق الأرضى من هذا البيت الذى هو الآن غرزة حكيم، يقيم الشاويش عبد البر صالح عسكرى الهجانة مع عياله. الشقة عبارة عن حجرتين وفسحة وعفشة مياه، وهم بالصلاة على الحبيب ثلاثة عشر فردا: ست بنات وخمسة صبيان والرجل وزوجه. قل إن الرجل غير معمول حسابه فى البيت فهو دائما أبدا خارج البلدة كلها فى مهمات يقوم بها عسكر الهجانة ذوو النفس الطويل فى الغربة، قد يمكثون فى إحدى القرى شهراً كاملا حتى يستتب الأمن فيها بعد نزاع طويل بين بعض العائلات وبعضها ترتب عليها قتل وتحريق وتخريب، وقد يأتيهم الأمر بالرحيل فجأة إلى إحدى المدن لقمع مظاهرات أو تنفيذ أحكام عرفية يتطلب تنفيذها قوة جبرية غاشمة لا تعرف أباها، مهمة قد تمتد فى المدينة والمدن المجاورة إلى غير نهاية.

عسكرى الهجانة لا صديق له على الإطلاق سوى الجمل والكرباج السودانى الطويل المصنوع من أذيال البهائم بعد نقعها فى الزيت مدة طويلة ليكون سياطها لاهبا يشرخ الجلد البشرى مهما غطاه بملابس وحشايا. أما الجمل فإنه عهدة يتسلمها أمانة يلتزم بتسليمها فى أى لحظة. وأما الكرباج فإنه وإن كان هو الآخر عهدة إلا أنه مسموح بتركه مع الهجانة فى غير أوقات العمل الرسمية، ولا جناح عليه إن ضاع منه طالما أنه يستطيع شراء غيره لتسديد العهدة به. ومع ذلك فمعروف أن كرباج الحكومة قانونى، فمن مواصفات اللسوعة اللاهبة المؤدية إلى الفرار دون إيذاء شديد، لكن عسكرى الهجانة العقر المحترف يستهزىء بكرباج الحكومة يعتبره لعب عيال يصلح بالكاد لغازية تلسوع به ظهر حمارها أثناء

سرحانها فى القـرى، لا يصلح مطلقاً لفرض قـوة الـهجانة في تنفـيذ القانون على ناس من المفـترض أنهم - كما أفـهمتـهم الحكومة - همج خارجـون على القانون وبعضـهم ذو نزعة إجرامية لابد من قمعها وردعها. وكان عسكر الهجـانة الواحد منهم يبعث فى شراء كرباج كرابيجي بحق وحقيق من شغل السودان ويا حبذا لو كان مصنوعا من ذيل التمساح. بعضـهم خبير فيصنعه بنفسه أو لغيره بمواصفات عالية الجودة بحيث من يطاله طرف الكرباج من المواطنين يبقى تأثيره فى جسده مدى الحياة، وما دام لن ينساه فلن يفكر فى الشغب مرة أخرى.

لا أحد ينكر أن عسكر الهجانة كلهم طيبون إلا عند استعمالهم للكرباج بأمر الحكومة. الدليل على ذلك عم عبدالبر صالح كما يشهد له أبناء حى معروف سواء فى شقه الراقى على تخوم شارع سليمان أو فى شقه الشعبى البلدى على تخوم ضريح الشيخ معروف على شكل بيوت عتيقة الطراز ذات شرفات وشبابيك تتدلى منها قطع الغسيل المنشور على حبال بينما هو من جواه عشش وأكواخ وتعريشات وتحويطات، سكان العمائر والعشش يعرفون أن عم عبدالبر صالح شاويش الهجانة طيب القلب رغم أنه لا يمشى إلا والكرباج السودانى تحت إبطه. الأطفال فحسب هم الذين يخشونه من فرط التجهم الذى يجعل وجهه أشبه برغيف تلعبكت عجينته قبل الدفع به إلى الفرن ليحترق وتمتلئ بشرته بالشرط الطولية فكأنه وجه قرد مكشر عن أنيابه.

إلا أن طيبة القلب شئ؛ وتأدية واجب الوظيفة بأمانة وذمة شيء آخر، وإذ يفرش الجوال قدام البيت فى الليل وبجواره قلة ماء وعدة شاى وجوزة أصلها كوب من الصفيح لزوم كرسى الدخان يجذب إليه رهطا من جيرانه المقاربين له فى السن، يساهمون جميعا فى تكاليف زردة شاى وباكو دخان معسل، ليأتنسوا بعم عبدالبر صالح بحديثه الطلى عما شافه ويشوفه فى بلاد خلق الله موفداً من الحكومة، يعرج بالحديث على الكرباج، فيسحبه من تحت فخذه يضعه على ركبتيه

يلوح فوقه بيديه كأنه يرقيه: لابد للكرباج أن يكون قادراً على إشعال النار في الجسد فإنه سمعة الحكومة وشرفها ، وما نحن إلا عروق تجرى في دمائها أو امر الحكومة وللعلم لو أننا طاوعنا الحكومة جيدا بإخماد مظاهرة أو فض اشتباك بالقوة لقطعنا لحوم الناس ورميناها للكلاب حتى تنتهى المهمة المطلوبة بنجاح؟! إذن فمن مصلحتنا يا عسكر الهجانة أن يكون هذا الكرباج قوياً حاسماً حتى لا نضطر للقتل والسحل، ومن هنا يا إخوانى فإن لسعة الكرباج هى أنجع أنواع الردع والقمع إذ هى الضربة الوحيدة التى تؤذى الشعور أضعاف ما تؤذى الجسد؛ بها لا يجد الإنسان فى نفسه أى قدر من الإنسانية يستخدمه فى الدفاع عن نفسه أو حتى مجرد الاحتجاج اللهم إلا الصرخة والآهة ثم يجرى ملتاثا كالدابة المذعورة تبحث عن ملاذ..

ذلك هو حديث عم عبدالبر صالح عسكرى الهجانة لا ينساه صابر العسال ولو بعد ألف عام منذ أن استمع إليه ذات ليلة بعيدة جداً من ليالى طفولته الشقية عند ما كان يطفش من الملجأ ويأتى ليعيش مع أمه الأرملة صاحبة العيا وإخوته الكثار من زوج آخر غير أبيه المرحوم.. كانت أمه تغلق الباب دونه لترغمه على العودة إلى الملجأ لأنها مش ناقصة كما أن زوجها فيه ما يكفيه؛ فلا يجد ثمة من ملاذ إلا قعدة عم عبدالبر صالح فوق الجوال فى الحارة لصق باب البيت حيث يتطوع بخدمته عن طيب خاطر يقضى له بعض المشاوير، إلا أن أوقات عم عبدالبر قليلة جداً فى الحارة، يوم أو يومين بالكثير أربعة ثم يأتيه الأمر بالتواجد بالمديرية استعدادا للرحيل إلى بلدة من البلدان، لهذا لم يكن لعم عبدالبر سريره الخاص لينام عليه فى وقت الإجازة المحدودة، فبعد ولادة ابنه صالح بحوالى سنتين بيع السرير ثم صندوق الهدوم ثم الطشت النحاس فحلة الغسيل فجميع الحلل، ذلك أن بيت عم عبدالبر صالح قد استغنى عن الطبيخ والغرف منذ أن ازداد عددهم بشكل يلزمه مرتب يوازى مرتب جميع عسكر الهجانة فى البر كله ، يكفى عدة أطباقٍ من البلاستيك فالأكل إما فول مدمس من عربة السريح وإما بطاطس مقلية فى طاسة

عتيقة تستعار من الجيران، أو طبخة عدس يوم القبض فى قدر من الفخار يوقد تحتها الكانون- ساحت أجسادهم على بعضها، أى واحد ينام فى أية رقعة تصادفة، البنات يرقدن فى صف يمتد من الحائط للحائط وأمهن تتمدد بالعرض في فتحة باب الحجرة لتكون أول من يستيقظ إذا لا قدر الله داهم البنات مداهم بليّل، أما صالح وإخوته الصبيان فلينم كل منهم فى أية بقعة فى الصالة أو فى الحارة طالما اتسعت لجسده ولو متقرفصاً . حرام من الصوف طاعن فى السن مرقع بالأجولة يتغطى به البنات سترا للعورة فحسب.

أما الصبيان فقد تمرسوا بالبرد القارص فى الحارة ليل نهار فلم يعد يجد فى أبدانهم مكانا يقرصه بعد أن نحست أبدانهم واكتست ببطانية من الوسخ والطين أكثر سمكا من بدلة فوقها بالطو ومن فوق البالطو عباءة إذ هى جسوم لم يمر عليها الصابون في حياتها قط أما الماء فلا يتجاوز وجوههم .

صالح هيصة، ريك والحق ، من صغره وهو حنون على أمه يزعل على شانها، يفعل كل شئ لكى يأتى لها بقرش صاغ أو نصف فرنك من حين لحين، يسرح فى سوق معروف طفلاً طيباً غلبانا، يشارك فى تحميل عربات الخضر والفاكهة أو تعتيقها، يسهر مع فكهانى سريح يظل طول الليل ينقض الجوافة أو المشمش أو البلح بالواحدة ليرصدها فى واجهة العربة رصة فنية جذابة متينة البنيان تظل متماسكة لأيام حتى ينتهى البياع من تصريف الثمار الوشيكة التلف والمحصورة داخل سور الرصة، يبيعه بنفس السعر المدون على ورقة مشبوكة فى الواجهة لتوهم المشترى أنه سيأخذ من المستوى المرصوص، يعود صالح لأمه فى آخر الليل بما كان البياع مستعداً لرميه فى الزبالة كثيراً ما كان يضرب إخوته ضربا موجعاً إذا هم تطاولوا على أمهم أو طالبوها بشئ لا تقدر عليه، طوال طفولته كان دائم السؤال عن موعد حلول ليلة القدر ليصعد إلى السطح فى انتظار

أن تنفتح السماء للمحظوظ، ليس لصالح آنذاك من مطالب سوى أمنية واحدة ، أن يرزق الله أمه فلوسا كثيرة تنفقها عليهم فى ثياب جديدة وكباب وكفته وحلاوة طحينية .

الخالة منتهى – أم صالح – وجدت حالها فى انكشاف متزايد، وراتب عم عبد البر – بعد خصم مصاريفه منه فى غربته الدائمة – لا يكفي ثمن العيش الحاف، ناهيك عن الغموس وإيجار المسكن وجاز للمصباح وللوابور، والأمر لا يسلم من أسبرينة أو شربة ملح انجليزى أو بكرة خيط لترقيع الثياب أو زجاجة للمصباح وما شابه ذلك من مطالب . هذه الحوجة كوم، وسترة البنات كوم آخر، إن الخالة منتهى سمراء سمرة أسوانية معتبرة إلا أنها جميلة التقاطيع كما أن جسدها إنثى ولا أميرات النوبة القديمة حتى أنس الوجود نفسها التى كان عم عبدالبر مغرما بالحديث عنها – إنما بناتها – يا حرام – صورة طبق الأصل من عم عبدالبر، قردات بمعنى الكلمة، لم يرثن عن أمهن شيئاً سوى القليل من تقاسيم الجسد وليونته ونعومته من الرقبة المبرومة الرفيعة إلى الثديين المشدودين فى تكور شامخ، إلى الخصر النحيل إلى الكشحين الهضيمين بساقين مبرومين طويلين بصورة ملحوظة حتى ان أصغر بنت فيهن لم تكن تبلغ من عمرها تسعة أعوام وتمشى فى الحارة كالجمل يحمل هودجا، مشكلتهن فى الزواج أن شبان حى معروف يعرفونهن منذ الصغر، ما من شاب إلا ويحفظ صور وجوههن بدقة لكى يتلافاها عندما ينتقى لنفسه عروسا بنت ناس. أما الغريب عن حى معروف فإنه قد يرى إحداهن من ظهرها فيصحو فى عموده الفقرى شبق أهوج يجعله يتمنى أن لو كان كلبا أو حمار أو ثورا ليتمتع بشرعية أن يقفز فى الحال على من تروق له فى أى مكان فى أى لحظة عيني عينك، ولقد يبرح به الشبق العارم المفاجىء فيفكر فى استئجار شقة خاصة لهذه الأنثى الغلبانة ينفق عليها لتكون أنثاه الدائمة بغير

قيود رسمية، لكنه إن أسرع الخطو – وهذا ما يحدث فى العادة – ليرى الوجه الآخر كي تكتمل نشوته يفاجأ بأنه لا يرى إلاّ وجه قرد أو غوريلا دونما زيادة أو نقصان، سوف يخرج عن طوره لا محالة ، قد يصرخ فزعا ، يشهق يرتبك ، يتقلص وجهه وبدنه رعبا من المفاجأة غير المتوقعة . مع ذلك هن حرائر فضليات ، سمعتهن مثل الجنيه الذهب، هناك من يدور على بعضهن طالبا الزواج على سنة الله ورسوله لكنهم جميعا من الكحيته لا يقدر الواحد منهم على تكليف غدوة واحدة والخالة منتهى تعرف أن بناتها فى مأزق حرج من ناحية الشكل لكنها على يقين من أن لجمال النفس وحسن التربية وصون العفاف من يقدره من عباد الله المسلمين وحتما سيجيء فى أوانه كل ما هنالك أنها ملزمة بالتحضين عليهن وحمايتهن من البهدلة بتوفير الضرورى مما يحتجنه على الأقل والا سيتعرضن للهوان .

للخالة منتهى إحدى قريبات قرابة الدم متزوجة من بواب عمارة كبيرة فى حى جاردن سيتى، علاقاتها واسعة ورجاؤها مستجاب عند جميع سكان العمارة وضيوفهم ، صعب عليها حال الولية التعسة، راحت تساعدها قدر استطاعتها لكن ماذا تفيد القطرة فى الأرض الشراقى ؟ كانت قد تعرفت على محام كبير من بلدة شبين القناطر على تخوم القاهرة الشرقية، ذلك أن أحد كبار سكان عمارة جاردن سيتى قد تزوج حديثا من شقيقة هذا المحامى وهو لا يكف عن زيارتها . عرفت من شقيقته العروس أنه أعزب، فى الكذا و الستين من عمره، ماتت زوجه، تزوج كل أبنائه ورحلوا ، احتمل الوحدة اعتادها اكتشف حلاوتها لكنه لم يألف شغل البيت. هو ليس محتاجا لخادمة فالثلاجة والمعلبات والمطاعم العامة تكفى لسد احتياجاته الغذائية دون مشاكل ، هو محتاج فحسب لإمرأة أمينة نظيفة قصيرة اللسان على خلق حميد، سيبعث سائقه الخصوصى بسيارته ليأخذها من عند بوابة العمارة صباح الخمسين من كل أسبوع ويعيدها مساء الجمعة أو فجر السبت إن لزم الأمر تكنس الفيلا تنفض غبارها تغسل أرضها تبدل فرشها تغسل

الغسيل تطبخ له عدة اصناف تكفيه طوال الأسبوع لا تكلف خادمه سوى التسخين والغرف. في مقابل هذه المهمة يعطيها راتبا شهريا قدره عشرة جنيهات . الخالة منتهى رقصت من شدة الفرح دعت لقريبتها بالستر وعدم الحوجة للناس. اتفقا سويا على أن يظل هذا الأمر سراً دفينا لا يتسرب خبره إلى عم عبد البر صالح من جانبها قرطت على العيال الكبار بأن يتجاهلوا الأمر كأن لم يكن . في صباح الخميس من كل أسبوع ترتدي ملاءتها السوداء ومركوبها البلاستيك ، تسحب ابنها صالح متجهة الى العمارة في جاردن سيتي فما تكاد تشرب كوب الشاي بالحليب حتى يطب سائق البك فيأخذها ومعها صالح لا يفارقها . وفي مساء الجمعة يعودان إلى الحارة في حالة انتعاش واضحة .

تلك كانت أحلا أيام طفولة صالح هيصة وجميع إخوته ظهرت عليهم النعمة، إحلوت وجوه البنات بعد أن عرفت الصابون المعطر وأمشاط الشعر والتوكات والمناديل والفساتين الجديدة الملونة ، ناهيك عن دماء الوجبات الثلاث في اليوم . عرفت الولية طريقها الى محلات الصيني والألمونيوم والطرح والمناديل تشتري لبناتها اشياء يدخرنها للزواج المرتقب .. لبس صالح - لأول مرة في حياته.- القميص والبنطلون بعد الجلباب الواحد الكالح المتهرئ من جميع الجهات، عرف جسده الشيرز والبلوفر بل والبالطو المحندق مثل ولاد الناس ، بل استطاعت قدمه أخيرا أن تمتثل للحذاء بعد أن برشت وانتفخت وتشققت من طول الحفاء . ذلك أن الرجل المحامي كان يعطف عليه كإبنه، يشتري له الملابس من المحلات على مقاسه ، يعطيه مصروفا يضيعه كيفما شاء ، لا شأن لأمه به، يداعبه يحنو عليه كحفيده ، يرغم أمه على أن تعرف له - ولها - مما طبخته من طعام . لقد احبها الرجل واحترمها جدا لما تتصف به من عفة وأمانة ونظافة من جواها ومن براها ، كما أن نفسها في الطبيخ فاضح بفتح الشهية على بعد أميال طويلة . لذلك قرر الإحتفاظ بها وبات لايدقق معها في أي شيء إلى أن أصبحت هي الكل في الكل في حياته المنزلية بل أصبح يناديها : ياداده ، لا يحاسبها لا يراجعها فقد أنس إليها فأغدق عليها حتى غمرها بفضله .

أحب صالح هذا الرجل إلى حد العبادة ، يقول لصابر العسال ولكل عيال الحارة إنه بدأ يقتنع أن الولادة في ليلة القدر مهمة فعلا، يكفى أن الله قد أعطاه أبا جديدا من الباشوات الأصائل يحنو عليه بحق يذيقه نعيم الدنيا وبهجة الأبوة . كثيرا ماكانت أمه تتركه عند المحامى أسبوعا أو أسبوعين ، يقوم فيهما بالذهاب إلى مكتب المحامى لقضاء طلباته الخاصة. يرى المكتب كبيرا كالمدينة ، زبائن بالمئات يدخلون ويخرجون ويمكثون ، يلتقيهم وكيل المكتب ليتفاهم معهم فى قضاياهم ينثرونها عليه بالتفصيل الممل وهو يبحث لكل مغرز عن منفذ فى القانون يبطله . صالح يستمع بشغف لساعات طويلة يتعلم يختزن فى رأسه وعيا كثيرا مبهرا، حتى إذا عاد للحارة يتيه به على العيال . هذا المحامى هو فى الواقع اكبر وأهم رجل فى حياة صالح هيصة. معلمه الأوحد، غرس فيه وعيا ومعرفة وأخلاقا وطبائع لم يكن ليعرفها صالح هيصة حتى لو دخل الجامعة. كل الحاجات الحلوة فى نفسية صالح هيصة وسلوكه ومعتقداته زرع المحامى بذرتها فيه وألهمه أنه إنسان لا يقل عن أى مخلوق أخر استحقاقا للعزة والكرامة كما كان يقول للعيال فى الحارة على أمل أن يعلمهم هو الآخر مما تعلمه. لو قدر لصالح أن يبقى تحت كنف هذا الرجل حتى شبابه لكان زمانه الآن فى أملة كبيرة .

المحامى كان سياسيا كبيرا جدا ، عضوا مهما فى حزب الوفد، شهرته تمتد على مساحة البلاد كلها حيث له فى كل عاصمة إقليم فرع من مكتبه ، كما أنه يكتب في الصحف باستمرار ، وعضو فى البرلمان لدورات متصلة لا تنقطع وقد رشح للوزارة أكثر من مرة . كنا آنذاك فى أوائل الأربعينات حيث الدنيا مقلوبة بالحرب العالمية الثانية ومصر ملآنة بوجع الدماغ من جراء قرار الحرب لصالح الإنجليز بينما الواجب أن نحارب ضد الإنجليز . المهم أنه جاء حين تعددت فيه الإضرابات بصورة مخيفة ، من عمال السكة الحديد إلى عمال كفر الدوار والمحلة الى جميع العمال فى جميع المصانع فى جميع البلاد، كل شىء توقف بالأربعة ، كثرت المظاهرات صارت عنيفة ، إعتصم القضاة والمحامون فى شبين القناطر أو

فى دائرتها يعنى ، خرج جميع الأهالى يهتفون بسقوط الإحتلال وأذنابه - يعنى الملك فاروق ورجاله - ووقف علية القوم ليخطبوا فيهم . حاول البوليس تفريقهم باللين فلم يفلح ، تطاول عليهم بالضرب ، قاوموه بقوة وبسالة كأنه جنود الإحتلال ، إنجرحت كرامة عائلات كبيرة كثيرة طعنت فى كبريائها فى هيبتها بضرب كبرائهم والتنكيل بهم فى غشومية وغباء شديدين ، فقدوا جميعاً صوابهم حتى أثخنت الشرطة بالجراح وفشلت فى رد العائلة فأبرقت فى طلب الهجانة فورا، مع ذلك اعتصم رجال العائلات كلهم فى ساحة القرية يطلبون حضور النائب العام ورئيس الوزراء لمعاينة ما حاق بأهل الناحية كلها من خسائر فى الأموال والأنفس نتيجة لغباء الشرطة وعنفها غير المبرر. كان الاعتصام الصاخب تحت إشراف لفيف من أعيان الدائرة وعلى رأسهم عبد المجيد بك العريان المحامى الكبير والسياسى وصاحب القلم اللاذع الشجاع والبرلمانى فوق ذلك كانوا يتصورون - لحسن ظنهم بأنفسهم - أن الحكومة إن لم تستجب لطلباتهم - وهم دائرة بأكملها - فعلى الأقل سترسل وفدا محترما للتفاوض فى هدوء وتحضر ، غاب عن فطنتهم أن الصورة انتقلت إلى القاهرة على غير ما يتوقعون ، الصورة وصلت الى مقر الحكومة وإلى القصر الملكى وقصر الدوبارة باعتبارها ثورة همجية اختارت القتال الدموى وسيلة لقلب نظام الحكم ، فجن جنون الجميع فقدوا البقية الباقية من الرشد فكروا فى إرسال كتيبة من الجيش تدك البلدة بالدبابات ، لكن طائفا من رشد لحق بهم قبل وقوع الحماقة فاكتفوا بفرقة كبيرة كثيفة من عسكر الهجانة تؤدب هؤلاء الرعاع تخزنهم فى بيوتهم ليسهل القبض على زعمائهم فى هدوء ، أما أن يتركوا هكذا منثورين فى ساحة البلدة، حتى بغير هتاف - فهذا إهدار لهيبة الملك شخصيا .

هبط فريق الهجانة على ساحة البلدة فى هجمة شرسة محمية بالعسكر السوارى من خلفها بخيول عفية . صارت الكرابيج تنهال فوق الوجوه والأقفية والمؤخرات والأفخاذ بغير تمييز بل بجنون لا سقف له . صالح حينئذ كان واقفا

خلف الأستاذ يكاد يتعلق بقماش سترته . كان ملازما له كظله منذ قيام الأزمة ، وكان يكاد يفهم طبيعة المعركة وأسبابها وتفاصيلها ويقيم حجمها المروع. بقدر إعجابه بشخصية هذا الرجل العملاق الذى لا يهمه من الحكومة ولا من الملك بذات نفسه ولا من الإنجليز بجلالة قدرهم بل يقف فى مواجهتهم يكاد يرفع السلاح، بقدرة فرحته وانبهاره بهذه الشخصية كان خوفه عليها قد بدأ يكبر ويتجسد امامه فى صورة خطر محدق يتهدد حياته، الأب المعلم الذى كاد فى نظره أن يكون رسولا بماله من كرامات ، تمنى صالح لحظتها أن لو كان فى استطاعته اختطاف أى مسدس ليفرغ رصاصه كله فى قلب من يعاديه، او يعتدى عليه ، لكن ها هو ذا يضيع بين الأقدام فلا يستطيع تمييز أخفاف الجمال من اخفاف عسكر الهجانة . إلا أنه تعلق بثياب الاستاذ حاول مداراته بجسده ليتلقى بدلا منه لسع الكرابيج النارية. غير أن الكرباج الكافر طوق ظهره بحزام من نار جهنم الموقدة سمع لها صوت طرقعة وأزيز هو صوت لحمه يتمزع تحت الكرباج . أنة واحدة لم يقو على إكمالها وهو يحتضن استاذه فى صدره الصغير، شعر أن الثياب تلتصق فى لحمه بالدم الغزير النازف – قرر أنه لو نجا من هذه الواقعة فسيحفظ شكل هذا الذى ضربه ليقتله فى الحال بأى سلاح بأى شكل، نعم لابد أن يقتله ، لن يشفى غليله إلا قتل هذا الوحش البهيم الذى اشعل نار الآلام كلها فى دمه. التفت بعيون مخضلة بالدمع السخين ليحفظ شكل من ضربه لكى يدبر لكيفية جذبه من قدمه حتى يبرك فوقه ويأكل زمارة رقبته ، ماكاد وجهه يبتعد قليلا عن وجه أستاذه وتقع عينه على وجه العسكرى المتوحش حتى كان الكرباج قد طوق وجه الاستاذ وقفاه وكل جسده والأستاذ يتوجع يبكى مستعينا بالله من الشيطان الرجيم.. عندئذ صرخ صالح ، إرتمى فوقه، لا ليحميه بجسده الضئيل فحسب، بل هربا من فزع ألم به لدى رؤيته لوجه الوحش الضارب، إنه وجه أبيه عم عبد البر صالح أنت وحش جبان إلى هذا الحد أيها الأب العيره ؟!أمجرد أنت من الرحمة والشفقة ، لا قلب لك ، ولا مشاعر ؟ مع ذلك كشف عن وجهه لأبيه حتى يراه ليكف عن ضربه

إلا أن الأب لم يكن هو فى تلك اللحظة ، لا يرى لا يشعر لا يسمع ، مندمج فى الضرب كمن أخذته الجلالة فى حلقة ذكر. صاح الولد بقلب مكلوم ينبه اباه لصوته، قال له بصريح العبارة: أنا صالح ياأبتى فكف عن ضربنا . عندئذ حملق فيه عم عبد البر ، بكل غلظة مد ذراعه الطويلة فسحبه من الأرض وألقى به خلفه على ظهر الجمل، اندفع يستحث الجمل على الهرولة إلى الخلاء لم يسمح للجمل بالكف عن الهرولة إلا على باب الحارة حيث مد ذراعه فسحب صالح ألقى به فى الأرض على طول ذراعه ثم قفل عائدا منذرا إياه أن حسابه ليس الآن .

ذلك اليوم البعيد الغريب قسم حياة صالح هيصة نصفين وشرخ نفسيته شرخين . أصبح الشخص الذى كان قبل ذلك اليوم لا علاقة له بالشخص الذى ولد فى ذلك اليوم. بدأ الضياع يفرض نفسه عليه والفشل يلاحقه فى كل مكان يذهب إليه. بدأ الطقطقان فى مخه لكن الأساس المتين الذى بناه فيه المحامى هو الذى حماه من الجنون التام. أول التغيير أن صالح كره أباه كره العمى لدرجة أنه فكر جديا فى قتله . كان عم عبد البر قد رجع بعد حوالى اسبوع من الحادث ، وكان قد سأل وطقس وتحرى وربط بين النظافة التى طرأت على عياله وبين وجود ابنه فى حضن ذلك الرجل الذى عرف بعد الواقعة من يكون هو وما وضعه . جاء البيت يقيم محكمة للولية الشقيانة، هو صاحب الدعوى والقاضى والجلاد . وقف صالح متحفزا له، يخفى سكينا فى جيبه ، صار طويلا من أيام العز وكبر عقله فصار يفهم أحسن من أبيه يعرف حاجات لا يعرفها أبوه، لا يزال صابر العسال يذكر صالحا قبل دخوله وراء ابيه بلحظات ، كانت شروخ الكرباج فوق ظهره وصدره ووجهه وفخذيه قد صارت اشبه بالمطبات الصناعية جسور منفوخة بالدم الأزرق مثقوبة كالغربال ، وكان غضبانا إلى حد الجنون يقول لصابر :

– «اللى كايدنى ياد ياصابر إن الناس تنضرب بالكرباج ده ليه ؟! دول لو كانوا بهايم يصعبوا علينا ! إذا الراجل ده يبقى ابو عيال وهو ميعرفش ربنا ؟! الوحش اللى جوه ده بيخبيه ازاى ؟!

إزاى أمى ترضى تعيش مع واحد معندوش مانع يقطع جتتها بالسكين لو الحكومة شاورت له ؟!

اللى كايدنى أكتر يا صابر إن فيه واحد يضرب كرباجين زى اللى أنا خدتهم ويسكت ؟! إزاى ؟! ده أنا بعد ما جربت لسعة الكرباج اصبح الإعدام فى نظرى اهون ، يعنى يكون ارحم وأكرم للإنسان إنك تشنقه وماتضربوش بالكرباج !! آه يا صابر لو شفت عبد المجيد بيه وهو ينضرب بالكرباج زيه زى الخنزير ! أنا حاسس إنى لازم آخد بتاره !! لا ياصابر لأ ماتقولش ابوك ! أنا حاشطبه من شهادة ميلادى !!

لما دخل فى أعقاب ابيه رأى أمه المسكينة منزوية فى الركن تنتفض وإخوته البنات يولولن فى صمت مكتوم .

رأى أباه فى وضع استعداد للضرب يصرخ فى أمه كالملتاث :

– «إنطقى يا كلبه ! إيه علاقتك أنتى وابنك بداك المحامى ؟! تشتغلى خدامة ؟ من ورايا ؟!» فلما رأى طيف صالح مقبلا صاح فيه باشمئزاز :

– جيت يا محروس ؟! إنطق الكلبه دى كانت بتشتغل عند المحامى خدامه ولا..».

شبت النار فى قلب صالح، صار ينتفض ، إزداد طوله تضاعف حجمه ، تغيرت ملامحه إنقلب لونه إلى الأزرق ، صرخ صرخة هزهزت الشبابيك رجت الأرض :

– «إحترم نفسك ! دى مش كلبه ! دى ست أشرف منك ومن بلدك بحالها ! ست عاوزة تربى عيالها بالحلال وبعرق جبينها عشان الوحش اللى اتجوزها ونكبها بالعيال دى كلها معندوش نخوة ! بيخلف وبس : فيها إيه لما تروح تشتغل عند راجل محترم وانا معاها ؟! دى مش كلبه إنما الكلب صحيح هو اللى ينهش لحم ناس معملوش فيه أى ذنب !! » .

ثم غلبه الانفعال فراح يبكى بحرقة كأنه يبكى بأثر رجعى طفولته البائسة

وانطفاء المصباح الذي أضاء حياته برهة من الزمن اطفأه وكسره هذا الوحش الآدمى الذي يرفض صالح الآن وبقوة ان يكون ابنا له حتى وهو من صلبه :

– «عمل لك إيه الراجل المحترم اللى عيالك بتاكل وتلبس من خيره ؟! كنت بتضربه بقسوة وغل كده ليه ؟! بتبهدل كرامته ليه ؟! الحكومة قايله لك تطفش الناس مش تمزع لحمهم ؟! وهى دى حكومة الواحد يطاوعها ؟! تطاوعها ليه وانت مش لاقى اللضى ؟! إنت مش بنى آدم ! الراجل المحترم ده لو مات فى المستشفى ولا اتشوهت خلقته واتعجز عن الشغل حتبقى أنت ضربّيت حتى الحكومة!!» .

بحر الذهول تلاطمت امواجه ، سبح فيه عم عبد البر صالح حتى لم يعد قادرا على تجميع نفسه . كان قد وقف مبهوتا متجمدا يتدلى طرف الكرباج من يده فى رخاوة ، عيناه كأسان ممتلآن بالدم، ملامح الغوريلا قد استرخت في محاولة بائسة لإخفاء التوتر تمهيدا لضربة غادرة يعاجله بها ، صار يشيل الولد ويحطه بنظراته النارية، ثم دبت فيه صحوة فجائية قوية أحكمت قبضته على يد الكرباج ولاح بريق الغدر فى عينيه إلا أنه لما رأى ولده متحفزا متوقعا غدره متأهبا لردعه، وإذ رأى أمامه شخصا آخر مختلفا عن ابنه الذى يعرفه، هداه خبثه .

– خبث العبيد – إلى إطالة مدة الخداع لكى يتمكن من مفاجأته بضربة تكون قاضية حتى ولو يموت منها لا مشكلة ، هاهو ذا يتشبث بآخر أذيال الأبوة لعلها تؤثر فى هذا البغل الذى لم قد لاحظ نموه من قبل وحتى برهة قصيرة مضت. تمتم فى وقفته بهدوء مستعار :

– « بتطول لسانك علىّ يا كلب ؟ بتقف قصادى ؟!

طبعا ! ما أنت ابنها اللى بتوالس معاها ! ذرية بعضها من بعض!» .

ما لم يكن يتوقعه عم عبد البر صالح أن يكون ولده اخبث منه وأوسع حيلة وأشد مكرا ودهاء ففى لمح البصر ودون ادنى توقع فوجىء عم عبد البر صالح أن كرباجه لم يعد فى يده ، بل انتقل الى يد ولده صالح الذى قبض على يده بقوة ويرم طرفه حول يده الصلبة وامسك به مسكة حريف يعرف كيف يقذف بلسان

الكرباج إلى أبعد منطقة في الجسد يطلبها . وقف عم عبد البر مهيضا لاحول له ولا طول ، في حين جعل صالح يلوح بالكرباج في وجهه بحقد عنيف :

-« نفسي ومني عيني أديلك تلاته اربعة سخنين من عينة اللي خدناه أنا والراجل الطيب المحترم» !! نفسي أدوقك طعم النار وهي بتاكل في لحم البني دم ! نفسي أخليك تحس وتشعر بالهوان اللي بيسببه كرباجك دهه للناس الطيبين اللي مالهمش ذنب في أي حاجة ! نفسي أخليك تعرف قد إيه كرامة البني آدم بتتهد مدى الحياة بكرباج واحد من دهه !! نفسي ومني عيني لكن قلبي مش مطاوعني ! مش عشان انك ابويا وانا شفقان عليك لأ ! إنما عشان أنا ما اقدرش. أشوف لحم بني آدم ولا حتى حيوان بيتمزع بكرباج ! أنا مش وحش زيك أنا من حسن الحظ مش طالع لك ! مش واخد منك أي حاجة ! انا طالع لخالي للست المحترمة اللي صانت عيالك من الجوع والبهدلة ومع كده كنت جاي تضربها بالكرباج ! الكرباج ده إنت مش حتمسكه تاني !

أبقى مرة إن ما عملت لك بيه نصيبه !!» .

دب الهياج في عم عبد البر، إنقض على ولده كفهد عجوز ، اطبق بيديه الطويلتين في عنق الولد غرز أظافره في لحمه صار يهزه بقوة يجز على أنيابه :

- «هي حصلت ياكلب ؟ ياابن السايبة ! طلاق تلاته لاكتم نفسك!» .

لو كان جبل المقطم يهتز من أزيز طائرة عابرة فوقه يكون صالح قد اهتز من قبضتي ابيه. كان ثابتا في الأرض كالطود ، لا يريد أن يمد يده على أبيه ، لكنه لما غاصت اظافر ابيه في رقبته مد ذراعيه ودفع اباه بقليل من الرفق والتحسب وكثير من الغيظ الدفين، فإذا بعم عبد البر قد طار في الهواء راجعا بظهره كريشة اكتسحتها العاصفة ، لم يوقفه سوى الحائط الذي صك ظهره بعنف فارتد منكفئا على بوزه. إلاّ ان الرجل العجوز كان لايزال قويا صلبا مرن العود، سرعان ماجمع نفسه واقفا تتطاير من عينيه جمرات متقدة، سحب المطواة، من جيب الصديري ،

فتحها بحركة سريعة غير مرئية جرى بها مشـرعة السن قاصدا قلب ولده مباشرة . كاد يغرسها فيه فعلا لولا أن الخالة منتهى صوتت فى رعب فانتبه ابنها فى اللحظة الحرجة تفادى الضربة قافزا قفزة ألقت به خارج باب الشقة ساحبا سكينته هو الآخر إلا أن صابر طب فوق رأسه حيث كان مقعيا فى الحارة تحت شباك البيت المواجه ورأى كل مدار عبر حديد الشباك . بفدائية نجح صابر العسال فى خطف السكينة من يد صالح هاتفا به فى تحذير :

-«إخزى الشيطان يا مجنون ! إخفى من هنا الساعا دى صل ع النبى يا عم عبد البر» .

انتبه صالح إلى ذراع ابيه التى اوشكت رقبته ان تكون فى متناوله فامسك ذراعى أبيه بكتا يديه ودفعه دفعة قوية هذه المرة فارتد عم عبد البر مترنحا يتساند على الهواء .

ثم خرج صالح وانطلق يجرى، وعم عبد البر يجرى وراءه ممسكا بالمطواة، والخالة منتهى من خلفهما ترقع بالصوت الحيانى، وكل بناتها من ورائهم كبط مذعور يتقافز متصادما وقد انخرطن فى ولولة وصوات . أما الصبيان الصغار فقد واصلوا الجرى بسرعة خلف أمهم حتى غابوا جميعا فى شارع معروف وتباعدت أصواتهم كأنها غطست فى جب .

ظل صالح يجرى على مهل ليغرى اباه فيستدرج للجرى وراءه . قاد مهرجان الجرى بالمطواة وبالصوات حتى مبنى قسم شرطة قصر النيل ، فاقتحمه داخلا. الرجل الطُربش أخذته جلالة الجرى وراء ولده أينما ذهب ، فاقتحم وراءه قسم الشرطة شاهرا المطواة ، فلما فوجىء بأنه فى مكتب رئيس المباحث شخصيا ، وبابنه يقدم له الكرباج ، إرتج عليه ، لم يدر ماذا يفعل ، فبقى واقفاً والمطواة فى قبضته يتلفت حواليه مندهشا من صوات زوجه الواقفة بجواره تندب وتلطم خديها . وقف رئيس المباحث ، تقدم منه بهدوء ، أخذ المطواة من يده ، وضعها بجوار الكرباج ، نقل البصر بينهما فى استنكار ، وشبح صابر العسال قد راح يطل من

خلف الساتر الخشبى المستر يريد أن يعلن وجوده ولا يعلنه فى نفس الوقت ، كان فى الواقع منحازا لصالح وأمه بعد ماسمع وشاف بعينيه نذالة الرجل ووحشيته .

فتح صالح محضرا لأبيه ، اتهمه فيه بكل ماحدث ، لم يبالغ فى أى شىء ، لم يتلجلج ؛ حرارة صوته ختمت على المحضر بخاتم التصديق لأن رئيس المباحث استمع اليه جيدا وبشغف واهتمام لدرجة أنه كان يخرس الرجل كلما قاطع ابنه، انبهر رئيس المباحث بفطانة صالح وبطريقته فى الكلام لدرجة أنه كان يعيد ترديد عبارات صالح بشىء من الدهشة فوق الإعجاب ، بل إنه أملى على البلوكامين نص عبارات صالح بالحرف، اكتب : إساءة استعمال سلاح حكومى فى تعذيب عياله وهذا هو الدليل خريطة من جسور منفوخة زرقاء على جسد صالح ، الشروع فى قتل ابنه بمطواة مع الإصرار والترصد حتى اقتحم بها قسم الشرطة ذاته، التعدى بوحشية على المحامى والسياسى الكبير عبد المجيد بك العريان الموجود بالمستشفى بين الحياة والموت متأثرا بما ناله من كرابيج على الاذنين والعينين والقلب ويعتبر ابن الجانى شاهد عيان عليه . تم تحويل صالح الى الكشف الطبى ، واحتجزت النيابة عم عبد البر على ذمة التحقيق . خرج صالح من سراى النيابة إلى المستشفى الذى يرقد فيه عبدالمجيد بك العريان ليطمئن عليه . اتضح ان عبد المجيد بك كان مريضا بعدة امراض باطنة اوضحها السكر دون ان يعنى بأى تحليلات من قبل فلم تندمل جروحه ، سهر عليه فريق من الاطباء حتى انقذوه بمعجزة إلهية لكنه انهد وانطفأ ، لم يعد محتاجا لخادمة قدر احتياجه لطائفة من المرضات . لم يعد يتواجد فى مكتبه الا لزيارات خاطفة .

زهد صالح فى كل شىء من شدة حزنه على الرجل ، نعم ، إنسُدت نفسه . وانصدت ايضا – عن الاكل واللبس بل عن الدنيا كلها ، اطلق لحيته خاصم غيار الهدوم بل خاصم حتى الهدوم نفسها فلا يقبل ارتداءها إلا إذا كانت شبهه صدأة مزيتة . كان يبكى كثيرا جدا كلما انفرد بنفسه ، يطيل رفع العين والكفين الى

السماء ، يمشي في الشوارع بغير هدف الا قتل روح الحزن التي تلبسته ونكدت عليه عيشه، وكيل مكتب عبد المجيد بك عرض عليه أن يعينه ساعيا بالمكتب .

- «يعني آجي كل يوم بمعاد وامشي بمعاد ؟»

- «طبعا ! مش وظيفة ؟!» .

- «والبس بدلة السعاة ؟»

- «مش ضروري بدل ! بس هدوم نضيفه طبعا! » .

- «وتديني أوامر اني اعمل ده وما اعملش ده ؟!» .

- وتنفذها بالحرف!» .

- «يفتح الله» .

- «حتا خد ستة جنيه في الشهر بحالهم !» .

- «يمين المصحف انا ما اساوى تلاته مليم !» .

- «ليه ؟ ده انت جدع تساوى كتير!» .

- «المشكلة فيّ ! معدتش اطيق حد يحكمني! ولا لقمة العيش بذاتها ! لو أنت قبلت تدفع لي ماهية من غير ما اشتغل أنا ما اقبلش ! موتي وسمي اللي بيعيش سفلقه !» .

- «خلاص انت حر !» .

- «أنا بس لي خدمة عند حضرتك!» .

- «قول وخلصني!» .

- «الجلسة بتاعتي أنا وابويا قربت ! عايز واحد من الاساتيذ بتوع المكتب يحضر معايه !.

- «إطمئن القضية كلها عندنا طبيعي !» .

الاستاذ الذي حضر الجلسة مع صالح هيصبة درغمها على أبيه ، وصفه بأبشع الأوصاف ، عرى جسد صالح أمام القضاة ليريهم اثار الكرابيج سندا لتقرير الطبيب الشرعي ، اضاف في خطبة حماسية ان هذا الوحش الآدمي هو

نفسه الذى اعتدى على عبد المجيد بك وأنه قد آن الأوان لمحو عار الانسانية باستئصال هذه الوحوش التى تستخدم لتعذيب الأبرياء .

حكمت المحكمة على عم عبد البر بست سنوات اشغالا شاقة فى القضيتين ، وفصله من الخدمة نهائيا . جن جنون صالح، هو فى الحق برغم حقده الدفين على أبيه – لم يكن يطلب له هذه النهاية الفاجعة . راح يجرى وينطرش ، يقع فى عرض المحامين فرفعوا له دعوى استئناف لكن الاستئناف زود مدة العقوبة عاما – سيق عم عبد البر إلى السجن – صودر الكرباج بالفعل كما توعده صالح، انهد كيان الأسرة تماما، سرحت الولية تبيع الخضار المضروب تارة، وتارة أخرى تشتغل دلالة ، وغسالة فى البيوت ، إلى أن تمكنت بشق النفس من تزويج اربع بنات لأربعة من فواعلية الصعيد أمثال حكيم قبل أن يستقر فى الغرزة .

كل ذلك وصالح هائم على وجهه فى شوارع معروف وغرزه يدرب نفسه على أعظم لعبة فى نظره يجب أن يتعلمها كل شخص محترم ، تلك هى لعبة الاستغناء ، أن تدرب جسدك بالقوة الجبرية على ألا يطلب شيئا على الإطلاق ، أن تدرب نفسك تلك التى وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها أمارة بالسوء على ألا تأمرك بأى شىء بل أنت الذى يأمرها ويقهرها على التنفيذ .

كان يقول كلاما كهذا لصابر مما يعشش فى دماغه العفريت من كلام كثير مبهر لم يسمعوه من غيره من قبل . صار صابر العسال كلما أتاه اليقين بأن صالح مجنون من غير فصال تلطشه كلمة من كلماته فتلوحه ، تدوخه اولا باعتبارها كلمة غريبة صادمة لكن ما تلبث حتى تتشعلق بدماغه وهو يحشش تروح تقلب نفسها علي وهج النار فإذا هى كلمة معقولة للغاية فيها اكمل معانى الحكمة ، لكن – هكذا يتساءل صابر – من هو الجبار الذى يستطيع تحويل هذه الكلمة الكبيرة إلى فعل . مع ذلك فإن صالح يفعل ما يقول فى مرة حضر صلاة الجمعة فى جامع الشيخ معروف ، بعد الصلاة استوقف الإمام امام المصلين قائلا:

– «عدم المؤاخذة يامولانا لما تعمل انت الأول بالنصايح اللى وجعت بيها دماغنا ساعة ونص تبقى تيجى توعظنا ! تقدر تقول لى ايه معنى إنك النهاردة عمال تخوفنا من عذاب القبر على السارق ! وأنا بعينى دى شايفك ليلة امبارح بتاخد بقية الجنيه من عزوز البقال من غير ما تديله الجنيه اللى أنا شايفه مطوى بين صوابعك وانت عمال تقاوح فيه وتقول له إديتك الجنيه بأمارة كذا وكذا !! يا راجل فضوها سيرة بقى واتقوا الله فينا !!» .

لحظتها تسمر الجميع فى وقفتهم ذاهلين ، صم بكم عمى فهم لاينطقون ، بهت الخطيب وارتبك ولم يعرف للرد سبيلا فانحنى يتخطى عتبة الجامع وراء حذائه اما صالح فقد اطلق هديرا من الضحك الرائق النشوان فيما هو يربت على ظهر الخطيب بيد حانية هامسا فى أذنه :

– « ولا يهمك : بس تانى مرة ماتعملهاش وخليك فاكر ان ربنا بيشوفنا بعنينا احنا يعنى لازم يحط لك واحد زى حالاتى يشوفك ومادام شافك اصول يبلغك مع إنه واجب يمنعك !» .

والخطيب لا يقوى على رفع وجهه إليه ، فما كاد يشتبك قدميه فى فردتى الحذاء حتى اندفع مهرولا ليختفى فى أقرب حارة .

يوم طلب صالح للتجنيد كان صابر العسال فى عداد الهاربين من الفرز الاولى . كان صابر يعرف أنه مقبول مقبول ولذلك لم يذهب . لم يتمكنوا من الامساك به لأنه يعيش بأسماء متعددة ومدونة كلها فى محاضر رسمية لمواقف كثيرة تردد بشأنها كثيرا على اقسام الشرطة . هو الآن نادم اشد الندم فلو كانت الامور قد سارت على طبيعتها لكان زمانه الآن احد عساكر البوليس. اما صالح فقد تم تجنيده ، لعدة سنوات فى سلاح الخدمات الطبية ؛ لا أحد منهما يعرف عن الآخر شيئا طوال تلك المدة ، إلا أنه كان دائما يهف على مزاج صابر وكل ابناء الحارة، يتذكرون نوادره ومأثوراته فيهتفون ضاحكين : الله يمسيك بالخير يا صالح .

المقطوش

فى ذلك اليوم ذهبت وحدى إلى الغرزة مبكرا جدا على غير العادة، حوالى الساعة الثامنة صباحا . كان حي معروف نصف هامد ؛ هناك بيوت كثيرة تكون بالكاد – فى هذه الحصة – قد غطت فى النوم بعد جهود مضنية طوال الليل فى الغرز والسوق والمقاهى وعربات الكباب والكبدة والكشرى . أما الموظفون بجميع مستوياتهم فإنهم يهرولون بعيون مطبقة ذابلة الجفون . يتسلم المقاهى عمال جدد لوردية جديدة ؛ تنتشر عربات الفول المدمس على امتداد شارع الأنتيكخانة وشارع شامبليون وشارع معروف تملأ الجو برائحة صباحية عبقة ؛ يلعلع القرآن الكريم فى راديوهات كثيرة بصوت الشيخ الحصرى فى المصحف المرتل ؛ القعدة الآن على مصطبة حكيم فى لحظة عبقرية كهذه يمكن أن تصنع دماغا يشفى بالعمران .

مع ذلك لم يكن هذا هو هدفى من هذه الزيارة المبكرة وبمفردى . إنما كان هدفى الحقيقى هو الاختلاء بصالح هيصة فى هذه الحصة حيث لازبائن لا ضجيج لا حكيم نفسه ، لا أحد سواه إذ هو يحب التبكير فى تخليص المقطوعية حتى يتحرر فى الليل ويجلس كزبون مثل خلق الله . لقد أصبحت أنا الآخر مضروبا بصالح هيصة ؛ أصبح اهتمامى يفوق اهتمام كل أعضاء الشلة ؛ حيث لاح لى أن كل واحد من أعضاء الشلة مربوط فى صالح هيصة بحبل ما ، من المؤكد أنه يختلف عن بقية الحبال التى تربط الآخرين به ؛ أقصد ثمة قرابة معينة من صالح هيصة ! إستشعرها كل واحد فى نفسه فبات حجم الارتباط بعمق الإحساس بهذه القرابة فى كل منهم . أما وقد أمسكت بالحبل الذى يربطنى بشخصه وهو حبل يلخصه حبى للتأمل المحض ، المتفاعل مع ما يراه ويستكشفه إذ ربما يكون فى داخل هذه الشخصية الإنسانية البدائية قيمة لعلها تستحق الاحترام والتقدير

والكشف والتطوير ، فيبقى إذن أن أمسك ببقية الحبال، أن أعرف السر الحقيقى الكامن وراء علاقة كل منهم بصالح هيصة وهى من المؤكد أنها كلها نفسية روحية إلا أنها لاشك مختلفة الأسباب ، ولابد أيضا أنها أسباب قوية أدت إلى أن يشتركوا جميعا فى هذا الولع به إلى حد الافتتان ؛ سيما وأن عددا كبيرا من أعضاء الشلة يميل كل واحد منهم إلى الاعتقاد الجازم بأن علاقته بصالح هيصة هى الأمتن والأخلص والأكثر ودا وحميمية . وهكذا وجدتنى متورطا فى جميع هذه العلاقات بشكل أو بآخر بمستوى أو بآخر ؛ أصبحت جزءا من التجربة ورقيبا عليها فى نفس الوقت . وإذن فإذا لم أنجح فى إدراك كنه الأطراف الأخرى المشاركة فمن المؤكد أننى على الأقل سأنجح – بواسطتهم طبعا – فى معرفة بعض خفايا نفسى .

من حسن حظى وجدت صالح هيصة بارشا فوق الجوال فى الركن ، يرتدى فانلة بحمالات وسروالا من الدبلان شكلهما كالح لكن سواد فخذيه وساقيه وذراعيه وكتفيه وصدره جعلهما يبدوان فى غاية النظافة والبياض . بجواره كوب شاى يتصاعد منه الدخان ؛ وقد شرع – بعيون مغشلقة – يكحت قلب الحجارة بطرف سكينة سفرة قديمة . وكنت – مدفوعا برغبة فى مشاركة حياتية شعورية – قد أحضرت معى لفة من شرائح الخبز البلدى الطازج محشوة بالفول والطعمية والباذنجان مع قرطاس من الطرشى وشرش بصل أخضر ، عاملا حساب صالح الذى سأدعوه بإصرار لنفطر معا . فلما وجدت الشاى أمامه اغتظت ، لكنى مع ذلك هتفت به فى أخوية :

– «فطرت ولا لسه يا صالح؟»

إبتسم فى دماثة :

– «أنا من غير مؤاخذة ما بافطرش!»

– «ولا تتغدى؟»

ضحكة قصيرة مقطومة :

– «ماليش أنا ف هيصة المواعيد مع الأكل !»

– «طب ما تجابر الزاد ؟ شجعني!»

– «ما أعملش حاجة ماليش مزاج أعملها لو انطبقت السما !»

– «وحتجوع إمتى طيب؟!»

– «لولا الهيصة عمرى ما أجوع!»

– «يعنى الهيصة هى الوحيدة اللى تجوعك؟!»

– «أبدا ! باكل عشان أفرش أرض للسبرتو بس!»

– «الجوع صحة على كل حال!»

– «الجوع ستره ! والشبع فضيحة»

– «بمعنى ؟!»

– « اللى واخد ع الشبع يعمل فضايح لو الأكل أتأخر عنه طقة واحدة ! ما بيسرقناش غير اللى سرعهم الشبع وخايفين ليروح منهم !! ربنا يكفينا ويكفيك شر البطن ! الجدع هو اللى يعمل زى أنا ما عملت !»

– «وعملت إيه أنت ؟»

– «أدبت بطنى ! علمتها ما تطلبش أى طلب ! أنا بس اللى أديها اللى أنا عاوزه وقت مانا عايز ! فيه فيه ما فيش ما فيش تنام وهى أقل من الجزمة القديمة!! إنما عشان تستعمل معايه أمور الحيوانية بتاعتها وتنغزنى عشان أروح أذل نفسى واتطافس على غيرى ملعون أبوها !»

أعترف أننى زهدت الأكل الذى أتيت به مع أننى أثناء شرائى له كنت أحاول إيقاف سيل لعابى . الآن تهفو نفسى إلى كوب من الشاى . كان صالح قد جهز لى طاقمين من الحجارة وضعهما على مقربة منى فى انتظار أن أوقع عليها ببصمة الحشيش ؛ فلما رآنى لا أفعل سألنى بصوت دافىء :

– «ممعكش حشيش؟»

– «لا والله يا صالح!»

- «أروح اشترى لك !»

لاحظت أن حماستى لشراء الحشيش قد فترت هى الأخرى . دار فى ذهنى ما قاله صالح منذ هنيهة من أنه يقهر بطنه ومزاجه وجسده حتى لا يترك أية فرصة لأى شىء يستعبده أو يجرح كرامته أو يمس كبرياءه ، حتى الهيصة لا يعملها تحت قهر الإدمان بل يعملها لأنه راغب فى عملها وفى كثير من الأيام لا يرغب فى عملها فلا يعملها . داهمنى سؤال بارق حارق : إذا كان هو قد استغنى عن الطعام والسرير فأين أنت من قوته الجبارة لتستطيع تبطيل الحشيش فحسب ؟!

إلا أنه كان قد وقف بجوارى مادا يده ؛ ولأول مرة فى حياتى أشعر بمرارة الاستسلام المقيت وأنا أعطيه ثمن الحشيش .

بقيت فى الغرزة وحدى شاردا عما حولى ؛ كلمات صالح هيصة تروح وتجىء أمام ناظرى تريد أن تشد انتباهى تلفت نظرى أكثر ؛ أعطيها اهتمامى برهة وأتجاهلها برهات ، معتبرا إياها مجرد بوارق مدوية كصواريخ اللعب كبمب الأطفال يفرقع يزعج لكنه غير ذى خطر ؛ ولكى أتقيها وأبعدها تماما عن الشريط الحساس فى مخى حتى لا تلتصق به كما التصقت بأمخاخ أصدقائى الذين يجدون فيها نوعا من بكارة الحكمة وبداوة الدهشة الأولى ، قلت لنفسى إن معنى كلمة العقل تظهر ضرورتها فى مثل هذه الحالة على وجه التحديد حيث إنها تعنى اعتقال الإنسان لأفكاره الجامحة وضبط سلوكه على إيقاع السلوك العام بحيث يكون المرء متماهيا مع عقلية الجماعة ؛ فالعقل إذن تبنيه الجماعة ، ثم هى نفسها تصبح جلاده فتقمعه وتفرض عليه تخلفها وجمودها حتى تطق أجنابه ، ويصبح الكثيرون منا شغوفين بمن ينوب عنهم فى تكسير القيود بجميع أنواعها فى محاولة للإنعتاق من أى تسلط . ولكن ما هذا السرحان حتى قبل أن أشرب حجرا واحدا؟! .. اقتحمنى صوت صالح هيصة يزغرد فى أذنى بكلمته الأثيرة :

- «ربنا خلق الدنيا هيصة!! وخلق فيها بنى آدم هيصة !! بيعمل هيصة !! وكل واحد فى هيصة!! عشان يلحق الهيصة!! ويا يلحق يا ميلحقش!! وكلهم كحيانين !

بس كل واحد كحيان بطريقته ! وأنا ملك الكحيانين ! عشان كحيان بكل الطرق!!»

شد انتباهي ظل ممدود على الأرض يقترب ؛ رفعت رأسي ؛ فوجئت بصديقي الحميم قمر المحروقي واقفا أمامي يضحك ضحكة رائقة تكاد تكون صورة طبق الأصل من ضحكة صالح هيصة المتلاحقة الأهـأهـات في مقاطع متتالية تنتهي بصيحة ممطوطة مرحة نشوانة تتكيء على الحروف تبرزها تلحنها : إلـ .. حا .. ا .. ق ؛ ولا أحد يدري ما المقصود بكلمة إلحق هذه ؛ لقد ابتدعها صالح هيصة فهل يقصد بها اللحاق بالهيصة مثلا ؟ أم أنها مجرد إيقاع مستعار لكلمة : إنتبه؟ أياما كان الأمر فإن الولع بتقليد هذه الضحكة بصيحتها تلك صرف أذهاننا عن المعنى المقصود منها .

رفعت رأسي لأعلا محاولا الإلمام بقامة قمر الطويلة برأسه الدقيق كرأس الهدهد ، وملامحه المسمسمة وخديه الغائرين وسمته الطيب الصبوح المبهج حين يضحك . كان يرتدي سترة سوداء على قميص سمني اللون بياقة مفتوحة دون رباط عنق ، وبنطلون من صوف الفانلة الرمادي ، بيده ملف من ورق مقوى مطبوع عليه اسم الجامعة الامريكية ، يحتوي على كراسة ونسخة من كتاب إنجليزي سمعت أنه ينوي ترجمته الى العربية ، تهجيت عنوانه بصعوبة حتى لا أضطر لسؤاله عنه ؛ إنه كتاب : (إلى الجحيم بالثقافة) ؛ ولأن هذا الكتاب كان شهيرا آنذاك فإنني استطعت قراءة اسم مؤلفه «هربرت ريد» بسهولة . مشبوك في إحدى صفحاته قلم رصاص هندسي من النوع الذي تضغط على رأسه فيبرز سنه الرفيع جدا بالقدر الذي تطلبه . الواقع أن قمر المحروقي مفتون - إلى جانب افتتانه بهذه النوعية من الكتب المتطرفة - بالأشياء الأنيقة الثمينة ؛ دائما أبدا ترئ معه أفخم أنواع الأقلام العالمية الماركات كالباركر والشيفر والتروين ، والولاعات الرونسون ، والنظارات البيرسول ، والخواتم الفضية ذات الأحجار الكريمة ، والحقائب الجلدية المبهرة بأحجامها المختلفة ، محفظة نقود من جلد الغزال . طول عمره هكذا جميل

يحب الجمال إلا أنه سريع التفريط فى كل هذه الأشياء والتنازل عنها للغير بكل أريحية وبساطة مهما كانت ثمينة ونادرة ؛ سرعان ما تبهجه الأشياء ؛ سرعان ما يزهدها ..

تأبط الملف مصفقا بيديه الطويلتين مرددا فى بهجة وانشراح :

- «كسبنا صلاة النبى ! نهارنا فل بإذن الله !»

ثم جلس بجوارى على المصطبة حيث تقاربت رأسه من رأسى ليقبل كل منا صدغ الآخر كأننا نشرب نخب هذا الصباح الجميل غير المتوقع . لمح طاقم الحجارة المرصوصة بالمعسل موضوعا أمامى على قعر صفيحة مقلوبة ؛ ففهم، تلقائيا أننى بعثت فى شراء حشيش ؛ فمد أصابعه الطويلة المتكسرة كأرجل الأخطبوط إلى الجيب السحرى فى أسفل بطانة السترة من الداخل ؛ سحب قطعة الحشيش المبرومة كعقلة الأصبع شكلها مبهج ومريح بلونها الزيتى الغامق . قمر ، لشدة سخائه وقنافته لا يقتطع بأسنانه بل يعترض على هذه العادة القبيحة لأنها تكرف التعميرة برائحة اللعاب فتفسد نكهتها ؛ إنما هو يقتطع بأظافره النظيفة دائما ؛ ولهذا فتعميراته دائما كبيرة سميكة مفرودة تغطى المعسل كله ؛ قال وهو يبصم :

- «مفيش حد هنا طبعا!»

- «مفيش غير صالح!»

- «الوحيد اللى يقدر يصحى أم يحيى ف ساعة زى دى !»

- والوحيد اللى كلب أم يحيى مصاحبه !»

- « لا تعرف أن صالح هيصة ده ف نظرى من المناطقة؟»

- «المناطقة؟!»

- «منطقه جايز ما يركبش مع الناس! اللى يسمعه يفتكره مجنون! لكن لو فصصت كلامه ودخلت جواه حته حته وفهمته حتكتشف إن إحنا اللى منطقنا أعوج ومنطقه هو مستقيم!!»

هب واقفا ؛ مضى نحو الجوزات فانتقى أحلاها ؛ أمال بوصتها على الأرض فانسربت المياه فى خيط تخين ، صار يخطط بالماء على الأرض حروفا هجائية بالخط الثلث الكبير ، تابعتها فإذا هى عبارة : يا صباح القشطة . بحركة رشيقة ملأ الكوز من الزير وعبأ الجوزة ثم شدَّ منها أنفاسا متقطعة يتخللها نفخ للماء الزائد حتى انضبط صوتها ؛ ركنها بحذاء المصطبة وعرج على منقد النار الذى كان على وشك الخمود ؛ بالماشة الكبيرة سحب جمرة متقدة كالرمانة ، وضعها فى الطاسة، برأس الشاكوش الحديد فركها ، أفرغها فى المصفاة جعل يهزها بحرفنة حتى تخلصت من التراب وتوهجت ؛ ثم جلس ممسكا بالجوزة مائلا نحوى مقربا طرف البوصة من فمى بابتسامة غاية فى العذوبة ودسم المشاعر الطيبة :

- «صباح الفل!»

بامتنان شديد أمسكت طرف البوصة وضعته فى فمى بديلا عن قيامى لاحتضان قمر وتقبيله ؛ رحت أشرب فى انتعاش وتفاؤل . حينئذ، وفى تلك اللحظة فحسب ، طقت الفكرة فى رأسى صارت كأنها التعميرة تحت النار الحمصية تطشطش تتوهج تشيع فى رأسى نكهة عبقة وإشراقة منعشة ؛ من فرط سرورى بها تساءلت بينى وبين نفسى : كيف لم أنتبه إليها من قبل ؟! .. ذلك أننى قد تبينت دون بحث أو مقارنة أن صديقى الحميم جدا قمر المحروقى هذا الذى أعرفه منذ ما يزيد على عشر سنوات معرفة عميقة كاملة هو فى الواقع نسخة نظيفة المظهر من صالح هيصة ، النسخة التى تعلمت تعليما عاليا وعاشرت نخبا عديدة من المثقفين بغض النظر - مؤقتا على الأقل - عما إذا كان التعليم قد طورها أم زورها ، أصلحها أم أفسدها . فى الحال راح دماغى يركض خلف هذا الاكتشاف بحماسة مفعمة بالحرارة ؛ لقد نفيت من حسابى كون قمر المحروقى نبهنى الى هذا لمجرد أنه مارس الآن عمل الغرزجى بحرفنة ودون أى حرج ومن هنا يجىء وجه الشبه بينه وصالح هيصة ؛ لا ، على الإطلاق ، فأنا نفسى أقوم بهذا الفعل لأسقى قمر فى مثل هذه اللحظات الأخوية الحميمة النادرة ؛ إنما وجدتنى أتساءل

هل كان ذلك من قبيل التأثر الى حد التماهى ؟ أم أن قمر المحروقى من نفس قماشة صالح هيصة بالطبيعة والسليقة ؟

حجر وراء حجر من يد قمر المحروقى فى أحلا اصطباحة نلتها ؛ وقمر المحروقى يتأرجح فى ناظرى ؛ يتفكك ويتجمع ليعود فيتفكك ليتجمع مرة أخرى؛ يتناسخ يتعدد فى صور مختلفة الأحجام والألوان منذ أن رأيته أول مرة فى حياتى فى حى الزمالك على مقهى البرابرة ذات صبحية مشرقة كهذه بالضبط . وسيلة التعارف بيننا كانت هى الكتاب ؛ إذ رآنى منخرطا فى قراءة كتاب كبير ؛ وكانت المقهى ملآنة بالكراسى الشاغرة فى جميع الأركان والزوايا حينما دخل هو متأبطا ملفا جلديا يطل منه رأس مثلث من الباغة أصفر اللون ؛ لكنه تجاوز كل الكراسى الشاغرة وانحاز لمنضدتى كأننى كنت فى انتظاره . سلام عليكم ، عليكم السلام ، عن إذنك ؟ تفضل . عدل الكرسى المقابل وجلس ، طلب شايا بالحليب ، راح يتصفح مجلة صباح الخير لكن نظراته لاتنى تتابعنى بشغف ؛ فما صدق أن التقت نظراتنا حتى عاجلنى بابتسامة كالبلسم الشافى من فرط ما فيها من ود ؛ أشار الى الكتاب المفرود أمامى :

– «رواية الحرب والسلام؟»

أدهشنى أنه عرفها دون أن يرى غلافها :

– «إيش عرفك ؟!»

– «الطبعة دى نفسها قريتها أكثر من مرة ! بس مع الأسف أن دار الفكر ما نشرتش غير جزءين اتنين بس ! لأن إدوار الخراط ما ترجمش غيرهم ! بس أنا سمعت أن الدكتور سامى الدروبى تعرفه ؟ كاتب سورى ! مترجمها كلها ! اللى قروها قالوا إنها أحسن من ترجمة إدوار ! لأن الدروبى قدر يترجم أسلوب تولستوى نفسه لكن إدوار ترجم بأسلوبه هو يعنى أنت دلوقت بتقرا إدوار حيطان عاليه مش تولستوى !!»

عرفت أنه طالب بكلية الفنون التطبيقية ، وأنه يحاول كتابة رواية لكن محاولاته لا تعجبه ولا ترضيه فيمزقها ويريح دماغه إلا أنه مؤخرا بدأ يكتب رواية

استوحاها من حياة الممثلة نجلاء فتحى حيث قدر له أن يرى الكثير من جوانبها وأن يراها عن قرب ويكشف فيها قيما إيجابية تغرى بالكتابة ولهذا يتعشم أن تكون المحاولة جادة هذه المرة . فى المقابل عرف أننى ملتحق ببلاط صاحبة الجلالة، الصحافة حديثا ؛ لم أعين بعد فى أى مكان وإنما عندى وعود مؤكدة بتحقيق هذا قريبا فى جريدة الجمهورية التى أتمرن بها ؛ وأننى مثله صاحب محاولات فى كتابة القصة القصيرة غير أننى نشرت بعضها فى الملحق الأدبى لجريدة صوت العروبة ؛ قال وما صوت العروبة هذه ؟ قلت إنها جريدة كلشنكان يديرها رجل أعرفه ليملأها بالاعلانات التحريرية التى يكلفنى بصياغتها مقابل نشر قصتى بجوارها .

فى ذلك اللقاء شربنا شايا ثانيا وثالثا ، ودخنا نصف علبة سجائر كبيرة ، وأصر هو على دفع الحساب ؛ وتواعدنا على لقاء صباح الغد مباشرة . كل منا كان يضمر للآخر نفس المفاجأة ؛ وكنت أنا البادىء تكريما له على جدعنته أمس :

– «أنا حاسس إنك حشاش قرارى ! وعاوز أعزمك على حجرين حشيش!»

انفجر ضاحكا ؛ قال إنه جاء اليوم خصيصا ليعزمنى نفس العزومة . قلت إذن فهيا نعزم بعضنا . بتخريمة قصيرة صرنا فى قلب حوارى بولاق أبو العلا . الحى كله عبارة عن مجمع للغرز على أشكال ومستويات ؛ من الغرزة العشة إلى الغرزة المقهى الى الغرزة البيت يعنى شقة سكنية يخدمك أصحابها على أكمل وجه ترضاه لكنها مرتفعة التكاليف إذ هى متميزة بكونها مسكناً يصعب على الشرطة اقتحامه إلا بإذن من النيابة ما أن يتم استصداره حتى يكون الخبر قد وصل إلى علم صاحب الشقة فيحتاط . تجار الحشيش لا حصر لهم ، تلتقيهم فى كل غرزة، ويا حبذا لو كان صاحب الغرزة هو نفسه تاجر الحشيش لأنك حينئذ ستضمن تعميرة نقية ويقف صاحبها أمام عينيك مستعدا لتحمل مسئوليتها فى أية لحظة .

يومذاك رأى كل منا الآخر رؤية دقيقة ؛ دخل كل منا فى وجدان الآخر وعقله وتفاصيل حياته . حكيت له عن أهلى فى ريف الفؤادية ، وعن أبى السياسى

الشاعر المطحون بكثرة العيال والكهولة وضعف البصر . وحكى لى عن أهله فى ريف المنصورة ، عن أمه الغاضبة من أفكاره من عدم امتثاله لرغبتها فى أن يدرس الطب ، عن حالة الطبيب الشاعر الشهير . منذ ذلك اللقاء لم تنقطع لقاءاتنا يوميا على امتداد السنوات الفائتة حتى عند الزعل من بعضنا لأى سبب كنا لابد أن نلتقى لا لشىء إلا لكى يعبر الواحد منا عن زعله من الآخر بشكل عملى أحلا ما فيه صبيانيته الطريفة .

الآن فحسب أنه طول عمره غريب الأطوار ، على الأقل فى نظر من لا يعرفونه جيدا ولا يفهمونه حق الفهم . ذات يوم زار كليته أحد أهم المسئولين عن منظمة الشباب ليجرى حوارا مع طلبة الكلية . ورغم أن قمر كان - على الورق فحسب - عضو بهذه المنظمة شأن معظم الشباب فإنه طلب الكلمة ، أعطيت له ، فإذا هو يرتجل خطبة عصماء يهجم فيها على هذه المنظمة هجوما غاية فى الشراسة؛ أبسط ما قاله فى خطبته إن هذه المنظمة ليست فى حقيقة أمرها سوى طابور خامس مهمته الدفاع عن الثورة ضد جماهير الشعب مع أن الشعب هو الحامى الحقيقى للثورة . لم يكن هذا المسئول - ولا أحد غيره فى الواقع - يتوقع مثل هذا الكلام المباغت فى مثل هذه المناسبة . ذُهل الرجل ، إصفر لونه ، إزرقت شفته السفلى ؛ لكنه ببرود الأقوياء المدربين على توريط المتكلم فى مزيد من الغلط قال له بعد أن زام زومة نفث فيها كل ما فى صدره من وعيد وتهديد : هيه ؟ وماذا أيضا؟ تكلم ! قل ما هو دليلك على هذا الإتهام الخطير ؟! . ولعله كان على علم تام بأن شخصية قمر المحروقى من النوع السريع الإستجابة للإستفزاز، وأن التهديد - من أية شخصية كانت - يدمر فى قفصه الصدرى كل تحفظ وتريث ؛ إذ إنبرى قائلا بجرأة يُحسد عليها إنه هو نفسه أوضح دليل على كلامه؛ إذ إنه أحد أعضاء المنظمة وقد نفر منها وانسلخ عنها لأن قياداته فلان وفلان وفلان يكلفونه بمتابعة أرهاط من الوطنيين الشرفاء وكتابة تقارير عن أدق خصوصيات حياتهم ، ولا يكتفون بهذا بل يلوحون له - فيما يشبه التوجيه الخبيث - أن هؤلاء المطلوب

التجسس عليهم من ألد أعداء الثورة يدبرون لها المكائد !! فإذا قال إنه يعرف هؤلاء الناس معرفة جيدة بحكم الجيرة أو التتلمذ عليهم إتهموه بأنه صغير السن ينقصه الوعى السياسى ؛ هم باختصار يصبغون نظرته للناس باللون الذى يعجبهم ؛ ولقد أوهموا الشباب بالأهمية والمشاركة فى السلطة حتى صار الواحد منهم يكتب التقارير السرية المفخخة الملغمة بالمصائب عن كل من لا يعجبهم من الناس ، فكانت الكارثة مزدوجة : الذين كتبوا التقارير تحولوا إلى جواسيس محترفين نوى نفوس عدوانية مشوهة تسقط تشوهاتها على الآخرين الأبرياء مما ساهم فى خلق توتر وروح عدائية خفية لدى الناس تجاه الثورة .. والذين تكتب عنهم التقارير تنخرب بيوتهم يُزج بهم فى السجون يطردون من مناصبهم .. الخ . يومها لم يقبضوا على قمر ؛ لكنه تعرض بعد ذلك لمتاعب مضنية ، تحقيقات وتهديدات بالفصل ؛ لقد تعرض للمداهمة فجرا وتفتيش مسكنه عدة مرات تم اقتياده الى الحبس فى كل مرة يمكث فيه عدة أسابيع أو شهور ثم يخرج شريدا ضائقا حتى أربكوه تماما ؛ حتى زملاؤه عزلوه ، خافوا من تطرفه ، تجنبوه ، كادوا يوصلونه الى حد الجنون لولا أنه قاوم الجنون بالسخرية والحشيش ومع ذلك أورثوه جرحا لا يندمل ، حيث ظل دائما أبدا يشعر أنه مستهدف للعزل ، فكان – فى كثير من الأحيان – يبادر بعزل نفسه حماية لكبريائه ؛ وفى بعض الأحيان تتسلط عليه الرغبة فى العزلة حتى عن أصدقائه المقربين إلا أن هذا لم يكن يحدث إلا إذا راوده الإحساس بأنه غير مفهوم ، يكفى أن يستشعر فى حديثك معه شبهة أنه غامض عليك ، أو أنك لست تفهمه جيدا ، أو لديك ذرة شك واحدة فى شىء يقوله ؛ لكن الواقع أن هذه «القمصة» لا تطول أكثر من يومين يعود بعدهما إلى مرحه وانطلاقه وترحيبه المفتوح .

حادث المنظمة أربك حياته لخبط غزله إلا أنه كان عنيدا شديد الصلابة راغبا فى التحدى ، بل كان فى التحدى تحقيق لذاته . جاء عليه وقت أصبح يستهين فيه بكل شىء، يتساوى عنده كل شىء بكل شىء، الموت بالحياة، السجن بالحرية ،

الرسوب بالتقدم ، النجاح بالفشل ، كله محصل بعضه فى بلدنا ؛ أصبح قليل الثقة فى كافة المثقفين والسياسيين بجميع فصائلهم ؛ هؤلاء وأولئك ينظر إليهم بكثير من الإستعلاء والرفض المطلق لكل ما يمثلونه ويدعون إليه . أصبح عدميا صرفا ، اعتادت نظراته على الشرود والتوهان لدقائق طويلة يشعر مرافقه خلالها أنه تركه وسافر إلى بعيد ؛ حتى إذا ما عادت نظراته إليك لمحت فيها ظلا من الإستهانة واللامبالاة ، بات عصبيا ، سريع التوتر ، سريع الغضب ، متحفزا دائما للرد على عدوان مجهول يتوقعه فى كل لحظة فى كل مكان ؛ سيما بعد أن تخرج وحيل بينه وأى وظيفة حكومية .

اهتدى الى عمل فى مكتب هندسى للإنشاءات المعمارية ؛ يقوم بتنفيذ الخرائط والتصميمات والماكيتات التى يضعها كبار المهندسين ؛ سرعان ما تلونت حياته كلها بصبغة هذا العمل ؛ صار يحمل حقيبة «هاندباج» من الجلد الفاخر ذات جيوب متعددة يضع فيها أغراضا كثيرة ؛ إذ هو بات سواحا لا يستقر فى مسكنه طويلا ؛ وفى الحقيبة جيوب لا تُفتح مطلقا إلا فى أندر اللحظات اتقاءً للحرج من محتوياتها التى تتنوع من لفائف طعام سوقى إلى قمصان وجوارب وملابس داخلية ؛ أما بقية الجيوب فحافلة بأوراق الرسم والورق النشاف والشفاف والمساطر والمثلثات والأقلام بجميع أنواعها وألوانها . فإذا تكلمت معه فى شىء ، فى أى أمر من الأمور ، بادرت أصابعه الطويلة بفتح جيب فى الحقيبة واستخراج النوتة الأنيقة بورقها الفاخر، والقلم، ليرسم لك خريطة توضيحية لنقاط «القضية» وأبعادها ، لتحديد مسار المناقشة ، لموقع محل يبيع شيئا، لوجه صالح هيصة .. الخ . وإذا أراد أن يحسب حسبة نقدية رسم خريطة لحركة الفلوس واتجاهاتها . وإذا امتدحت تعميرته رسم لك خريطة إنتاجها فى الحقل وقدومها من لبنان رأسا. كما أن حديثه يمتلىء بالمقاييس والخطوط ونقط الإرتكاز وتساوى الأضلاع وما إلى ذلك .

بقينا على ذلك شهوراً طويلة ؛ نقدمه لأصدقائنا الجدد باسم مهندس الإنشاءات قمر المحروقى . فإن يتصادف أن الصديق نفسه مهندس إنشاءات وتناقش مع قمر فى أية تفصيلات فإنه سوف ينبهر من غزارة معلوماته واتساع معارفه ؛ وأغلب الظن أن قمر سيسرح به فى موضوعات فرعية شائقة تلهيه عن متابعة النقاش الجاد لبرهة إلى أن تتكفل التعميرة بصرفه عن الموضوع نهائيا . إلى أن فوجئنا به ذات يوم وقد طرأ على مظهره تغير ملحوظ ؛ خلع السترة والقميص الأفرنجي وارتدى البنطلون الجينز الأمريكانى مع فانلة من الصوف بياقة مفتوحة راقدة الطرفين على الصدر ، ومن فوقها بلوفر تخين بوبرة ، يستبدله أحيانا بجاكيت شمواه رمادى اللون . صار منظره مفرطا فى الأناقة . ثم إن الحقيبة صغرت إلى ربع حجمها وإن كانت هى نفسها ؛ فلما راجعناها كشف لنا سرها ؛ إنها بنت الحقيبة الكبيرة غير أننا لغفلتنا التى لا نحب أن نعترف بها لم نلاحظ أن حقيبته الكبيرة كانت أربع حقائب مختلفة الأحجام مربوطة فى بعضها بكبسولات خفية تسهيلا لمستخدمها فى سد جميع احتياجاته التنقلية . اللافت للنظر أكثر أن قاموسه فى الحديث إتسع لمفردات جديدة سرعان ما أصبح لها السيطرة . مع ذلك لم نستنتج منها أنه ترك مكتب الإنشاءات واشتغل فى شركة لاستصلاح الأراضى فى مقرها المركزى فى مصر الجديدة وهى شركة ألمانية تعمل بأسلوب الامتيازات . بدأت قعداتنا اليومية تستوعب مفردات سيارة دارجة كالطفلة والخصوبة والجفاف والتصحر والغمر والتنقيط ، والهندسة الوراثية ، والفواكه الملقحة بفواكه أخرى ، والصوبات . الطريف أن غرزة حكيم قد انتشرت فى أركانها طواجن وأصص مليئة بالتربة المروية تبزغ منها نباتات وأعواد خضراء لأنواع غريبة من الزهور والورود أتى قمر ببذرتها وتولى زراعتها والإشراف عليها كأنها عياله ؛ وامتدت شجرة لبلاب سريعة النمو طوقت حلق باب الغرزة من الداخل أسبغت على المصاطب والشبابيك أوراقا ناعسة تشاركنا الأنفاس وتتطفل على وجوهنا وأقفيتنا فنزيحها برفق وحرج مثلما نضطر لملاطفة طفل شقى سمج

فى حضور أبيه . اللافت للنظر أن صالح هيصة كان هو المنوط برعاية هذه النباتات فى غيبة قمر ، يسقيها بعناية وحب ويحنو عليها ، يمرر أصابعه برفق على كل عود ليختبر حالته ، يبدو عليه الحزن العميق إذا تبين أن هذا العود أو ذاك صحته «مش ولابد» أو أن هذا الفرع - يا حرام - لا تصل إليه المياه ؛ وذات مرة صرخ فى وجه حكيم وقذفه بحجر الجوزة لأنه كسر أصيصها ليصنع منه حصوات للحجارة مع أن الأصيص كان مشروخا ؛ وقبل أن يفتح حكيم حنكه ليحتج عاجله صالح :

- «بس يا كحيان ! فاكر نفسك معلم صاحب شغل؟! ده أنت بوزك شبه كوعك ياد ! عمل فيك إيه الطاجن ده علشان تكسره ؟! ما احنا قدامنا ميت حجر بايظين ينفعوا حصو للحجارة ! إنما أنت أصلك ما عندكش قلب ! ما تعرفش أن الحجر هو راخر بيتألم ؟! دا انا لما باشوف حجر انشرخ بازعل عليه ولولا الملامة أدهنه مرهم يخفف الوجع عنه ! وما يهونش علىّ أكسره ! لازم يتكسر لوحده عشان أرضى أعمله حصو !!»

لم يملك حكيم سوى الحملقة فيه بابتسامته المفتعلة وبوزه الشبيه ببوز النسناس .

على أن الاهتمام بأمر الزرع والنبات فى الغرزة قد راح يخفت شيئا فشيئا ؛ ليحل محله اهتمام بالأوانى الفخارية !! مثل الأصص والطواجن والأبرمة والأناجر وحتى حجارة الشيشة والجوزة . بدأت قعداتنا تتلون بحديث الفخاريات والخزفيات كفن راق ، إلى السيراميك . تفرعت مناقشاتنا إلى أصل الإنسان وكيف أن أبانا آدم تم صنعه من الفخار أساسا . ومناقشاتنا دائما مفتوحة على وسعها ؛ يشارك فيها صالح هيصة وحكيم وصابر وكل الجرابيع والمقاطيع الجالسين دائما فى انكسار الى بعيد كالمتهمين تحتجزهم شبكة وهمية تفصل بينهم وبيننا فى انتظار حجر يبعث به قمر إليهم موصيا إياهم بأن يترفقوا فى شربه ليكفيهم جميعا . فجأة يقول صالح إن قولة العلماء هذه الأيام بأن الإنسان أصله قرد قول صحيح

مائة فى المائة والدليل على ذلك وجه حكيم . فينظر إليه حكيم نظرة تشى بغمزة حراقة إذ يشير بيده خلف ظهره قائلا :

- «الله يرحم!!»

فتفهم أنه لابد يشير إلى وجوه إخوة صالح البنات ووجه أبيه وهى نسخ ناطقة من وجه الغوريلا . إلا أن صالح هيصة يتجاوز هذه الغمزة ضاحكا :

- «أصل الدنيا أول ما اتخلقت كانت هيصة ؟ كل المخاليق شبه بعضها !»

يكفهر وجه حكيم ؛ تعروه رعشة ، يشحب وجهه :

- «فضوها سيرة بقى!»

تنزوى الشلة على نفسها ، يعلو مستوى المناقشة ؛ لكنها لا تلبث حتى تخفت ثم تضمحل بقدوم وافد من الشلة على غير انتظار . فى العادة يجىء القادم ومعه موضوعه الذى نتكلم فيه فى الحال ؛ إن القادم دائما يحمل للقاعدين أخبارا تبدو طازجة . أحد القادمين ذات مرة هو الذى جاءنا بخبر كان جديدا بالنسبة لنا ، على ضوئه فهمنا سر استدراجنا فى الآونة الأخيرة إلى الحديث الدائم عن الفخاريات ؛ حيث علمنا من القادم الجديد أنه زميل لصديقنا المحروقى فى الشركة ، أى شركة ؟ شركة لوتس للأوانى الخزفية لها مصنع فى الفيوم ومكتب للإدارة المركزية فى الجيزة ومعرض فى وسط المدينة يحفل بأطقم أطباق السفرة والفناجين والأكواب والفازات الثمينة . فيما تلا ذلك من أيسام لاحظنا أن القريحة الإبتكارية عند قمر المحروقى فى حالة ناشطة ؛ كان يجلس ساعات طويلة وهو منكب على أوراق مشبوكة فى لوح من البلاستيك يسمى «البلانشيطه» ، حيث يخطط رسوما هندسية بالقلم الرصاص ذى السن الرفيع ، يكتب تحتها وحواليها أرقاما وملاحظات بالقلم الحبر الجاف ؛ ثم ينزع الورقة ليضعها فى ملف ، ويعيد الرسم بصورة أكثر تعقيدا بما يضيفه إليه من دوائر ومثلثات ومربعات حتى يبدو الرسم كمدينة تراكمت بيوتها تشابكت شوارعها تكومت فوق بعضها .

عبثا حاولنا معرفة كنه هذا الذى يرسمه قمر المحروقى بكل هذا الإنهماك والجدية والتكتم . لكننا بدأنا نلاحظ أنه بين الحين وآخر يأتى ومعه شاب جديد يقدمه لنا بالاسم فحسب ولكن فى نبرة من التفخيم كأنه يقدم نجما لا يحتاج إلى تعريف . إلا أن الذين قدمهم لنا - وكانوا ثلاثة - كانوا على درجة من اليسر والثراء واضحة فى أشكالهم وملابسهم ومستوى انفاقهم والأرقام النقدية الكبيرة التى تجرى على ألسنتهم ببساطة . ولما كنا نحن المصريين بوجه عام فى غير احتياج لمن يعرف بنا إذ إننا سرعان ما نتطوع بالتعريف بأنفسنا بشكل عملى مباشر؛ لذلك ما لبثنا حتى عرفنا طبيعة هؤلاء الذين بدأ قمر يصطحبهم إلى الغرزة واحدا بعد الآخر وأحيانا كلهم معا ..

شاب قصير القامة مدكوك الجسد، مكلبظ الوجه فى شىء من الوسامة واحمرار البشرة ، إسمه : وليد رشيد ؛ أصغر منا سنا بحوالى سبع سنوات ؛ طالب فى السنة النهائية بكلية التربية الرياضية لكنه مفتون بالغناء والتمثيل ويصر على أن صوته - هذا الضيق الكنز - سوف يحقق له شهرة فائقة فى عالم الطرب خلال السنوات القليلة القادمة . إنه يتيم الأب ، لكنه ورث قطعة أرض زراعية صغيرة . إلا أن حجم نفقاته ، والسيارة الملاكى الفيات الجديدة التى يركبها ، والملابس الفاخرة التى يرتديها كل ذلك يؤكد أنه يعتمد على مصدر مالى لا ينفد . ولقد سهل علينا التكهن حينما علمنا أنه من بلدة ميت رهينة ، وأنه يملك مصنعا لورق البردى فى نواحى الجيزة . هنا ملس طلعت الإمبابى على شاربه وقال إن هذا الشاب طالما أنه من ميت رهينة فمن المؤكد أن دارهم مقامة فوق جبانة أثرية، أيدناه جميعا سيما وأن قطعة الأرض الزراعية الصغيرة ومصنع البردى لا يمكن أن يحققا كل هذه الرفاهية الزاعقة لأسرة هو مجرد فرد فيها .

أما هذا الشاب الربعة القوام القمحى البشرة ذو الطابع البلدى الصرف حتى وإن لبس هذا الچاكيت الصوف ذى الياقة المشغول بإبرة التريكو ومن تحته اللاسة والقميص الثقيل على بنطلون من الصوف الهيلد الإنجليزى ؛ فإن اسمه : مرسى

خلاف . فى لهجته تطجين خفيف لطيف يعطى لكلامه نبرةً دافئة توحى بالثقة ؛ كريم مجامل ، حلو اللسان . قدمه لنا قمر تقديم الأعلام مكتفيا بالتنويه بأنه شقيق نُصحى خلاف الذى يدرس السينما فى ألمانيا منذ سنوات ويوشك أن يعود مخرجا كبيرا . كان من السهل معرفة أن مرسى خلاف الذى يلقب بالباشمهندس درس ميكانيكا السيارات غير أنه – حسب مستواه الواضح للعيان – لم ينل أكثر من دبلوم صنايع ؛ ومن الواضح أنه موظف بإدارة المرور فى إحدى وحدات التراخيص . هو سريع الإلتحام بالآخرين بموهبة يعجز عنها نصاب دولى كل همه وتركيزه أن يستحوذ على ثقتك فى دقائق معدودة ؛ لدرجة أنه فى أول لقاء بيننا أجرى فى القعدة عملية تنقلات تمت بسلاسة لكى يجلس بجوارى ، ليعرض علىّ فكرة تتلخص فى أنه ينوى إصدار كتاب إرشادى عن كيفية صيانة السيارات يكون عنوانه : (كيف تصلح سيارتك بنفسك) ، يشرح فيه تكوين محرك السيارة بالتفصيل وعلاقة كل جزء فيه بالآخر ، وجميع أنواع الأعطال وكيفية التوصل إلى العطل الأساسى مباشرة ثم كيفية إصلاحه دون الرجوع إلى ورشة ؛ لهذا فهو يطلب منى خدمة أخويه : أن أصيغ له هذا الكتاب صياغة بلاغية سهلة يفهمها كل الناس ؛ إلا أنه لفرط ذكائه وطيبة روحه أدرك من أول وهلة أن مبتغاه ليس عندى فانسحب فى هدوء دونما غضاضة .

بقى هذا الشاب الزعزوع ، ذو الشعر المتهدل على جبينه فى خصلة طفولية كثيفة من الجانب الأيسر . ملامحه كلها طفولية الى حد ما ؛ يتأنق فى ملبسه عن عمد ، بالقمصان المشجرة بألوانها الزاعقة أعلى صوتا من الذوق النسوانى القارح، والبنطلون الكاروهات بألوان فاقعة أيضا . اسمه : وجدى الوكيل ؛ تظنه لأول وهلة من عائلة زينب الوكيل زوجة النحاس باشا وهى عائلة كبيرة مهيبة ثرية غنية عن التعريف ؛ لكنك بعد دقائق معدودة من جلوسه معك ستنفى انتماءه لهذه العائلة ولأى عائلات على الإطلاق ؛ إنما هو محض تشابه فى الأسماء أراد هو استغلاله من جانب خفى بالإيحاء عن طريق الإفراط فى الأناقة وسبسبة الشعر

للإيهام بأنه ابن ناس طيبين . هو طيب ما في ذلك شك ، غلبان ، إنما كسِّيب ويشكل يحسد عليه كالمرزوقين المحظوظين لله في لله دونما جهد يذكر أو مواهب استثنائية . كل مواهبه تنحصر في أنه بياع شاطر، متخصص في بيع الأحذية الحريمي ، تتقاتل عليه محلات وسط المدينة ومصر الجديدة بدعوى أن في وجهه القبول ؛ بالفعل في وجهه في سلوكه في كلامه في صوته نعومة فطرية يسري خدرها في النساء بمجرد النظر ، صبية كانت أو عجوزا شمطاء ؛ يستحيل على أي سيدة أن تدخل المحل وتخرج دون أن تشترى ؛ بل إنه قد يناديها بلطف وهي مارة من أمام الفترينة : إتفضلي يا هانم ؛ فحتى لو لم تكن تريد الشراء من الأساس فإنها في تسعين في المائة من الحالات تستجيب للدعوة في الحال فتدلف إلى المحل تتعثر في خجلها أو تتيه من الزهو . يتسلمها وجدى ليجرى معها – تقريبا – عملية جنسية كاملة تفتن الفتاة المراهقة وتشعل نشوة من فاتها زمن الدلع ؛ يجلسها في حفاوة بالغة النعومة حافلة بالملامسات العفوية الساخنة، يدخل المخزن فينتقى لها الموديلات التي يدرك بموهبته بحدسه بخبرته أنها الموديلات الملائمة لها بل التي تحلم بها على وجه الدقة ؛ ثم يقعى أمامها في رشاقة لتصير كل مفاتن القلعة الحصينة الخبيئة قيد عينيه مباشرة ؛ وإن لهما لنظرات متبتلة حانية تذيب صدأ القلوب تبث فيها رعشة طازجة مثيرة كطزاجة المغامرة ؛ ثم تأتي عملية الإمساك بالقدم الملساء الناعمة لوضعها داخل الحذاء بحنية فائقة ، يد تقبض على سمانة الساق ويد تُدخل الحذاء في القدم، ثم تشبك لسان الأبزيم ، وينتقل إلى الساق الأخرى ، ويمسح بيديه على القدمين في لمسات يقصد بها توصيل مدى افتتانه بصاحبة هذين الساقين العظيمين وما أضفياه على حذائه من شرف . هي في الغالب لا تخلع الحذاء ؛ تطلب أن يلف الحذاء القديم في ورقة الجديد ؛ لن تفاصله في السعر مطلقا ؛ بل تعطيه فوق السعر المغالى فيه بقشيشا سخيا ، ذلك أنه وقد استلت منها ثمنا باهظا فإنه على الأقل أعطاها حذاء متينا بمعنى الكلمة يظل محتفظا بقيمته لسنوات . لهذا فهو لا يعمل بالأجر ؛ إنما يعمل

بالعمولة المجزية ؛ فادخر رصيدا فى البنك يسمح له بافتتاح محل خاص به فى وسط المدينة لكنه لايريد لأنه هكذا يكسب فى الواقع أضعاف أضعاف ما يكسبه صاحب المحل بعد مصاريفه الكبيرة .

كان من السهل كذلك أن نعرف ما الذى لَمَّ الشامي على المغربى . ذلك أن قمر المحروقى أثناء فترة انهماكه التام فى الرسوم الهندسية إياها ؛ قد توصل إلى اختراع ماكينة لتصنيع الطوب الحرارى ، تلقمها مادة الطمى أو الغرين أو الطين المخلوط بالتبن فتتولى هى تسويته فى قوالب تمر فى داخلها بمرحلة للتجفيف بعد التصنيع ثم مرحلة الحرق الكهربائى أو التحمير ، إلى أن ينزل القالب مستطيلا من الحمرة الناشفة المتجمدة كالحجر ؛ مع ملاحظة أنها تنتج ألف قالب كل ثلاث ساعات أما إذا أردنا معدلا أكبر فعلينا أن نصنع نفس التصميم على حجم أكبر . وقد بحث قمر المحروقى عن ممول لتنفيذ تصميمه فوجده فى هؤلاء الشبان الثلاثة : وليد رشيد ، مرسى خلاف ، وجدى الوكيل . ولقد حسدنا قمر فى الواقع على عقليته العلمية النيرة وقدرته هذه على الإبتكار ؛ لكننا زعلنا منه جدا ، واندهشنا من قدرته على التكتم وفرض الحصار على مشروعه ليمضى فى سرية تامة دون أن ندرى نحن شلته القديمة المخلصة ؛ وصحيح أن الشبان الثلاثة كانوا حين ينسطلون جيدا تزلف ألسنتهم بكلمات مبهمة عن المشروع وما ينفع المشروع وما يضره إلا أننا لم نعن بالتوقف عند هذه الكلمات ؛ ولولا أن المشروع برمته قد فشل واكتسح فى طريقه كل مدخرات الشبان الثلاثة ما قدر لنا أن نعرفه . إنما عرفنا بخبر الإختراع من شدة ما أصابهم من حزن وإحباط وما طرأ على بعض سلوكياتهم من غلظة وخشونة . كانوا مقتنعين تماما بسلامة الاختراع ؛ وقد نفذوه بكل دقة فى إحدى ورش الخراطة الكبيرة ؛ اشتروا كل ما يحتاجه من معدات، بنوا قاعدة محكمة لتثبيت الماكينة فى الأرض التى اختيرت لها بعناية فى إحدى قرى الفيوم ؛ تم تركيب الماكينة بالفعل ؛ تم توصيلها بالكهرباء ؛ لكنها لم تتحرك مطلقا . يومها أخذوا صالح هيصة ليناولهم بعض الأشياء يعاونهم ببعض

الخدمات؛ فلما رآهم جميعا يقفون حائرين غير قادرين على فك شفرة التشغيل – بمن فيهم المخترع نفسه – تقدم من الماكينة راح يتفحصها يتذكر وحداتها قبل تركيبها ؛ وأخيرا سلم أمره لله ونطق :

– «المكنة دى ناقصة يا أستاذ قمر!»

تبادلوا نظرة سخرية تنضح بالمرارة والحرج تكاد تنطق بعبارة : «ما بقاش الا أنت كمان يا هيصة عشان تقول رأيك فى تصميم هندسى!» . ليس مهما أن تلفت هذه النظرة نظر صالح هيصة فإنه يدركها بالغريزة ويتوقعها بادى ذى بدء كما وأنه اعتاد ألا يهتم برأى الناس فيه سواء بالسلب أو بالإيجاب إذ هو لا يتعامل إلا مع القلوب فحسب وإنه لخبير بها لا يخطىء تقديرها أبدا . لهذا تجاهل النظرة الساخرة فى عيون قمر وشركائه ؛ إفتر ثغره عن الإبتسامة الدمثة الخجولة :

– «عدم المؤاخذة يا قمر بيه ! معلهش يا جماعة خدونى على قد عقلى ! المكنة دى حسب مفهوميتى ناقصها حاجة صغيرة ما تسواش مليم بس مهمة لدرجة أن الإختراع من غيرها ما يبقاش اختراع ! قمر بيه وهو بيخترع المكنة دى !معلهش القلم بيغلط برضه ! نسى يعمل حاجة تربط التروس ببعضها عشان كل ترس يشغل التانى !»

– «ترس إيه يا راجل يا مخروق ؟! هى دى مكنه فيها تروس ؟!»

– «يمكن فاكرها مكنة طحين!!»

هكذا قال مرسى خلاف وعلق وجدى الوكيل ووليد رشيد . أما قمر المحروقى فقد غطست عيناه فى المحجرين ! الغائرين ووقف صامتا مذهولا . ضحك صالح هيصة :

– «ما هو !.. دلوقتى ! .. الكهرباء وصلت والمكنة دارت أربعة وعشرين قيراط! .. لكن تلقمها المونة ماتسحبهاش تفضل تطرطش علينا لحد ما تخلص ! يعنى فيه حاجة جوه المكنة الكهربا مش واصله لها ! يعنى يبقى الماتور بس هو اللى بيشتغل والمكنة لأ ! إيه السر بقى ؟ ده اللى أنا ما أعرفش أقوله !!!»

أخيرا دبت الحياة فى جسد قمر المتخشب؛ راح يلوح بالسبابة وقد شحب وجهه فيما يردد بصوت خافت من ريق ناشف:

- «فعلاً ! مظبوط ! صالح هيصة كلامه صح ! برافو عليك يا هيصة ! أنا عرفت النقص اللى فى المكنة!»

فتح الحقيبة ؛ سحب الخرائط ، تقرفص منكبا عليها يتفحصها - أخيرا هب واقفا فى صيحة انتصار عارمة:

- «العيب فى التصنيع مش فى التصميم ! كل حاجة عندى هنا معمول حسابها من طقطق لسلامو عليكم ! أتحدى ! وأدى حركة التشغيل أهه مرسومة على الورق خطوة خطوة !»

وضع مرسى خلاف يديه فى خاصرتيه سائلا فى برود شديد :

- «والحل ؟!»

«لا بد من فكها ومراجعتها حتة حتة !»

أنفقوا شهوراً طويلة فى فك وتركيب وإعادة فك وتركيب؛ وفى النهاية كوموها فى حوش دار وليد رشيد فى ميت رهينه فى انتظار بيعها لتاجر الخردة؛ وقد تحمل وليد أكبر عبء من الخسارة لأنه كان أكثرهم حماسة لتنفيذ المشروع من ناحية وأكثرهم يسرا من ناحية أخرى . العجيب أنهم لم يفقدوا حبهم لقمر بل إنهم وقعوا أسرى فى هوى شخصيته التى لامست فى كل منهم جانب الولد المغامر .

قبيل ذلك الحادث كان قمر المحروقى قد لبى دعوة صديقه - وصديقنا - طلعت الإمبابى ، لحضور بعض الأنشطة الثقافية التى يقيمها المركز الثقافى السوفييتى من ندوات وعروض أفلام روسية وحفلات موسيقية؛ فإذا هو يكتشف فى هذه الأنشطة فرصة للتعبير عن نفسه بحرية وقول ما لا يستطيع قوله فى مكان آخر ، فواظب على الحضور بانتظام لفترة كانت كافية لأن يتعرف فيها على محاسن

عاصم شقيقة صديقنا أحمد عاصم التى كانت موظفة فى هذا المركز . فمحاسن عاصم كانت طالبة فى كلية الآداب قسم تاريخ ، إلا أنها ولوعة باللغة الفرنسية وكل ما هو فرنسي ، فانتسبت إلى بعض المعاهد لدراسة اللغة الفرنسية فأنفقت فى ذلك وقتا وجهدا ومالاً وأصابها فوق ذلك تشتت ذهنى حاد . مكثت فى السنة النهائية بقسم التاريخ عدة سنوات؛ فلما يئست من النجاح أهملت الدراسة مؤقتا والتحقت بهذا المركز بمرتب مقنع.

محاسن عاصم بنت طيبة جدا كما يؤكد المقربون منها من أصدقائنا؛ طيبة إلى حد أنها تترك انطباعا بالعبط فى نفوس المتعاملين معها. كل عيبها أنها تفكر ببطء شديد مع أنها سريعة الفهم؛ تتكلم بصوت بطيء خافت ، لسانها يتعثر فى نطق الحروف الأجنبية منذ الصغر مما يجعلها تبدو كخوجاية متمصرة ، وفضلا عن ذلك فإنها ليست جميلة كأخيها أحمد؛ وجهها ساذج يفتقر إلى التناسق مع شدة بياضه واحمرار خديه ؛ أما جسدها فقريب من جسد الصبيان لايثير بل لا يلفت النظر أصلا حتى بالنسبة لعشاق الطابع الغلامى فى الأنثى ، ربما لهذا السبب لم يكن لها أى علاقات مع أى من الشبان باستثناء العلاقات العملية وهى فى هذه الحدود طيبة ومريحة إلى أقصى حد . ما أن التقاها قمر المحروقى حتى أسلس لها قياده وأسلست له قيادها بشكل تلقائى ، إن هى إلا عدة مقابلات فى أماكن شبه رومانسية حتى اكتشف كل منهما نفسه فى الآخر بشكل واضح سريع حاسم ؛ أنس كل منهما للآخر واستراح ؛ تلاقت وجهات نظرهما فى الحياة فى الفن فى الناس.

أخيرا تنفس الأستاذ مصطفى عاصم الصعداء ؛ ها هى ذى ابنته محاسن – بعد طول يأس – تفاتحه فى أمر عريس ينوى التقدم لها . سأل ابنته سؤالا واحدا : هل تحبينه وتقتنعين بشخصيته؟ . قالت بحماسة حاسمة : طبعا طبعا!.

قال : على بركة الله فليتفضل . ولكن من باب الإطمئنان سلط ابنه أحمد ليجمع بعض التحريات عن قمر المحروقى ، فتم تدبير هذه التحريات فى قعدة من

قعداتنا فى الحارة أمام الرابية وسط ضحكات تقطر مرحا وصفاءً ، ووصلت إلى الاستاذ مصطفى تؤكد أن «الولد» لابأس به من حيث الرجولة من حيث القدرة على الكسب من حيث تحمل المسئولية - إتصل قمر بخاله الطبيب الصحفى المخضرم - الذى كان لاسمه أكبر رنين فى عائلة الأستاذ عاصم جعلتها أكثر مرونة - وطلب منه الفصل بينه وبين أمه فيما يختص بحقه فى الميراث . وحلاً للإشكال اشترى خاله نصيبه فى قطعة الأرض الزراعية، أعطاه بضعة ألاف تعد على أصابع اليدين؛ تمكن من تدبير شقة محترمة فى تخوم شارع أحمد عرابى بحى المهندسين . تكفل الأستاذ مصطفى عاصم بمعاونة ابنته على تجهيز عفش للشقة على نحو مشرف . بين يوم وليلة أصبح قمر المحروقى زوجا مطيعا سلساً لمحاسن عاصم - بين يوم وليلة أخرى أصبح أباً لبنت أسماها داليا - إلا أن حماه لم يعجبه تنقله المستمر من عمل إلى آخر ؛ توسط له لدى بعض تلاميذه الأساتذة بالجامعة الأمريكية؛ ألحقوه بوظيفة اختلقوها له اختلاقا : خبير؛ بهذا اللقب المطاط يحصل على مرتب معقول ؛ أما وظيفته العملية فهى مساعدة فرقاء الباحثين فى تجميع المواد، أو المفردات الميدانية والشعبية لإدراجها ضمن قاموس تعده الجامعة الأمريكية : إنجليزى - عامية مصرية.

على أن قمر سرعان ما ضاق بالحياة الزوجية؛ بدأ يستشعر عمق الفواصل الجوهرية بينه وبين زوجه ؛ يستشكف اختلاف طبيعتهما فى كل شيء - سرعان ما تقطعت الأسباب بينهما شيئا فشيئا ؟! إنسدت المسالك ؛ أصبح يقضى النهار كله ومعظم الليل خارج المنزل ؛ عاد إلى وحدته من جديد، حتى فى البيت ينام وحده على حشية فوق الأرض لأنه فى الأصل يمقت نوم الأسرة . مع ذلك استمرت الحياة بينهما بفضل صبر محاسن وطول نفسها وقدرتها على الاحتمال خاصة أن قمر كان يعطيها حقها وكامل احترامها كزوجة؛ ولكنه لاينسى - ولا هى تنسى - أنها هى الأخرى كانت أميل منه إلى العزلة والإنفراد بالنفس لساعات طويلة دون ملل.

- « إ يـ ي ي ي لحا .. ا .. قْ !!»

هكذا أطلق صالح هيصة صيحته بمجرد دخوله ورؤيته لقمر فى هذه الصبحية ، فكان لصوته العريض المرح رنين حميم مؤنس . عبارة «إلحق» هذه تخرج من فم كل من صالح وقمر مشبعة بالدفء والمودة والفرح ..

- « إ يـ ي ي ي لحا .. ا .. قْ !!»

هكذا رد عليه قمر بسوقية مقصودة متقنة لحميميتها .

قال صالح وهو يسلمني ربع القرش الحشيش مكفنا بالورق الأحمر القاتم:

«حضرتك عليك فلوس لأم يحيى ؟!»

شكني دبوس الورق فى يدى وهى تستند على ملف قمر.

قلت فيما أطرقع أصابعى فى بعضها موحوحا متألما :

-«عشرة صا غ أول عن آخر ! هى سألتك؟!»

- «أصلها بتقول لى لمين الحشيش قلت لفلان بيه

قالت لى «قول له أم يحيى بتسلم عليك !»

- «بس كده ؟!»

- «ما هى أم يحيى ما تسلمش على حد لله فى لله !!»

- كان لازم تقول لها إن الحشيش لى ؟!»

- «ما أنت عارف يا بيه انى ما أعرفش أكدب!»

ثم لاحظ أن قمر هو الذى يتولى السقيا وأننى ألح عليه لكى أمسك له الجوزة حتى يشرب حجره براحته ، فنظر إلينا مبتسما ثم اختص قمر بنظرة تقدير على إتقانه للصنعة ثم مضى نحو الباب:

- «أصحى لكم الواد صابر من النوم!»

فاستدار إليه قمر صائحا فيه برجاء وقد اكتأب وجهه فجأة لمجرد أن القعدة سيضاف إليها شخص رابع :

- « إعمل معروف مش عايزين حد ! إحنا كده تمام ! هما الحجرين دول وَحنقعد نقرأ !»

امتثل صالح وقد ظهر على وجهه أنه يتفهم الموقف؛ اخترق الكراكيب والحجارة إلى ركنه ؛ جلس فوق حشية القش الكالحة ؛ استأنف تنظيف الحجارة.

المتاع المحرم

مدرسة معروف الإبتدائية - التى لاتزال باقية توحد ربها إلى اليوم - طلع منها عيال أصبحوا من العظماء ؛ منهم الصحفى الكبير ، والممثل النجم ، ولواء الجيش ، وعميد الشرطة، والطبيب والمهندس . ومنها أيضا - من هذه المدرسة - طلع صالح هيصة الذى لم يصبح أى شيء على الإطلاق ومع ذلك يحقق شهرة مدوية لدى جميع الحشاشين يعنى حوالى ثمانين في المائة من رجال وشبان الشعب القاهرى. ولكن : مشهور بماذا ؟ بأى صفة بأى مجد ؟ بأى شىء ؟ هذا ما لا تملك إجابة عليه ؛ إنما هو مع ذلك مشهور والسلام ، هكذا دون أن يسعي إلى ذلك بل دون أن يسعده ذلك.

كل من زاملوه فى مدرسة معروف الإبتدائية ظل إلى الأن يعرفهم واحداً واحدا بالاسم واللقب . هم من المؤكد أنهم نسوه تماما . فطبقا لرواية صالح هيصة نفسه عن نفسه عبر قعدات ومناسبات وليال قمرية لاحصر لها مع نكهة الحشيش المحترق على نار مسمسمة مثلما تحترق لحظاتنا الحاضرة على لهيب الذكريات الحميمة ،وإن مؤلمه .. أنه قد حصل على الشهادة الإبتدائية من هذه المدرسة التى تسمعنا جدرانها الآن على مبعدة أمتار قليلة من غرزة حكيم . وما أدراك ما الشهادة الإبتدائية فى ذلك الزمان من أواخر الثلاثينيات؛ كانوا يدرسون فيها روايات باللغة الإنجليزية قصة مدينتين لتشارلز ديكنز لعل البهوات يعرفونه ، ومسرحية الملك لير لشيكسبير ولابد أنكم على علم به لأن اسمه يتردد فى الصحافة باستمرار؛ يدرسون يعني يدرسون ، يعنى يقف التلميذ فى حصة المطالعة ويقرأ صفحات من الرواية بلغة انجليزية سليمة ثم يشرح ما فهمه منها؛ صالح هيصة نفسه اشترك فى تمثيل دور فى مسرحية الملك لير حين مثلها التلاميذ

– فريق التمثيل بتاع المدرسة يعني – في احتفال التخرج . إنه لايزال يحفظ بعض مقاطع منها إلا أنه لا يحب الفلحسة :

– «إيه يعني لو الناس عرفت انى باعرف انجليزى ! ططا!»

إنما هو يكون منشكحا على الآخر حينما يستلوحه بعض الأفندية الخريجين من أبناء هذه الأيام فيتحدثون أمامه بالإنجليزية ظنا منهم أنه لوح لطزانة لايفهم ما يقولون؛ فلا يجد وسيلة يفش فيها غليله سوى الضحك السايب مما يؤكد لهم تصورهم الخاطىء عنه بأنه مجرد عبيط أهبل بتاع هيصة وزمبليطة . يكون الود ود لو أنه صحح لهم نطق المفردات الإنجليزية التى يرددونها كالببغاوات دون أن يعرفوا نطقها الصحيح أو أماكن استخدامها . كثيرا ما لحق نفسه على آخر لحظة قبل أن يراجعهم ناطقا بالنطق الصحيح للكلمات ، فيمنع نفسه من النطق حتى لايعطيهم فرصة الاستهزاء به والتصافق عليه وتكون النتيجة أن يعمل معهم هيصة كبيرة قد تنتهى بتفتيت دماغ أحدهم وفتح كرش آخر ! لكن الأهم من ذلك أنه يحب أن يبقوا على عماهم لكى يعرف حقيقتهم أكثر ..

– «أكبر مصلحة ليك يا بيه إن اللى حواليك يتعاملوا معاك على إنك مفهوميتك على قدك!! حيبقوا حلوين معاك وآخر فل ! بالهم يطمئن من ناحيتك ينسوك يسيبوك فى حالك وده أول مكسب ! يتكلموا على راحتهم قدامك ! يفتحوا أبوابهم المهجورة ! يخشوا فى الجخانيق والأوض اللى هما دافنين فيها حاجات كتير يمكن جثث قتلوها يمكن حاجات وسخة عملوها أو اتعملت فيهم يمكن يمكن يمكن ماتعدش !! إنت كمان تخليك جدع برضه ! تسمع وبس ! إوعك تعلق بأى كلمة خليك لمؤاخذة واللوح واحد !! تسمع عشان تتعلم تعمل ده ومتعملش ده وإن عملته تعمله ازاى وليه وعشان إيه ! إجمع واطرح واضرب بينك وبين نفسك عشان تعرف حقيقة البنى آدم اللى قدامك يستاهل انك تصاحبه بإخلاص وإلا ترميه فى الزبالة وتخلص منه قبل ما يكلفك خسارة مالهاش لازمة ؟! على فكرة ! الاستلواح من غير مؤاخذة فن ! يعني لازم تتقنه !أنا مثلا لما باعرف حقيقة البنى آدم من دول

إذا كان يساوى الاحترام احترمه على الآخر ! وإذا كان ما يساويش ما اخليهش يعرف إنه في نظرى ما يساويش ! لأنه لو عرف أبقى أنا لوح لوح بحق وحقيقى ! إنما اللوح الذكى ما يسبنيش ! ولو بين غصب عنه ! يبقى كسب عدوه ! طبعا لأن التانى مهما كان حيتغاظ أما يحس انك مستصغره أو محتقره ! أنا أحتقره جوايه آه ! وإذا كان له عندى خدمة أعملها له أربعة وعشرين قيراط ! لكن بقى إذا هو حب يعمل نص افرنك ويتمنظر عليّ حاعرف أوقفه عند حده !! شوف يا بيه! إنت يهمك تعرف حقيقة البنى آدم على الأقل عشان واحدة بس ! إزاى تتقى شره ؟! وحاقول لك إزاى ؟ ما هو طول مانا باسمع وساكت باخش الأوض الضلمة بتاعتهم واتفرج عليها ! يعنى معنة كلامى حابقى عارف مكان الدمامل اللى ف جسم كل واحد ! ما ألطهاش ! وابقى شايف السكك الضلمة اللى جواه ! ما أهوبش ناحيتها ! ما هو يا بيه خلى بالك : الشر كله ماشى فى الشارع مزاملك فى الشغل قاعد معاك على القهوة ويمكن بيبات معاك على سريرك ! بس مكنون عنك! إمتى يقلب عليك ويهاجمك ويوريك العين الحمرا ؟ توّ ما يحس انك بتعرف ! بتفهم ! بتشوف ! خلاص بقيت عدوه رقم واحد ! إنما لو انت ذكى حتعرف إن قدامك سكتين اتنين مفيش غيرهم قدام الشر ياتكون قده وتقدر تواجهه وتقاومه وفى الحالة دى حينفعك اللى انت اشتريته وانت ساكت بتسمع ! ... يا إما تكون أضعف منه ولازم تسالمه على طريقة المصريين الأصلا وفى الحالة دى برضه حينفعك اللى انت اشتريته يعنى تعرف الدمامل فيه .. وإيه ؟ ماتلطهاش !!».

ثم يخلد صالح إلى الصمت برهة طويلة؛ ثم يستدرك : - «كان فيه راجل اسمه الحال ! .. أبوه أبوه سماه كده : الحال ! .. الحال ده إتجوز ! خلف ولدين : صلاح الحال .. وفساد الحال !! صلاح الحال اتجوز ! خلف ولد واحد سماه : كلا مفروض !! فساد الحال هو راخر اتجوز ! خلف ولدين : الأول سماه ميل الحال! والتانى سماه وقف الحال !! كلام مفروض ده كان راجل طيب وابن حلال مصفى بس عيبه إنه طول ماهو نضيف وحقانى وفاعل خير حيعيش فى أمان والرزق

يجيله وماحدث يقدر يضيمه ! وكان معتمد فى قوته كلها على قوة أبوه صلاح الحال اللى كان أكبر سند ليه !! .. ميل الحال ووقف الحال ولاد عمه استهيفوه قالوا كلام مفروض إيه الغبى ده ، هو فيه فى الدنيا حاجة اسمها كلام مفروض !! المهم احتالوا عليه خدوا ثروته يشغلوها له فى التجارة ! جابوا أجله وكلوها !! وفضيوا الاتنين لبعض : ميل الحال يدبر لوقف الحال عشان يقضى عليه وياكل ثروته !! لكنه كان أغبى من ابن عمه كلام مفروض ! راح بسلامته اتصافى واتصاحب مع وقف الحال ! وقف الحال ده أكبر نصاب ! ابن عم الريح والنار والتلج ! قال لك من ناحية أتقى شره ومن ناحية تانية أستعين بيه ! صاحبنا كسحه ! ومن يومها والدنيا على دى الحال : وقف الحال متصاحب على أغلبية الناس وغفلان عن شلة الهليبة وأهى ماشية ! لمؤاخذة أوسخ كلمة باسمعها ف حياتى كلمة أهي ماشية !!»

ما أن حصل صالح هيصة على الشهادة الإبتدائية من مدرسة معروف العتيدة حتى كان قد كره الشهادة إكراما لخاطر من يحملونها . كلهم كانوا يتأففون منه، يفترضون فيه العدوانية مسبقا ثم يعاملونه على هذا الأساس متوهمين أن الولد مادام فقيرا معدما أسود الوجه رث الثياب خشن الملمس فلا بد أن يكون بالضرورة شريرا قليل الأدب والتربية .

في البداية حاول أن يتوظف بالإبتدائية ؛ أرسل عدة طلبات إلى جهات كثيرة حكومية وأهلية يستعطفها يرقق قلبها من أجل الأسرة التى يعولها: ولكن لاحياة لمن تنادى وأخيرا زهق من شراء ورق الدمغة الذى لابد أن يلصقه على الطلبات ؛ فامتنع عن مخاطبة أية جهة بل وطن نفسه وبإصرار عنيد على أن يرفض الوظيفة حتى لو جاءته لحد عنده من تلقاء نفسها . راح يتخبط فى عديد من المهن، أطول وقت أمضاه فى مهنة كان خمس سنوات فى مهنة التجارة، ولذلك فهى المهنة الوحيدة التى أتقنها وبات قادرا على تفصيل الدواليب والأسرة والكراسى وتصنيعها . إلى أن طلبوه للتجنيد ، فذهب إليه فرحا مستبشرا مع أنه يكره النظام والشدة فى المعاملة .

وعند نهاية كل مدة كان يطلب التجديد لمدة أخرى كمتطوع . راتب الحكومة يمكن ادخاره كله مادام الأكل والشرب والنوم والكساء مكفول له من الجيش ، ناهيك عن بقشيشات تضل طريقها إليه من حين إلى حين .

من فرط عشقه لنهر النيل ، الذى يعتقد بأنه دون كافة الأنهار فيه شيء لله ، كان لا يصبر على الشوق إليه يوما واحدا ؛ فثمة موعد ثابت أصيل كل يوم لابد أن يحققه . ما أحلا أن يرتدى الجلباب الأبيض النظيف والعمامة الكبيرة البيضاء يحمل سنارته وطعومه يحج سيرا على الأقدام إلى شاطيء النيل خارج المدينة ، يجلس على نفس الصخرة فى هذه البقعة النائية التى لم يكن يعرف لماذا تجذبه دون بقية البقاع على هذا الشاطيء الطويل النعسان: هل لأن الصخرة عالية عن سطح الأرض بما يوازى طول شجرة فارعة وهو طول يمنحه الأمان من قفزة تمساح غادر يشده هابطا به إلى القاع ؛ أم لأنها صخرة جميلة ناعمة السطح عريضته وإن حفلت أضلاعها بالنقوش الغامضة كعمود بقى من قلعة سلطانية قديمة كانت هنا ذات يوم ؟ أم لأن سطحها العارى يعتبر مملكة لامثيل لمتعتها حيث يتسع سطحها لتربيعته ومخلاته المزودة بطعوم الصيد وسبرتاية وبراد وكوب وعلبة شاى وسكر وعلبة تبغ فرط ، وحيث تمتد البوصة الطويلة المكونة من قصبات يمكن فكها وربطها بقلاووظ معدنى وفقا للمسافة المطلوبة طولا أو قصرا ، وقطعة الفلين فوق الموج البعيد تتراقص. كالبهلون غاطسة صاعدة تشى بغمزات مظفرة تحت الماء ؟.. لا ، ليس هذا وحده كل ما يجذبه إلى هذه البقعة بكل هذا الشوق العارم لدرجة أنه يشتاق إليها كلما أنذره الليل بانتهاء فسحة الصيد ، إنما الجاذب الأكبر كان قابعا فى هذا الكوخ المبنى بالطوب الأخضر على مسافة أمتار قليلة من صخرته . فمن قعدته فوق سطح الصخرة يصير أعلا من السور الخلفى للكوخ ، حيث يحتاط السور بحوش واسع غير مسقوف تقوم فيه شجيرات بين أحواض مخططة على الأرض مزروعة بالجرجير والبقدونس ، وتمتد فى ركن منه حبال غسيل ، وفى ركن آخر تحويطة ملآنة بالبط والأوز والدجاج . يستطيع صالح

من قعدته أن يرى مكونات الكوخ من الداخل ابتداءً من بابه المطل على الحوش إلى الممر الفاصل بين أربع حجرات فى صفين متقابلين وينتهى ذلك الممر بتقفيصة للكنيف . لقد أصبح كأنه يعيش بين هذه الأسرة، يستطيع أن يميز أن هذا الرجل الطويل الممتلىء هو صاحب هذا الكوخ وأنه قد وضع يده على هذه المساحة من طرح النهر ، وأن هذه المرأة الممصوصة البدن التى ترضع طفلا ويركب على كتفها طفل ويتعلق بذيلها طفل ثالث هى لاشك زوجته ، تظل تصرخ فى زربة عيال حتى لايقتربوا من النهر وإلا خطفهم تمساح ، أما هذا الملاك النورانى، هذه الفتاة المشدودة القوام كالضابط، المفسرة الملامح والقسمات فى الوجه وفى الجسد بصورة تكاد تكون مثالية فلا بد أنها شقيقة ذاك الرجل ، فالسمت واحد ، وحتى المشية متشابهة الإيقاع كأن أحدهما يقلد الآخر . لقد عرف من مناداتهم لبعضهم أن اسمها وهيبة وأن الزوجة اسمها أم الحسن وأن الزوج اسمه مكى . حين تتكلم وهيبة كان صوتها يأخذه من قطعة الفلين الغمازة، يصير قلبه مثل هذه الغمازة كلما هدهده صوت وهيبة يرن فى جنبات الكوخ.

كان صالح يدرك أن صاحب الكوخ قد راقبه طويلا من جانب خفى وتأكد من أنه مؤدب لايقصد شيئا سوى الصيد ، كثيرا ما كان يمر بجواره لغير سبب واضح فيقول : «حبابك عشرة» فيرد صالح بود عميق : «حبابك ميه» . مرة فى مرة صار صالح يدعوه لكوب من الشاى على الواقف حيث يتبادلان الحديث وقد بدا على مكى أنه شعر بالفرح والإطمئنان لما عرف أن صالح من مصر ؛ قال له إنه هو الآخر يكاد يكون مصريا صرفا، إذ هو مولود فى شلاتين المصرية وله شقيقة أكبر منه متزوجة فى مصر وأخ أكبر منه أيضا يعمل بوابا فى عمارة بالزمالك؛ أما كيف جاء هو إلى هنا فتلك قصة طويلة ، مع ذلك حكاها له فيما هو مرتكن بكوعه على الصخرة ممسكا بكوبه الشاى : كان لمكى عم مقيم فى شلاتين المصرية يعمل بستانيا متخصصا فى تنسيق ورعاية حدائق القصور : هذا العم كان قد أنجب بنتا واحدة عقب هوجة عرابى بوقت قليل ، وصل عمرها إلى سن العشرين

تقريبا وأبوها مصمم على تزويجها من موظف حكومي بمرتب ثابت؛ إلى أن جاءه الموظف بالفعل ، رجل كان متطوعا في الجيش ثم أصبح متطوعا في الشرطة وكان من حلايب لكنه رأى البنت في سوق شلاتين أيام كان يزور أقاربه التجار فيها ؛ تزوج وبعد بضعة شهور طوحت به الحكومة في بلاد بعيدة فأصبح عنوانه شبه مجهول لاتصل إليه الخطابات البريدية - ثم حدثت لخبطة كبيرة إذ إن العم هو الآخر انتقل من شلاتين إلى الخرطوم حيث جاءته شغلة في بيت ناس كرام ذوى حدائق واسعة يلزمها خولي مقيم . العم حسبها جيدا : هو في شلاتين يسكن بالإيجار والرزق ضئيل متقطع ، وليس له في شلاتين أحد غير أخيه الكبير أبو مكي ، أما في الخرطوم فإنه سينال داراً من بابها وسيأكل ويشرب ويكتسي بالمجان . ظل العم شهورا يضربها في دماغه إلى أن أصبح الصباح ذات يوم على أخيه الكبير يصرخ وزوجه تولول : كانت الطريشة قد لدغته وهو راكع يصلي فوق كومة من أعواد الذرة الجافة قدام داره إذ كانت هي تبحث لنفسها عن مخرج من بين حزم الأعواد التي انتشرت فيها حينما هبط الأخ بجبهته فوقها تماما وهو مغمض العينين في غبش الفجر فما درى إلا وسيخ من الحديد المحمى في النار يخترق جبهته فينسف دماغه نسفا - يا له من صبح أسود ؛ في مسائه مات الأخ: فقرصة الطريشة لا دواء لها خاصة إذا جاءت في الرأس مباشرة . العم ركبه الشؤم واصطلحت عليه الوحدة مع الكآبة مع وقف الحال : فسحب الولية زوجه وتوكل على الله إلى مدينة الخرطوم . ربنا أكرمه أخر كرم ؛ لكن اللخبطة التي حدثت جعلت الخطابات تتوه في السكك تردها عناوين إلى عناوين تردها بدورها إلى مرسليها . قل إن العلاقة انقطعت تماما بين العم وابنته فلم يعد يعرف عنها شيئا ولا هي بدورها تعرف عنه أي شيء ، مما جعل العم يعيش بحسرتها طوال عمره حتى أصابه مرض جعله يحيض كالنسوان والعياذ بالله .. بعد عدة سنوات فوجيء مكي بخطاب يرد إليه من عمه يطلب منه اللحاق به ليعيش معه في الخرطوم إذ إن الشغل ثقيل ويحتاج لمساعد . مكي آنذاك شاب في الخامسة

والعشرين معفى من التجنيد لأنه وحيد أبويه ، وكان فلاحا أجيرا يشتغل يوما ويبطل عشرا وهو الآخر يسكن بالإيجار فى نفس الدار ، قال ما الداعى لبقائي هنا والشغل يطلبني عند عمي؟ ثم سحب أمه وسافر إلى عمه في الخرطوم ، حيث الدار التى نالها من صحاب الشغل كبيرة تستوعب عائلة بل قبيلة. فوجيء مكى أن ابنة عمه التي كانت في شلاتين طفلة أصبحت عروسا فارهة كالفرس إضافة إلى أن عمه كان لايزال يتعشم فى أن تلد امرأته طفلا ذكرا فإذا هى بعد حين تلد بنتا ثالثة هى وهيبة ، هذه البنت الفارعة التي تعيش معه في الكوخ . لم يكن مكى مغفلا حتى يترك ابنة عمه العروس تضيع منه وهى من دمه ولحمه ، كلمة والثانية جاء المأذون وعقد القران . يوم والثانى دخل على عروسه التي لاتزال تعيش معه الآن تملأ حياته بنعمة العيال . سارت الحياة بهم سمنا على عسل ، إلى أن دهمهم وباء لم يسمعوا به من قبل اسمه الكوليرا ، مات العم وزوجه فى جمعتين متتاليتين ضمن عشرات من الفقراء . أصبح مكى وريثا للشغلة ومسئولا عن وهيبة بنت عمه وأخت زوجته . كان العم الدقرم الحويط قد علمه أن يتحوط للزمن ، وساعده - بواسطة أصحاب الشغل الذين هم من علية القوم فى الخرطوم فى الاستيلاء على هذه القطعة من أراضي طرح النهر؛ فبدأ ببناء هذا السور ، ثم جعل يتسلى شيئا فشيئا حتى ابتني بداخله عدة حجرات، بات يتعهد الأرض بالرى والتسميد والرعاية حتى طرح الله فيها البركة وأصبح الآن مطمئنا إلى أنه سيترك لعياله شيئا يغنيهم ذل السؤال .

هذه الحكاية كانت هي ميثاق الشرف الذى ربط بين صالح ومكى برباط وثيق مساء الخير يا مصرى .. مساء النور يا مكي . ولربما يلتفت صالح فى قعدته فتسقط نظرته في قلب الحوش واقعة على عين أى واحد من أسرة مكى فيبتسم كلاهما يتبادلان التحية بتلويح اليد فى الهواء ثم صارت هناك مفاجآت لطيفة ومدهشة ؛ إذ كثيرا ما يفاجأ صالح بولد من عيال مكى يقترب منه حاملا صينية

عليها براد شاى كامل أو طبق من حلوى بيتيه نادرة أو حفنة من البلح الطازج . في ذلك الوقت كان متوسط رزقه من السمك لايقل عن أربعة أرطال كل يوم وقد اعتاد أن ينتقى أطايبه يذهب بها إلى مدربه الملاكم الإنجليزى القديم الموفد لتدريب ولدان من فرق الجيش ؛ يقوم صالح بشوى السمك بنفسه وإعداد الوجبة للمدرب ، ولكنه أصبح يقتسم الصيد كل يوم بين المدرب وبيت صديقه مكي.

إعجاب المدرب الإنجليزى بصالح تسببت فيه عوامل كثيرة كانت دائما على لسان المدرب ومساعديه ، منها أن صالح كان يتفاهم مباشرة مع المدرب دون احتياج لمترجم ، ومنها أن المدرب كان يستريح لصالح بالذات حينما يريد أن يعرف معنى كلام الناس وعاداتهم في مصر والسودان ؛ ومنها أن المدرب حين عرض عليه نفر من طالبى التدريب على الملاكمة وراح يختبرهم ويعجم عودهم وجد أن صالح أكثرهم استعدادا للإنضباط على مقاييس اللعبة ومتطلباتها الجسدية والنفسية، ثم سأله : هل مارست اللعبة من قبل ؟ فرد صالح : فى طفولتى فى المدرسة الإبتدائية . أبدى المدرب دهشته قائلا : لكنك تبدو مدربا وتعرف قاموس اللعبة . ضحك صالح فى خجل وقال له إنه كان فى صباه يعرف محاميا سياسيا كبيرا كان يصطحبه إلى النادى الأهلى كلما ذهب إليه للإرتياض فكان يتفرج على تدريبات الملاكمة بانتباه فأحب اللعبة فأصبح يدرب نفسه على ضوء تعليمات مدرب النادى للاعبيه ؛ ولما كانت صلته بالمحامى – وهو عضو مجلس إدارة النادى الأهلى – معروفة للجميع فى النادى فإنه كان يتميز بحق الدخول إلى النادى وقتما يشاء بمفرده لحضور أى تدريب يعجبه . عندئذ قال له المدرب الإنجليزى: أنت من عشاق اللعبة وهذه أول درجة فى سلم النجاح، ثم تولاه بالرعاية، ووعد ليجعلنه بطلا عالميا فى أقصر وقت ممكن، ورسم له برنامجا تدريبيا وصحيا وغذائيا التزم به صالح التزاما صارما يستحق المكافآت التشجيعية التى تمنح له لقاء الانتظام فى التدريب بجدية، ومن جانبه قرر صالح عدم التفكير فى النساء مطلقا، عله أن يتزوج، لكيلا يشغل نفسه بشيء يعطله عن مشروعه الرياضى.

إلا أنه بعد أن رأى وهيبة وتعرف على مكى ابن عمها وزوج أختها بدأ يشعر ـ لأول مرة فى حياته ـ أنه ليس جديرا بالالتزام الذى فرضه على نفسه، راوده الحزن خشية اضطراره لغش المستر هيث مدربه الإنجليزى المتحمس له فيما يختص بالبند الخاص بالابتعاد عن النساء، لكن ماذا يفعل فى عيني وهيبة التى شبكت سنارتها فى قلبه فبقي معلقا فى الماء يوخزه الألم كلما لامسه الموج؟!، شعوره بالانجذاب إلى وهيبة كان قويا ماحقا ساحقا لأى مقاومة، ليس لها وحدها كان الإنجذاب، بل إلى الكوخ كله بكل مايحتويه لدرجة أنه عين نفسه حارسا أمينا يقظا للعيال حتى لايتدحرج أحدهم نحو النهر لأنه كان يثقب الماء بنظرته القوية الخبيرة فيرى ظلال التماسيح الخبيثة اللئيمة تزحف نحو الشاطىء متخفية فى كتل من العشب متحفزة للقفز والإنقضاض فى لمح البصر على أى ولد، كثيرا ما هب صالح قافزا إلى الأرض ليدرك طفلا فرحا بقدرته على الركض مندفعا نحو النهر وراء بطة جعجاعة، فى اللحظة التى يقبض فيها على ذراع الطفل تكون البطة قد اختفت وضاع صوتها فى بقاعة المياه والفك المفترس يغيب بها فى القاع البعيد، وإذ يحمل صالح الطفل على صدره ويمضى به إلى الكوخ ليسلمه ـ يدا بيد ـ إلى أمه أو خالته يسمع دقات قلبه كدوى الطبل، وإذ تفتح الخالة وهيبة ذراعيها لتتلقى الطفل فى صدرها، فتلمس يد صالح صدرها رغما عنه، يكاد يغمى عليه من شدة شعوره بثراء الكنز الخفى الساخن الذى لمسه بظاهر يده، فيتحول دوى قلبه إلى فرح ترن فيه الزغاريد وتتألق الراقصات على أنغام الصاجات النشوانة مثله، يشعر كما لو أن وهيبة هذه فى موقف مثل هذا الطفل تتخفى التماسيح على جميع الشطآن لاصطيادها إذ هى فى وضعها ذاك تعتبر عرضة للإنقضاض وفريسة سهلة للإصطياد نظرا لطيبتها الشديدة وبراءتها، لحظتئذ تنتفض كل عضلة فى جسده، يخفض بصره حياء فيما يستدير منصرفا:

ـ «لا شكر على واجب! خلوا بالكم من العيال!».

يعود إلى قعدته السامقة وقد شعر أن الدماء فى عروقه تجددت وسخنت

ونشطت، يروح يسأل فى عقل باله وبوصة السنارة تتراقص ترتعش تحت فخذه، هل يمكن ياولد أن يكتب لك عيش مع هذه المهرة الجميلة الجذابة ذات الوجه الصبوح البرىء من كل غش؟ ولماذا لا؟ أنت رجل ملء هدومك ومصرى متطوع فى الجيش ولك راتب حكومى تقبضه نهاية كل شهر تستطيع أن تنفقه على زوج كهذه؟ أنت طول عمرك مضرب عن الزواج ويظهر أنك كنت تنتظر وهيبة فى علم الغيب، ومن يدرى؟ وربما لو ضمكما سرير واحد فى بيت الزوجية تكون بها ومن أجلها هذا البطل العالمى الذى يرجوه لك مستر هيث المدرب الإنجليزى، نعم، إن وهيبة كفيلة بأن تقويك ترطب نفسيتك فتفيق أنت وتشوف شغلك على أحسن وجه.

ذات عصرية ندية امتد الحديث بين مكى وصالح مليئا بالود والحميمية ليقول مكى لصالح:

ـ «تلاقيك زهقت من جراية الديش ونفسك فى لقمه بيتى!».

على الفور هتف صالح كأن أبواب السماء انفتحت له:

ـ «على الآخر يامكى! نفس أشم ريحة التقلية!».

ـ «بكرة تيجى تتعشى عندى إيه رأيك؟!».

إشترى عدة قراطيس من الفاكهة، كان مكى فى انتظاره على باب الكوخ وقد خيم على حوشه دفء يهتف بجمال الدنيا وحلاوة هذا الكون العامر، الحصير مفروش بين الشجيرات والنخيلات ذات البلح الأمهات، امتدت الطبلية، كل الروائح الحريفة الشهية هبت تنشر النشوة والطرب، البط المحمر، أنجر الفتة مغطى بشال مزركش من الصلصة والتقلية.

تلك العشوة السخية وضعت حدا فاصلا لتردد صالح، فبعدها ببضعة أيام دخل فى الموضوع مباشرة، طلب يد وهيبة على سنة الله ورسوله، قوبل طلبه بترحيب شديد، انحصرت تكاليف الزواج فى حدود الضرورى من المفروشات، وقد زاد الأمر بهجة وسهولة فى التنفيذ أن مكى الحويط لم يكن قد تخلى عن الدار التى استأجرها عمه المرحوم، فاستغنى عن حجرتين منها لصالح وزوجه.

لم يكن العسل شهرا واحدا، بل كان عاما كاملا، مضى كبرهة وجيزة من الزمن كأنه حلم فى ليلة قمرية ربيعية، لا ينسى صالح حضن وهيبة مطلقا، لا ولا أنفاسها العطرة التى كانت تبعث اللهب فى أوصاله، كانت وهيبة أعظم زوج يتمناها المرء فى الحياة، ليست تكلف زوجها أي عناء ولا تتوانى فى خدمته خدمة العبد للسيد، طيورا تربى، خزينا تدخر، ثيابا تشترى من الدلالة بالتقسيط المريح، وحين الأسرة أسرتين يغلق عليهما فى معظم الأيام باب واحد، واكتشف مكى أنه اشترى أخا يأنس إليه ويألفه، تجدد الماضى وحضر حضورا قويا، أمسى كل من مكى وصالح يستمتعان بالحديث عن أيام الحياة فى مصر، يأسفان معا لحديث زوجتيهما ـ الشقيقتين ـ المتجدد كل ليلة عن أختها الغائبة فى مكان ما من أرض مصر، ترى هل هى ميتة أم لاتزال حية ترزق؟ وكيف حالها؟ ألديها عدد كبير من العيال؟ أين هم؟ ماذا يفعلون؟ إلى آخر هذه السلسلة التى لاتنى تلد الأسئلة من الأسئلة وتوقظ الشجن والأسى وألم الفراق، ولقد تعهد كل من صالح ومكى بأن يقوما معا بالبحث عن الأخت الكبيرة والإتيان بخبرها من تحت طقاطيق الأرض، حيث أيقن كل منهما أن خبر ظهور الأخت سوف يضاعف من سعادة الجميع سيما إذا اتضح أن للأخت «عيال كبار» .

كل منهما راح يضرب فى اتجاه يتسقط الأخبار منه، لجأ صالح إلى زملائه المصريين ذوى الأصول السودانية يسألهم بصنعة لطافة عن بلدانهم الأصلية، أما مكى فقد هداه الله إلى اكتشاف رجل طاعن فى السن أصله من شلاتين كان يعرف عمه معرفة جيدة، وكان شرطيا ضمن فرق الهجانة، اتضح أنه يعرف زوج بنت عمه الكبرى مرزوقة وهدان الخشت الشهيرة بمنتهى، بل اتضح أنه يعرف مرزوقة نفسها عن طريق أخت له تعمل بوابة فى مصر، وأعطاه عنوانها، فلم يشأ مكى إعلان الخبر حتى لاينزعج أهله إذا اتضح أن الرجل يقصد إلى واحدة أخرى، فى الوقت نفسه كان صالح قد يئس من الأمر كله لشعوره باستحالة العثور على إبرة فى تل من الأتربة، لم يكن يعلم أن مكى قد أملى خطابا وشيعه

إلى مصر مستعجلا مسجلا. فلما تلقى ردا على خطابه وتيقن من وجود بنت عمه على قيد الحياة كان حكيما فى إخفائه للخبر إلى حين، لقد عرف من الخطاب الذى جاءه أن زوج بنت عمه يائس من حياته فى مصر لأنه بلا عمل وليس معه نقود يأتى بها إلى السودان ليراهم، فما كان من مكى إلا أن سارع بإرسال مبلغ لزوج بنت عمه بحوالة بريدية وطلب منه المجيء إلى السودان فور تسلمه لهذا الخطاب ولسوف يجد عملا وسكنا ورزقا وفيرا، ثم أرشده إلى طريق للوصول عبر مركب نيلية معينة اسم ريسها فلان الفلانى، ثم أصبح يترقب وصول المركب على المرسى بين يوم وآخر، ويوم وصولها وقف على المرسى ينادى بأعلا صوت: فلان الفلانى، فإذا بفلان هذا ينسلت من بين الواصلين ويهرع إليه يعانقه، وإذا هو كهل ممسوك الحيل، ومن ورائه سيدة عجفاء صدئية تلتف بملائة سوداء وترتدى فى قدميها برطوشة كالحة، قال له الرجل المسن وهو يدفع ظهر المرأة كأنها أمانة يسلمها إلى أصحابها:

ـ «آدى ياسيدى بنت عمك أهه! مصير الحى يتلاقى!».

إرتمى عليها مكى يسلم ويبكى بحرارة وهى ترتب عليه بتحنان عظيم، ثم إنه سحبهما إلى الدار.

كان صالح قد رجع من التدريب منهكا فتمدد على العنقريب نصف عار، وراحت زوجه تدلك عضلات ذراعيه وكتفيه بزيت ساخن وهو يقاوم الرغبة فى مواقعتها لأن الدار تشغى بالعيال وباب الحجرة معرض للطرق فى أية لحظة، وقد كان، إذ لم تمض برهة حتى سمعا رزعا أهوج على الباب ينم عن فرحة طاغية.

قالت وهيبة فى شبه احتجاج:

ـ «مين بيرزع؟».

صاحت أختها لاهثة من الفرح:

ـ «أختك مرزوقة وصلت مع جوزها يا وهيبة!».

تركت وهيبة جسد صالح واندفعت تجرى مزغردة، وانتفض صالح واقفا ملخوما يبحث عن فانلته وجلبابه، وهو يتعجب لايكاد يصدق أن الخيال يصير حقيقة بهذه البساطة المذهلة، ثم تذكر عبارة قالها له مكى ذات أمسية:

ـ «إنت ريحك قريب من ريحى أنا وعيالى! واسمك مش غريب علىّ! إنت وجودك معانا هو اللى صحى الماضى!».

وحين دخل قاعة مكى يتعثر فى خطوه من شدة الانفعال رأى زوجة مرتمية فى حضن أختها وكلتاهما تصيح وتهذى بأى كلام، لم يتبين وجه هذه المرأة العجوز، لكنه تسمر فى مكانه مذهولا بعد شهقة كاد يلفظ فيها أنفاسه وقد شجب وجهه ونشف ريقه وراح يقلب النظر الملتاث فى هذا الرجل المرافق لهذه المرأة متمتما:

مش ممكن! مش معقول!.. ولكن ليس ثمة من مفر، فكل الشواهد والقرائن الواضحة تؤكد أنه أمام أبيه!! وإذن فهذه المرأة هى أمه، ومن ثم فإنه يكون قد تزوج من خالته!!.

الذهول نفسه صار مضاعفا على وجهى أبيه وأمه التى هتفت فى خليط من الفرح والخوف ضاربة صدرها بيدها:

ـ «صالح؟!! الجيش يوديك السودان وما تبلغناش؟!».

إخص عليك وعلى قلبك القاسى!!.

وصاح الأب فى ازدراء واشمئزاز:

ـ «الولد ده إيه اللى جابه هنا؟!!».

قالت وهيبة فى زهو خافت مضطرب:

ـ «جوزى! معرس علىّ!».

ضربت الأم صدرها بيدها صارخة:

ـ «ياخرابى! جوزك؟ يعرس عليكى إزاى دانتى خالته لزم!!».

ـ «خالته؟!.. صالح ابنك يابنت عمى؟!».

هكذا صاح مكى، فانخرطت الأم فى لطم وبكاء، وهتف الأب مصفقا كفا على

ـ «طول عمره وش مصايب! لكن كله إلا اللى حصل ده!!».

هارت وهيبة كخرقة بالية، ارتمت على الأرض مغطية وجهها بيديها، سالت الريالة على شدقى صالح، جرد صوته من جرابه:

ـ «إيه التخريف اللى بيحصل ده؟!، هى أمى اسمها منتهى والا مرزوقة؟!، أنا ما أعرفش اسم مرزوقة ده! وأبوها اسمه الخشت والا مهران؟!».

صارت الأم تولول فى تفجع:

ـ «ياربى! بعد العمر الطويل ده كله ابنى الكبير مايعرفش أن اسمى مرزوقة وهدان الخشت! طبعا! أنا نفسى كنت نسيته! ماكانش حد بينادينى بيه أبدا! حماتى هى السبب! هى اللى طلعت علىّ اسم منتهى ولزق فىّ مدى الحياة!!».

ـ «وحنعمل إيه فى المصيبة دى؟!».

إهتاج صالح بصورة مخيفة حينما رأى وهيبة قد أغمى عليها وتخشبت، صار يضرب رأسه فى الحائط يجعر باكيا يشق الهدوم دميت رأسه ووهنت قواه وانطرح على الأرض راح فى غيبوبة طويلة كان يتمنى ألا يفيق منها، الواقع أنه لم يفق منها حتى الآن لدرجة أنه لايعى ما الذى حدث بعد ذلك بالضبط على وجه الدقة والتفصيل، لكنه يذكر أن المأذون جاء وفصل رسميا بين الزوجين المحرمين على بعضهما، يذكر أيضا أن وهيبة لم تسترد لونها ثانية، تحولت إلى كائن هزيل شاحب، ضاعت معالم وجهها وانمحت بروزات جسدها، قيل بسبب إجهاضها من فرط الفزع والخضة والحمى التى أصابتها ونجت منها بأعجوبة، إلا أنها فقدت عقلها تقريبا، أدمنت دقات الزار، يذكر كذلك أنه لف على جميع المشايخ من كل لون بحثا عن علاج لوهيبة فى كتبهم من ناحية، وبحثا عن الكفارة التى يمكن أن يقضيها ليغفر الله له ذنبه غير المقصود، أصيب هو الآخر بلوثة، امتنع عن التدريب، من كسرة نفسه كان يتمنى ألا يراه أحد، طلب التسريح من الجيش والعودة إلى مصر، بقى مدة طويلة بلا عمل ولا مسكن، حتى فطن إلى أحقيته فى العمل فى جهاز الشرطة، تقدم بطلب للتعيين، فعين شرطيا فى حرس الوزارات.

كانت مهمته أن يقف على باب وزير الأشغال، فلما استقرت حالته في الوظيفة قام حبه للملاكمة من جديد فذهب إلى نادى الشرطة وقيد اسمه واستأنف التدريب مع الفريق الذى يتأهل للسفر للمشاركة فى بطولة دولية أوليمبية فى أسبانيا، ثم إنه سافر مع الفريق بالفعل، وعاد ببطولة وميدالية ذهبية، وذات يوم فوجىء بأن سيادة وزير الأشغال ـ الذى يقف هو حارسا على بابه ـ قد أصبح يتودد إليه بشكل لافت للنظر، ففى إحدى المرات كلفه بشراء بعض الطلبات وتوصيلها إلى منزله في جاردن سيتى ثم نفحه خمسة جنيهات دفعة واحدة يعنى أكبر من مرتبه الشهرى، وفى مرة ثانية أهداه بدلة كاملة ومعها حذاء أبيض على أسود لم يلبس مثله طول حياته، مع قميص أفرنجي ورباط عنق، وفى مرة ثالثة ـ بمناسبة عيد الأضحى ـ أعطاه مايقرب من نصف خروف وثلاثة جنيهات، ثم إنه أصبح يناديه: ياعم صالح بعد أن كان لايعرف إلا كلمة: ياعسكرى، ولما كان صالح بطبعه يخشى مثل هذه الأفعال ويتشكك فى نواياها ليقينه من أن الرحمة لاتعرف قلوب السادة على الخدم مطلقا، لذلك أصبح حذرا يبحث عن السر وراء هذه الأفاعيل المشبوهة، لكن بحثه لم يطل: كان الوزير قد تزربن ذات يوم لسبب لم يعرفه صالح فأصدر قرارا بمنع دخول عمال البوفيه إلي حجرة مكتبه على أن يتولى صالح عملية الدخول والخروج بما يطلب للمكتب من قهاوى وشايات. وفعلا، تحول صالح إلي جرسون ببدلة ميرى لمدة أسبوع واحد تقريبا، وفيما كان يلم فناجين القهوة فوق الصينية ليعيدها إلي البوفيه استوقفه الوزير مبتسما فى لطف:

ـ «إنت.. متجوز ولا لأ ياصالح؟».

فوجىء صالح بالسؤال لكنه ضحك في أدب شديد:

ـ «لا والله يا سعادة البيه!».

ـ «ليه طيب؟!».

ـ «واتجوز ليه؟!».

ـ «مابتحبش الستات؟!».

ـ «أبدا عدم المؤاخذة!».

حملق فيه الوزير بدهشة بالغة، شعر صالح كأن سهام النظرات المدببة تنغرس في وجهه ورقبته ثم جسده كله، أخيرا قال الوزير:

ـ «أقدر أعرف السبب ياصالح يمكن.....».

ـ «أصل... أصل.....».

ـ «لو اتجوزت ماهيتك تزيد! وحالك يتصلح!.

وحتحب الستات!».

أوشك صالح أن يحكي له ماحدث من أمر زواجه من خالته وكيف أن ذلك الزواج المشئوم أقفل قلبه ودماغه عن بهجة الدنيا كلها، لكنه أمسك لسانه في الحال، طاف بذهنه طائف أشبه بعمود من الدخان الأسود انقبض له صدره انقصمت الضحكة في صدره شحب وجهه، يبدو أن الوزير فهم من حالة الإرتباك التي اعتورته أنه خجلان من حديث الزواج ليس أكثر، فهز رأسه في أريحية:

ـ «فكر! لما تقتنع أنا عندي العروسة! تربيتي! مستخسرها في أي حد ما أعرفوش! عاوز أضمن مستقبلها بواحد ابن حلال زيك! فكر ياصالح وادينى خبر!».

هز صالح رأسه في امتنان، لم يجد كلاما يقوله، احتضن الصينية حماية للأكواب من الرعشة التي اعترته فصار يقاوم لإخفائها، إلا أنه بعد أن استفاق عمل بنصيحة الوزير وفكر في أن زوجة من طرف سيادة الوزير حتى وإن كانت خادمته كما يتوقع سوف تكون لُقطة ولابد أن سيادة الوزير سيعمل على رفع مرتبه وسوف يعاونه في العثور على مسكن، وجد صالح نفسه يكثر من التجوال في الحي الذي يسكن فيه الوزير. بواب العمارة ـ عمارة الوزير ـ كان يعرفه جيدا، فمن طبيعة صالح أنه يحب تعميق صلاته بالبوابين إذ يعتبرهم عائلته وأهله، وهكذا عزم بواب العمارة على حجرين وكوب شاي في مقهي بشارع قصرالعيني، كلمة في حدوتة في نكتة عرف من البواب تفاصيل القصة كاملة، تماما كما تحدث

فى أفلام السينما، مما جعل صالح يسأل نفسه مندهشا: هل السينما تأخذ من الواقع أم أن الواقع يأخذ من السينما؟ ثم شوح ضاحكا وقال إن كلاهما يأخذ من الآخر ولكن ما يأخذه الواقع من السينما أخطر مما تأخذه السينما من الواقع، وصفق كفا على كف، وهو يستعيد الحكاية متعجبا من قدرة الناس على الظلم والتلفيق: إن الخادمة - أى العروس - هى بالفعل تربية معالى الوزير، ولهذا فهى تربية وسخة، كابنه بالضبط، ذلك الطائش المستهتر الذى وضعت أمامه هذه الوليمة دون رقيب فنمت رجولته المبكرة على صدرها وبطنها، ثم تأكدت فى الخُن الذى تنام فيه جنب المطبخ على سلم الخدم، وقد أُجهضت البنت أكثر من مرة ومعالى الوزير يكفى على الخبر المواجير ولايريد التفريط فى البنت لعدم وجود بديلة مطيعة أمينة نظيفة مثلها، فلما عثر له أقاربه الفلاحون على بنت توازيها فى كل شىء قرر معالى الوزير تسريحها بشكل يليق بمركزه فحسب كما يقنع البنت الجديدة أن من تخلص فى طاعته سوف تخرج من عنده عروسا مجهزة إلى بيت العدل.. وهكذا قرر الوزير اصطياد صالح وتلفيقها له. عينا البواب لمعتا ككرتين من البللور، كبصلتين مقشورتين، لوح بأصبعه السبابة فى تحذير خطير بصوت دافىء وبحة مكتومة:

- «إوعى ياصالح! إياك! ربنا يحبك لأنك سألتنى!».

كان من المستحيل على شخصية صالح أن تبقى كما كانت بعد علمه بهذه الحكاية، لقد تغيرت تماما تجاه معالى الوزير. إن اليد التى اعتادت أن ترتفع لتحية الوزير إذا أقبل رفضت لوحدها دون تدخل من عقله أن ترتفع، ووجهه الذى اعتاد البشاشة كلما وقع بصره على الوزير تجمد من تلقاء نفسه ضنا عليه بالابتسامة، حتى أذنه طرمخت على صوت جرس الوزير.. مدير مكتب الوزير صرخ فيه:

- «نايم على روحك؟! معالى الوزير طالبك!».

دخل على الوزير بوجه جامد كالح مكفهر، توقف على مسافة بعيدة، شمله

الوزير بنظرة مسحته من فوق لتحت، وبقى صامتا لبرهة طويلة لعله كان يبحث خلالها عن شخصية صالح التى يعرفها، أخيرا هتف بخشونة لينة قليلا:

ـ «كنت فين يابنى آدم؟!».

ـ «ماكنتش!».

ـ «سمعت الجرس ولا ماسمعتش؟!».

ـ «سمعته!».

ـ «ماجيتش ليه مادام سمعته؟!».

ـ «أجى ليه لمؤاخذة؟!».

ـ «مش المفروض إنك تجيب لى القهوة؟».

ـ «أنا عسكرى مش جرسون!».

ـ «إنت.. فيه إيه؟ مالك؟!».

ـ «ماليش!».

ـ «طب إمشى اطلع بره ياحيوان!».

ـ «أنا بنى آدم زيك ويمكن أحسن!».

ـ «اطلع بره! مش عايز أشوف خلقتك هنا تانى!».

خرج صالح كالسهم الطائش، فاهتزت ستائر وزيقت أبواب وشخللت مفاتيح واصطكت أدراج وتهشمت أكواب وتطايرت أوراق، انشغل ديوان الوزارة كله بالبحث عن سر غضب معالى الوزير على صالح بعد أن كان الجميع يعرف أنه يشمله برعايته، حاول أكثر من رجل مهم فى الديوان استدراج صالح ليحكى شيئا عن أسباب الصدام لكنه أغلق فمه تماما، ويبدو أن الوزير كان مصرا على معرفة سر هذا الانقلاب، فاستدعاه بعد يومين وحاول ملاطفته:

ـ «لما الوزير يأمرك بشىء تعمله!».

ـ «سعادتك تأمرنى فى حدود شغلى بس!».

ـ «إنت نمرود!».

ـ «إنت ظالم!».

ـ «وقليل الأدب كمان؟ والله لأربيك!».

ـ «ماتقدرش! نمرة واحد لأنى متربى جاهز! نمرة اتنين لأنك ماقدرتش حتى تربى ابنك!، خلى الطابق مستور ياسعادة البيه!».

انتفض الوزير واقفا، خرج عن مكتبه، تقدم من صالح والشرر يسبقه، رفع يده، هوى بها على صدغ صالح، لكنه فوجىء بأن رسغه قد صار فى قبضة صالح القوية تعجنه تفركه ثم تطلق سراحه، ثم تمتلىء الحجرة كلها بفحيح صوته الجهورى المخيف:

ـ «صالح عبدالبر ماحدش يقدر يضربه! هو بس اللى يضرب إنما ينضرب لأ!! ويكون فى علمك! أى ندالة ولا دقة نقص تعملها معاية إنت اللى حتدفع التمن غالى!».

ثم استدار بكل هدوء ومضى، أغلق الباب وراءه، إتجه إلى مكانه المعتاد فوقف فيه متحسسا سلاحه الميرى، لم يمض على هذا الحادث أكثر من عشرة أيام ثم استُدعى صالح لديوان مديرية أمن القاهرة، وهناك أبلغوه بقرار نقله لحراسة المنشآت فى قسم الدرب الأحمر كنوع من العقاب. أهلا بالليل وبسهر الليل من باب زويلة إلى قصرالغورى حيث الحراسة نزهة ليلية مزدانة بالسلاح الميرى وبقشيشات أصحاب المفروشات المربوطة بلفائف المشمع فى الشوارع، المشكلة كلها أصبحت فى تمرينات الملاكمة، كيف يسهر فى دركه طول الليل ثم يذهب للتمرين صباحا ومساء فى نادى الشرطة؟ ليته يتمرن لنفسه فحسب، إنما المزعج أن إدارة النادى عهدت إليه بتدريب مجموعة من الأشبال سيشتركون فى دورات محلية فى حين أنه لا يتقاضى أجرا على هذا أو ذاك فماذا يفعل؟، إنه ـ ربك والحق ـ يعشق فن الملاكمة يفديه بعمره لكن هناك ماهو أهم لديه من الملاكمة بل من عمره كله: حريته، أن يصحو وقتما يشبع جسده من النوم أربع وعشرين قيراطا وفتلة وثلاثة أرباع، أن يفعل مايريده هو لا مايراد له أن يفعله، أن يقول

مافي دماغه هو لا مايحب الغير أن يسمعه، أن يتحرك بمزاجه بملء رغبته لا بمزاج عبد مثله يتحكم فيه يحبس حريته، لا، لا، لا، لا، ملعون أب الملاكمة أب الوظيفة أب الدنيا كلها، غدا سيريهم مركزهم. ثم اعتدل في قعدته على رصيف قصرالغورى دعك شعيرات ذقنه الخشنة أشعل سيجارة، كانت أصوات المؤذنين على مساجد الحسين، والأزهر وأبى الدهب والغورى والصالح طلائع وباب زويلة، تتسابح في موج الفضاء في مهرجان غنائى بهيج يعلن قيام الحياة في عربات الفول ومحلات الألبان والمطاعم والمقاهى وعجلات الكارو ذات القعقعة المزلزلة، فامتلأ صدر صالح بالرغبة فى أن ... يعمل هيصة.. ما أن طلع قرص الشمس على كتف السحاب حتى ركض إلي الدكان فاشترى السبرتو الأحمر والكوكاكولا ثم ركن إلى إحدى عربات الفول ثم قعد على دكة وراح يجرع ويأكل بشهية، ثم قفل إلى مسكنه فوق سطح بيت متهالك فى كوم الصعايدة بجوار مديرية الأمن، غيّر ثيابه، لف عهدته من الملابس الميرى والسلاح فى بقجة تأبطها وخرج، عرج على إحدى المقاهى فشرب القهوة السادة وهرج مع الناس ضحكا وتنكيتا وصهللة حتى إذا حان موعد التدريب توجه إلى مديرية الأمن حيث سلم عهدته للإدارة لأنه لم يعد فى حاجة إليها، قيل له: لماذا؟..

ـ «أمر مهم ما أقدرش أعصيه!».

ـ «إيه الأمر ده ومن مين؟!».

ـ «مزاجى قال لى طظ فى الوظيفة ياصالح قلت طظين فى الوظيفة يامزاجى! جيت أسلمكم العهدة واخلى طرفى عشان تحطوا واحد غيرى فى الدرك!».

ـ «مجنون! فاكر نفسك بتشتغل فى طابونة تمشى وقت ماتحب؟!».

ـ «زى بعضه مجنون مجنون بس أنا مش شغال!».

المهم أنه أفلح في الحصول على استمارة توريد تفيد بأنه سلم عهدته كاملة غير منقوصة، ثم ركب الترماى إلى نادى الشرطة، خرم مباشرة على مقر البوفيه

متجاهلا نظرات بعض الإداريين مع اللاعبين، فلما رأوه يجلس على أول مقعد يقابله ويضع ساقا على ساق كأنه سيادة اللواء يطلب فنجانا من القهوة ثقيلة البن اكتملت الدهشة في عيونهم ولو نطقت لقالت: تأتي متأخرا وتتقنصل؟!، إلا أنهم تفرقوا ساخطين مبرطمين، بعد هنيهة جاءه المدير الفني يتبختر يرج الأرض بقدميه الثقيلتين يصب عليه جام نظراته الغاضبة:

ـ «ما شاء الله ما شاء الله! بتعمل إيه هنا يا سيادة الإمبراطور؟ إمشي وراك تدريب؟! مش حاسس إنك مزودها؟ وإلا مفيش احترام؟!».

ـ «فيه طبعا مفيش إزاى؟!».

ـ «قوم أقف يابني آدم وكلمني!».

شوح بأصبعه مزيدا:

ـ «قلة أدب مش عايز!».

بُهت المدير الفني، بدا كأنه يقارن بين قوته الغاربة وقوة صالح الناهضة ، ظهر عليه الإقتناع بأن الإعتداء بالضرب على صالح سيمرمط كرامته فى الأرض، فاستدار من سكات وانسحب، ما كاد صالح ينهى آخر رشفة فى فنجانه الثانى حتى رأى سربا من كبار المسئولين عن النادى واللاعبين بملابس التدريب يقبلون نحوه كطليعة جيش تريد استكشاف أنواع المخاطر قبل الهجوم، تقدمهم وكيل النادى فى هدوء دبلوماسى متقن، شعر صالح كأنه يتأرجح على نظرات الوكيل الإستنكارية، مع ذلك بقي في وضعه دون أن يعتدل ، قال الوكيل بلهجة حاول أن يعكس فيها أكبر قدر ممكن من الاحتقار:

ـ «ممكن سعادتك تتكرم وتقف تكلمني؟!».

إنداحت موجة من أبخرة الكحول مبتعدة عن عيني صالح، فانتبه فى الحال إلى أن الذى يقف أمامه هو سيادة اللواء وكيل النادى شخصيا، الذى لم يسىء إليه من قبل أبدا بل كان كثيرا ما يعطف عليه يحتضنه عقب كل مباراة يفوز فيها،

فشعر أنه يجب أن يتأدب مع هذا الرجل بالذات، فوقف، اجتهد أن تظل المسافة بينهما طويلة حتى لاتفضحه رائحة السبرتو الفاقعة فى منخريه، قال بثقة واحترام:

ـ «العفو سيادة اللوا ، أنا ما نمتش بقى لى أكثر من شهرين! من الدرك على التدريب ومن التدريب على الدرك!!».

قال اللواء بابتسامة شاحبة تعلن استعداده للتفاهم:

ـ «إزاى بطل رياضى زيك يطول لسانه على المدير الفنى؟!، وإزاى تقعد مجعوص واحنا واقفين قدامك؟ أنت أكيد مش طبيعى!!».

ـ «فعلا يا سيادة اللوا أنا حصل لى خلل فى مخى!!!».

ـ «إنت شارب حاجة ياولد؟!».

ـ «شارب من كيعانى ياسيادة اللواء! وكمان حضرتك بتقول لى ياولد! يعنى قتلتنى!».

ـ «إنت باين عليك بلطجى مش لاقى اللى يحكمك!!».

ـ «بالعكس ياسيادة اللوا ، دى مصيبتى فى الحياة إن اللى بيحكمونى مالهمش عدد!! منين ما أمشى ألاقى اللى عاوز يحكمنى!! كل خطوة فيها اتنين تلاتة لازم يدونى الأوامر، لازم آخد توقيعاتهم! لازم أضرب لهم تعظيم سلام! لازم استأذنهم عشان أدخل محل الأدب! عشان أكل! عشان أشرب! عشان أنام!! زهقت يامسلمين طهقت قلت ماينفعش الكلام ده لازم أنا اللى أحكم نفسى بنفسى فيها حاجة دى؟! مش عاوز أبقى خاضع لحد! حقى ولا مش حقى؟!! وظيفة مش عاوز أتوظف أنا حر! لعب مش عاوز ألعب حد شريكى؟!».

صار اللواء يتلفت حواليه كالموتور:

ـ «بقى دى عقلية واحد مرشح لبطولة دولية كبيرة؟!، دى أخلاق وحد معلقين عليه الأمل؟!».

قال المدير الفنى وهو يرمق صالح فى إشفاق واستخفاف:

ـ «كل اللى حيلاعبوه فى الدورة أقزام بالنسبة له لكن هو قرر ينتحر!!».

قال اللواء مشوحا فى قرف:

ـ «يـروح فى داهية ! كلمة واحدة ! حتعتذر للمدير الفنى وتنزل التدريب وإلا لأ؟!».

ـ «لأ!.. لأ!».

قالها ثم مشى، اخترق الطريق إلى باب النادى فى قوة وثبات دون أن يلتفت وراءه، ولو التفت لوجدهم جميعا قد استداروا نحوه وتجمدوا ذاهلين يلاحقون ظهره بابتسامة بلهاء صفراء تتصبب عرقا نتيجة رغبة فى الإنتقام محبطة.

لم يعد صالح إلي نادى الشرطة بعدها مطلقا، جاءه إنذار بالفصل من العملين فتلقاه كما يتلقى السجين خبر الإفراج عنه، ذهب يقبض آخر مستحقاته فرأى المكوجى فى انتظاره عند الصراف وكان مدينا له بأكثر من ثلاثة جنيهات نصيبه فى شركة الهيصة التى كانا يقيمانها معا كل بضعة أيام على نفقة المكوجى الذى يحسب نصيب صالح ويدونه فى دفتر الشكك الخاص بالزبائن، بقى من قبضه حوالى نصف جنيه، فتأبط المكوجى ونزلا معا إلى الغورية فعملا هيصة مركبة مكثفة نام صالح على أثرها عدة أيام كانت هى ماتبقى له من الأيام المدفوع إيجارها فى العشة التى يسكنها فوق السطوح بكوم الصعايدة، شيئا فشيئا بدأ يفيق من كابوس الوظيفة يتحرر من ربقة المواعيد الصارمة يتحلل من كل القيود، صار يعطى دروسا فى الملاكمة للهواة فى الأحياء والساحات الشعبية مقابل مصاريف الهيصة والسجائر، كان يدرب بإخلاص وحب، لكنه سرعان ما سئم التدريب لأنه هو الآخر يقيده بمواعيد وطقوس لايطيقها، فوجىء بنفسه ذات مرة يتراخى فى الذهاب إلى الساحة الشعبية، ثم يتراخى عن كل المواعيد .

بواكير الخنفسة

التغييرات التي طرأت على مصطفى لمعي كانت لافتة للنظر . فبعد الملابس الكلاسيكية المتواضعة الوقورة في آن ، حيث لا يكون الرجل محترما إلا بسترة ورباط عنق خال من بقع العرق الملتمعة الفاضحة ، أصبح يرتدى هو الآخر البنطلون الچينز الأجرب السميك المليء بالجيوب البارزة المكبسلة بكبسولات نحاسية صفراء منقوشة ؛ لكنه لا يخلو فى وجاهة وأناقة : مع هذا البنطلون قميص صوفى فوقه فانلة من الصوف بنص رقبة تبرز من تحتها وتغطيها ياقة القميص . فى القدمين حذاء أسود يلمع كأنه مدهون بالبلاستيك .. فصار مصطفى لمعي بذلك قريب الشبه من طلعت الإمبابى لولا أن الأخير طويل القامة محنى الهامة قليلا فى حين يميل مصطفى إلى القصر وامتلاء الجسد نسبيا . ثم إنه انقلب على المتمسكين بالملابس الرسمية ، صار يسخر من عقلياتهم المتحجرة بل من عقلية الطبقة المتوسطة التى تحرس على المظهر الرسمى حرصها على السمعة والوجاهة التى كانت فيما مضى تتفق وقيادتها لحركة المجتمع .

لم يكن الملبس – على أى نحو يكون – من المظاهر التى يمكن أن تستوقفنا طويلا بخاصة بعد اكتشافنا لصالح هيصة الذي ضرب لنا أسطورة الملبس فى مقتل منذ أن اختفى مظهره من أعيننا لتئدها شخصيته لدرجة أننا لم نشعر فى يوم من الأيام بأنه رث الثياب مع أن الهدمة تسكن جسده فلا تغادره إلا مزقة وراء مزقة حتى يتعرى أو يكاد فيخطف رجله إلى وكالة البلح يشترى قميصا وبنطلونا قديمين . لقد قدم لنا الدليل القاطع على أن الإنسان بشخصيته لا بملبسه: أما الذين يرون غير ذلك فهم فى نظره أغبياء يخضعون لابتزاز المجتمع الزائف :

- «مجتمع لمؤاخذة وسخ أحترمه إزاى يعنى ؟ إنت تراعى ربنا فى ذات نفسك وبس ! نجحت فى دى ؟ إضرب الباقى صرمة ! يابيه المجتمع بتاعنا لابس مزيكة ! الناس بتمثل إنها ناس محترمة ! كل واحد عاوز يرهب الثانى يلبسه الأبهة» !.

الطريف أننا على ضوء كلامه صرنا ننتبه إلى مناظر السياح فنتصور أنهم من مدرسة صالح هيصة حيث يلبسون المرقع والممزق ويمسكون بالكتب الثمينة فى أيديهم لانتهاز أى فرصة متاحة للقراءة . شخصية صالح هيصة كانت تبدو لنا مجسدة فى الكثير منهم سيما وأنهم يعرفون طريقهم إلى الغرز فى أعماق الحارات الشعبية العتيقة بل ويعرفون الطريق إلى تجار الحشيش فى الباطنية وزينهم والجمالية ؛ ولقد حظيت غرزة حكيم بأكبر قدر من هؤلاء السياح المخربشين لأنها فى قلب وسط المدينة ؛ من المألوف أن نرى أحد الخواجات مرتديا فانلة بحمالات عارى الصدر والظهر والكتفين والذراعين ، على بنطلون ممزق ونصف وإحدى ساقيه ضائعة ؛ وفى قدميه شبشب أو صندل كالح ، ولحيته نتنة متلبدة ، يعلوه الصدأ والحشف من طول المشى على قدميه فلعله جاء من باريس أو لندن أو برلين ماشيا ومثلنا جميعا يمسك قطعة حشيش صغيرة يقتطع منها، ويمسك البوصة باستمتاع ويشد النفس بنفس القوة نفس المتعة نفس المزاج بل نفس الكتمة التى وقر فى أذهاننا نحن المصريين أنها من ابتكارنا إذ نحتجز الدخان فى الحلق أثناء الشفط ونكتمه عند الإفراج عنه داخل الأنف فيحدث زيقا حاداً يشبه الصوت الذى تحدثه السيارة فيما يسميه الشبان بالطلعة الأمريكانى . الخواجة منهم يضع ساقا على ساق غير عابىء بأن نصف فخذه عار تماما ، أو بأنه حافى القدمين زرى المنظر فيما هو يحشش ويقرأ باستغراق وتركيز . نروح نحن نحسده ونتحسر على أنفسنا لأننا لا نستمتع بالوقت وبالحياة وبالسفر مثله .

نفاجأ بأن مثل هذا الخواجة ما يكاد صالح يقترب منه حتى يعتدل واقفا بوجه بشوش ، يصافحه بحرارة ، يسحب كرسيا يدعوه للجلوس يأمر الساقى بأن

يدخل عليه بالجوزة ؛ فلا يعتذر صالح بأن هذا ليس كيفه كما يفعل معنا بل يشد الأنفاس فى ترحاب ، ثم ما يلبث حتى يندمج مع الخواجة فى حديث ودى يبدو شديد الحميمية والخصوصية . نتحرق شوقا لمعرفة ما يدور بينهما إذ يبدوان كأنهما صديقان منذ الطفولة يتذاكران النوادر يبتهجان يضحكان يتصافحان لدى كل ضحكة .

يتكرر مثل هذا المشهد مع عديد من الخواجات ، مما يجعل طلعت الإمبابى يجرى بعض تعديلات فى رأيه عن النشاط التخابرى الدولى فيضيف إلى المخابرات المركزية الأمريكية أو الـ سى أى إى ، المخابرات الإسرائيلية أو الموساد ، سيما وأن حالة اللا سلم واللا حرب كانت تضع البلاد فى حالة توتر قائمة لا تقعد ، والناس تعانى من غضب مكبوت فى الصدور لا يفلح شرب الحشيش فى تخفيف حمله ، وليس فى الأفق ثمة من حل ؛ كل ما هنالك أن حرب الاستنزاف بيننا وبين العدو الإسرائيلى تحقق نجاحا فى بعض العمليات الفدائية التى يقوم بها أولادنا . ليس ثمة من أسرة إلا ولها ابن أو أكثر فى جبهة القتال منذ ماقبل هزيمة يونيو المحضة الخانقة ، وأنور السادات لا ينى يتذرع بالضباب الذى يكتنف الأفق أمامه . مع ذلك فالحياة محتملة ، لا أحد فينا يعانى من البطالة : فمصطفى لمعى يعمل رساما فى مجلة للأطفال ؛ وقمر المحروقى فى الجامعة الأمريكية ، وطلعت الإمبابى معيداً فى آداب القاهرة قسم التاريخ ، وزكى حامد يمثل أدواراً ثانوية فى برامج الإذاعة والتليفزيون ؛، وفاروق الجمل تم تعيينه بالفعل فى مجلة أسبوعية شهيرة تعنى بالكاريكاتير السياسى والإجتماعى ، وإبراهيم القماح رائج فى تنظيم القتارين ، وأحمد عاصم يقلب عيشه فى السينما التسجيلية . هؤلاء هم الهيكل الأساسى للشلة أما المنتسبون إليها ، أى الذين لا نراهم إلا مرة كل أسبوع فكلهم يرزقون بشكل أو بآخر ؛ حالنا جميعا أفضل بالقياس إلى غيرنا من الموظفين والعمال والفلاحين والحرفيين الذين يعيشون فى شظف حقيقى حيث تقف زوجاتهم وأمهاتهم فى طوابير الجمعيات التعاونية من أجل الحصول على كيلو

لحمة أو كيلو أرز أو صابونة غسيل ، وقد لا تلحق الواحدة منهن بشىء من ذلك عندما يجىء الدور عليها لأن موظفي الجمعيات يبيعون ثلاثة أرباع الكمية سرا إلى تجار السوق السوداء والدلالات . ومع ذلك فلا أحد يدرى من أين يحصل المصريون على ثمن الحشيش الذى يحرقونه ليل نهار ؛ صحيح أنه الشىء الوحيد المتوفر في الأسواق ولكنه يكلف شاربه الكثير من النفقات فى الغرز .

يقول قمر المحروقى لصالح هيصة :

– «نفسنا نعرف كنت بتتسامر مع الخواجة بتقول له إيه وبيقول لك ايه» ؟!

ننتبه جميعا . يقول صالح :

– «أنهو خواجة فيهم» ؟!

يقول قمر :

– «الخواجة الأخراني ده مثلا» !

– «الخواجة لئيم ! أصفراوى» !

– «قال لك ايه يعنى» ؟!

هكذا يصيح به طلعت الإمبابى متعجلا كأنه يبحث عن دليل يثبت به صدق نظرته . يبتسم صالح :

– «صاحبنا الأخراني ده سألنى : الشعب المصرى حزن على عبدالناصر قوى كده ليه» ؟!

تحدث موجة فى القعدة نتيجة تغيير الأوضاع . تلمع فى عينى طلعت بوارق نارية وهو يمرر نظراته على وجوهنا كأنما ليقول : مش قلت لكم ؛ يضع الممثل زكى حامد يده على خده موجها نظراته الحادة القوية إلى صالح :

– «وقلت له إيه بقى بسلامتك» ؟!

بهدوء فولاذى بارد يضحك صالح :

– «قلت له الحقيقة طبعا ! وجهة نظرى يعنى ! اللى أفهمه عن الموضوع ده!»

يهتف مصطفى لمعى فى تهكم :

- «نحب نعرف وجهة نظر سيادتك !!»

يضحك صالح :

- «قلت له الشعب المصرى كبير ! قال لى من أنهو ناحية ؟ قلت له من كل النواحى : كبير فى العمر كبير فى المقام فى العقل فى المفهومية !! قال لى وإيه علاقة ده بالحزن على عبدالناصر ؟! قلت له فتح مخك امال ياخواجة ماهو الكبير فى كل حاجة كبير فى الحزن برضه ! أصله بيحب عبدالناصر لأن عبدالناصر ياخواجة كان قد الشعب المصرى ! على مقاسه ! كبير زيه فى كل حاجة ! مصر حطت سرها فيه فأصبح هو مصر ومصر هو !! الخواجة ماداش منطق بعدها ! هأ هأ هأها .. ى .. إنزل» .

هكذا شاركناه فى الضحكة وأضفنا إليها كلمة : إنزل ، التى هى دائما فى ختام ضحكته الصاعقة بمثابة النقطة فى نهاية الجملة .

الرهان الخاسر

لم يكن إبراهيم القماح وحده من لاحظ - بلماحيته وذكائه الشديدين رغم أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة - فتور العلاقة النفسية بين طلعت الإمبابى وصالح هيصة : فقبل عدة أسابيع وفيما كانت القعدة حابكة على سنجة عشرة والحجارة سالكة والجوزة تنتقل بسلاسة وإيقاع سريع.بيننا نظرا لقلة عددنا أصيل ذاك اليوم ، اختصنى الممثل زكى حامد بغمزة أردفها بصوت مسموع :

- «طلعت ماعادش بيمسى على صالح هيصة يغَنى !!»

كانت الغمزة على وشك أن تمر مرور الكرام دون أن تلفت نظر أحد ؛ لولا أن طلعت نفسه هو الذى لفت نظرنا إليها حيث شحب وجهه وغاضت الدماء فى صدغيه فى خفقة سريعة لكنها تركت دويا مكتوما مقلقا ؛ بدا عليه أنه انزعج ؛ شرع ينفى الأمر بجدية وقوة قائلا بصوت شاحب صدىء :

- «إطلاقا ! ياخبر أبيض ! ده صالح حبيبى جدا !»

ليته مافعل ؛ من ناحية لأن نبرة صوته أكدت أن فى نفسه شيئا من الموجدة يحاول إخفاءه بغير جدوى ؛ ومن ناحية أخرى لأن كذبه على نفسه وارتباكه نتيجة لذلك نسى أن الحشيش ليس مشروب صالح هيصة فطلب من صابر أن يدخل عليه بحجر على سبيل التحية . يبدو أنه انتبه لذلك فتمطعت على شفتيه ابتسامة صفراء تشى بأنه على وشك أن يصيح بالفم المليان :«أيوه أنا متغير من ناحيته حد له عندى حاجة ؟!» .. إلا أنه لم يقل شيئا من ذلك ؛ إنما لاذ بالصمت برهة . ثم إن دوره فى التوليع أنقذه من حرج الصمت الطويل فأمسك البوصة بهدوء وراح يطقطق على مهل تمهيداً لشد النفس الطويل الذى لا نفس بعده فتلك هى طريقته فى الشرب ، دائما تذكرك بلاعب الكرة الذى يرجع إلى الوراء عدة خطوات لكى يرتد عائدا ليشوط ضربة الجزاء .

ذات صباح جئت إلى الغرزة لأخطف عشرة حجارة قبل أن أتوجه إلى نادى الإذاعة فى عمارة على ناصيتى علوى والشريفين لأحضر القراءة الأولى لخماسية إذاعية من تأليفى ؛ فوجدت كلا من قمر المحروقى ومصطفى لمعى ، كانا منهمكين فى نقاش خنفشارى مع صالح هيصة ، يعنى نقاشا فى السياسة ، حيث كان قمر المحروقى آنذاك لاينى يعلننا أن صواميل مخه قد تفككت من أفاعيل أنور السادات الذى يقوم كل يوم بشطب صفحة أو صفحتين من تاريخ ثورة يوليو ويتشدق مع ذلك بأنه سائر على خط الزعيم الراحل : فمبنى مجلس قيادة الثورة تم التفريط فيه ؛ وأعداء الثورة الأصلاء تم الإفراج عنهم ووضعهم فى مراكز مرموقة بمن فيهم الذين ثبتت خيانتهم للبلاد ؛ وبعض الخاضعين لقرارات التأميم سمح لهم برفع قضايا ضد الدولة وكسبوها فاسترد البعض مؤسساتهم وانفكت الحراسة عن أموال غيرهم ؛ وسمح لنجوم العهد البائد بوضع كتب سوداء مسمومة تشكك فى ذمة عبدالناصر الشريف الذى مات فقيرا معدماً وسمح لهم بالتمادى فى الدعارة الصحفية على مساحات عريضة أفردت لهم فراحوا يندّدون بالمكاسب التى حصل عليها العمال والفلاحون سواء فى الحياة أو فى التمثيل النيابى ؛ يستنكرون مجانية التعليم ؛ يحملون بضراوة على قانون الإصلاح الزراعى وما نتج عنه من تفتيت الملكية الزراعية أدى إلى اضطراب المحاصيل وفوضى فى الاقتصاد الزراعى ؛ يلطمون الخدود يشقون الجيوب من كارثة السد العالى كأكبر مقلب شربه النيل فى حياته إذ حوله إلى خصىّ لا طمى فيه يخصب الأرض كما أنه فى الغد القريب ينحر الشواطىء ويتسرب الماء إلى جميع المدن ليدمر عمائرها ؛ انبرى أنيس منصور فى مواقفه اليومية يغري الناس بالهجرة يزين للشباب مغادرة البلاد لملاقاة فرص المستقبل السعيد فى أمريكا وأوربا .. إلى أخر هذا الرصيد الذى يجمعه قمر المحروقى كأسباب لخلخلة صواميل مخه .

لحظة اقترابى من غرزة حكيم كان صوت صالح هيصة هو الأوضح ، كان جليا ، مجلجلا ، عريضا ، تخينا ، مرحا ، حميما ، متوهجا بالانفعال الصادق ،

يشع منه شيء من الجلال والرهبة يذكرانك بشخصية تيريزياس صاحب النبوءات الصادمة فى المسرحيات الإغريقية القديمة :

– «لو أنور السادات قل عقله وفرط فى القطاع العام اطلعوا كلكم يد واحدة وقولوا له عندك ! كله إلا القطاع العام ! حيفضل للناس إيه لو خدته منهم . تلاتة بالله العظيم ما حنلاقي سندوتش فول ولا قميص نلبسه ولا جزمة ! كسوة العيال فى العيد حيجيبوها منين؟ السمنة والزيت والبيض والسمك المتلج والفراخ المجمدة حنلاقيها فين ؟ صابونة نغسل بيها هدومنا ! حد فيكم يقدر يشتري كيلو لحمة من عند الجزار ؟ يمكن انتو تقدروا لكن الشعب ما يقدرش ! الناس يادوب تقدر تدفع أجرة الأتوبيس اللى بيتعجنوا فيه وتتهان كرامتهم وينداس شرف نسوانهم يعملوا إيه دول ؟ يركبوا التاكسى ؟ إذا كان القطاع العام بايظ ما تصلحه طيب ؟ شيل منه الحرامية اللى انت حاططهم فيه ينصلح حاله!» .

وجدتنى واقفا على باب الغرزة أشارك القاعدين فى التصفيق المرح ؛ وكان صالح قد تخطى عهدته أثناء اندماجه فى الكلام وخطف رجله إلى شباك الغرزة البعيد ليلتقط منه السيخ الذى احتاجه لتسليك حجارة مسدودة إلا أن حرارة الانفعال أبقته واقفا واضعا السيخ تحت إبطه كعصا المارشالية لكن دون أن يقصد إلى ذلك . فلما فوجيء بالتصفيق هدرت ضحكته المتدفقة فى صدره ثم تخطى عدته إلى ركنه حيث قعد يسلك الحجارة كأن شيئا لم يكن . خيل لى أن قمر ومصطفى لم يفطنا إلى جلوسى وسطهما ؛ فأعلنت عن وجودى :

– «أمال إيه المؤتمر ده على الريق؟!» .

ضحك قمر فغاص صدغاه فى فراغ حنكه الواسع وأخذ يزوم فيما يكتم الدخان فى أنفه :

– «صالح هيصة زعلان عشان طلعت ماعادش بيديله وش!» .

– «دلقه يعنى ! بطل يلاغيه» !

هكذا أوضح مصطفى ؛ فأكد قمر :

– «فجأة أصبح كإنه ما يعرفوش !»

تحفظ مصطفى :

– «ده إحساس صالح ! هو متوهم كده !

– «طب وده ماله ومال الخطبة اللى كان صالح بيخطبها ؟!»

زام عمر أو لعله ضحك :

– «ماهو الكلام جاب بعضه ! هو دا صالح هيصة» !.

اتسعت ابتسامة مصطفى الكتومة المتأنية دوما :

– «بس فى الموضوع ! كله فى الموضوع! »

– «صالح هيصة مطاط ! أولسايز ! يتسع لكل المقاسات ! كل شىء عنده متصل ببعضه ! الرغيف يقرب لمجلس الأمة ! والزيت والصابون والفول يقربوا لجمال عبدالناصر! ومعمر القذافى وأنور السادات وياسر عرفات وصدام حسين وأمريكا فى نظره عيلة واحدة ! والملك حسين يقول للإنجليز ياجدى ! ومصطفى خليل وعبدالعزيز حجازى ومصطفى أمين ولاد المماليك البرجية !! ده أنت فاتك نص عمرك لأنك ماسمعتش الخطبة مع أولها مع أن السبب فى الأصل كان زعله من طلعت !!»

ولأنى كنت مستعجلا فلم يكن عندى وقت للتقصى ؛ ولكن طاف بذهنى أن طلعت الإمبابى كثيرا ما تنتابه حالات من الرغبة فى التوحد لكنه لفرط ولعه بالصخب واللمة لا يتاح له ذلك فإذا هو يندمج فى شرود لساعات يحشش بعمق وتركيز دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، تدق ملامحه فوق دقة حتى تكاد تتلاشى فلا يبقى من وجهه سوى ظل شاحب شديد النحول على جسد كالخيزرانة ؛ فى لحظات كهذه قد ينسى واجبات كثيرة ، أن يرد التحية مثلا ، أن يطلب لنفسه شايا دون أن يعزم عليك ، أن ينسى المفاتيح فى مكان ما ثم يفرض عليك الانشغال بها لمدة ساعتين مثلا . لكن لم يكن يخطر ببالى أنه – وهو أشدنا ولعاً بصالح هيصة وتأثرا به واقترابا حميما منه – يمكن أن يقلب لصالح ظهر المجن .

إلى أن تصادف انفرادى بإبراهيم القماح فى مساء اليوم التالى فإذا هو يجابهنى بسؤال مفاجىء :

- «هو إيه اللى حصل بين طلعت الإمبابى وصالح هيصة ؟!»

أقلقنى السؤال سيما وأنه قيل بنبرة جدية . قلت :

- «ما اظنش أن فيه حاجة ممكن تحصل بينهم ! ما أنت عارف أن طلعت ساعات يبقى براوى !»

شوح إبراهيم بأصبعه السبابة فى نفى وتأكيد :

- «لأ ! أكيد فيه حاجة غير طبيعية ! أصله لسه ماشى من شوية ! جه وأنا قاعد ومشى وأنا قاعد ! ماسلمش على صالح خالص ! حتى صالح مسى عليه ماردش وتجاهله ! حاولت أجرجره فى الكلام ماادانيش فرصة ! وتنه ماشى لا إحم ولا دستور!!»

- «غريبة فعلا ! ما يمكن فيه حاجة شاغلاه !!»

- «جايز ! بس طلعت أنا فاهمه كويس ! طموحه كبير قوى ! واللى عندهم طموح كبير كده بيبقوا حالانجية ! تلاقيه راسم على إنه يبقى وزير فى يوم من الأيام!»

- «لا ! طلعت الإمبابى ما يقلش بأى حال عن رئيس جمهورية كبيرة زى الاتحاد السوفييتى كده !!» .

ضحكنا بعمق ومرح شديدين وقال إبراهيم إن هذا إذن يكون هو سبب الخلاف إذ يشعر طلعت أن صالح هيصة قد ينافسه على منصب الرئاسة . بعد ذلك بيومين التقانى قمر المحروقى صدفة فى حوالى العاشرة صباحا ، كنت خارجا من محطة مترو المعادى فى باب اللوق وهو قادم من ميدان التحرير إلى المبنى التابع للجامعة الأمريكية حيث يوجد مكتبه . تعانقنا كأننا لم نلتق منذ سنوات طويلة ؛ ما لبث الحضن الدافىء الذي ضم صدرينا حتى استدار بنا تلقائيا إلى ميدان التحرير ومنه إلى شارع الأنتيكخانة فى طريقنا إلى غرزة حكيم . ثم توقف هاتفا : «ده أنا ممعييش حشيش !»

قلت : «ولا أنا !» ، وكنا فى منتصف شارع بسيونى . أشار لى فتبعته إلى ممر شديد الأناقة متلولب كأنه شرخ بين العمائر يوصل إلى شارع قصر النيل . عجبت ، فلم أكن أعرف أن هذا الكشك الذى يكاد يسد الممر ويعرض الأنتيكات إنما هو فى حقيقة أمره كشك مراقبة أقامه صاحب مقهى داخل الممر يبيع الحشيش . أخذنا حشيشنا من فؤاد صاحب المقهى ومضينا . عبر هذه المسافة القصيرة زمنيا ومكانيا حكى لى قمر ماكان من أمر صالح هيصة حين استضافه طلعت الإمبابى فى بيته لعدة أيام ، ذلك أن قمر المهتم هو الآخر بالفتور الذى طرأ على العلاقة بين الصديقين الحميمين قام بتحرياته الخاصة حتى توصل إلى ما استحق أن يحكيه لى بأمانة وحيادية :

كل صديقات ماتيلدا زوج طلعت الإمبابى هن فى نفس الوقت صديقات محاسن عاصم زوج قمر المحروقى . من بينهن امرأة خفيفة الظل والحركة اسمها حياة البرى ، تعمل فى إدارة الجامعة الأمريكية ؛ لها نشاط ملحوظ فى ترجمة المقالات السياسية وبعض الدراسات الأدبية عن الإنجليزية تنشرها فى بعض المجلات والدوريات العربية . هى مطلقة ، فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها؛ سمراء قمحية اللون جذابة ، نحيفة كشريحة البيتزا لكنها تتدفق أنوثة وجاذبية شرط أن تقترب منها وتتبين تفاصيل جسدها المرسوم بدقة حيث التكورات والانبعاجات مجرد ظلال رمزية أكثر إثارة وفتحا للشهية ؛ مصابة فيما يقولون بداء يطلق عليه العامة داء «السودة» ، أى أنها فى حالة هياج جنسى لا يكل ولا يمل ؛ الود ودها - فيما يقال أيضا - لو تبقى طريحة الفراش لا تقوم إلا لتغتسل متهيأة لدخول جديد . لهذا - ربما - فشلت فى حياتها الزوجية ثلاث مرات كانت الأخيرة منها تحت سمعنا وبصرنا . نشهد أنها كانت تعتبر متنازلة كثيرا حين قبلت الزواج من هذا الأخير وهو صحفى ناشىء فى قسم الشئون الخارجية بوكالة أنباء الشرق الأوسط بعد أن كان أول زوج لها نجما سينمائيا مشهورا جدا كواحد من أهم وأنضج المخرجين المجددين فى السينما المصرية وقيل إنها كانت

تعلم أنه مصاب بالشذوذ الجنسى بل قيل إنها كانت سعيدة بذلك تمشيا مع الشائعة التى تقول إن المصابين بالشذوذ الجنسى من الرجال هم الأكفأ جنسيا بالنسبة للمرأة لكنها نفرت منه لأنه فى إحدى سفرياتهما معا اصطحبها إلى نادى العراة لممارسة الجنس الجماعي فتركته هناك وعادت وحدها لتنفصل عنه بعد أيام قليلة . أما زوجها الثانى فكان وكيلا لوزارة التربية والتعليم قد تعرف عليها من خلال ابنة أخته الطالبة بالجامعة الأمريكية حيث كان هو وليا لأمرها ، وقد انفصلت عنه بعد عناء شديد بسبب من تخلفه وعقليته التقليدية المتيبسة . زوجها الثالث - الصحفى الناشىء - كان يدلف علينا فى الغرزة بين حين وآخر ؛ فكنا نلح عليه باهتمام شديد المراهقة أن يحكى لنا عن أسباب الانفصال ؛ فيقول عنها كلاما طيبا جداً يكاد يكون قصيدة مدح فى حلاوة طبعها وشخصيتها وريحها وحسن معاملتها للزوج فى الفراش ولكن نهمها الوحشى وإن كان مثيرا جدا فإنه سرعان ما يترك فى نفس الرجل شعورا بالخطر الفادح من أن يكون مسئولا عن هذه السفنجة التى لا تمتلىء مطلقا .

حياة البرى مع ذلك بسيطة صافية لا تعانى من أى عقد نفسية على الإطلاق لأنها منطلقة متحررة بمعنى الكلمة ما تريده تفعله عن اقتناع دونما تردد . حديثها سلس ، أفكارها مرتبة منظمة لا تخلو من بلاغة شعورية بل - وياللعجب - وملائكية كما يصفها البعض لدرجة أن من يراها ينسى فى الحال كل ما سمعه عنها بل لا يصدقه ، لا يخطر بباله مطلقا أن هذه القطة الوديعة الودودة الصافية التى - رغم فراعتها - يمكن للرجل أن يطويها كالورقة المالية يدسها فى جيبه الصغير ليدخرها لا ليصرفها . لا تستعمل أى مساحيق أو أى أداة للتزين فيما عدا ذلك العطر النفاذ المرتبط بجسدها كله على الدوام . صريحة مباشرة إلى حد الخطر الداهم ، يعنى لو حاول أحدهم جرجرتها فى أى كلام مغطى فإنها ستخرق وجهه بسهمين حادين مطلين دائما أبدا من قاعدتى عينيها الواسعتين المشرعتى الرموش ثم ترديك صريعا تتخبط في شر أعمالك لا ينقذك خجل أو وقار أو لعثمة ؛

ببضع كلمات سريعة تردعك تغلق عليك باب المصيدة . حدث مرة أن سألها أحد الخبثاء عن سبب تطليقها من الصحفى الناشىء فأفحمته بكلمة :

- «لأنه زيك بالضبط لا راجل ولا ست !!»

حياة البرى من أصول صعيدية . ولدت فى مدينة المنيا لأب كان وكيلا لمكتب بريد المنيا فألحقها بمدرسة أجنبية منذ الطفولة ؛ ثم التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية. أبوها غافلها ومات وهى فى السنة الأولى بالجامعة دون أن يترك لها شيئا سوى معاشه الضئيل ؛ لكنها عنيدة صلبة ، اشتغلت فى أحد مكاتب الاستيراد والتصدير محررة للمراسلات الأجنبية ومترجمة لها حتى تمكنت من النجاح فى الجامعة بتفوق . حينئذ ظهرت على أمها الشابة العفيفة بوادر غير مريحة فلم تتوقف عندها إذ كانت تعرف أنه لا فائدة ترجى من محاولة الحكم على امرأة لاتزال فى عنفوانها بالترمل الأبدى فسلمت لأمها بحقها فى الزواج دون مناقشة ثم استقرت فى القاهرة حيث اشتغلت بعد تخرجها سكرتيرة لصاحب شركة إنتاج سينمائى شهير كان مفتونا بها لطلاقتها فى الإنجليزية ودائرة معلوماتها الفنية والأدبية الواسعة فاستمرت معه بمرتب كبير إلى أن تزوجت المخرج السينمائى وبواسطته انتقلت إلى وظيفة فنية بالجامعة الأمريكية .

علاقاتها واسعة جدا ، لها صداقات ومعارف لا حصر لهم من جميع الجنسيات تحظى باحترامهم تربطهم بها حميمية عجيبة إذ ما يكاد الواحد منهم يراها - رجلا كان أو امرأة - حتى يطلق صيحة ابتهاج كأنه عثر على لقيا ثمينة . هى تعرف ماتيلدا حتى قبل أن تتزوج من أحمد عاصم ؛ قيل لأن ماتيلدا ، عضو مهم جدا فى الحزب الشيوعى الإيطالى وذات نشاط واسع فى المؤتمرات النسوية الدولية وأن حياة كانت قد ترجمت بعض مقالاتها من مجلة إنجليزية ونشرتها فى مجلة عراقية شيوعية اتصلت بماتيلدا التى طلبت عنوان حياة وأصبحت تراسلها بالإنجليزية إلى أن فوجئت حياة بأن صديقتها الإيطالية تزوجت مصريا وأتت معه إلى القاهرة .

منذ ذلك الحين أصبح بيت طلعت الإمبابى بيتا لحياة البرى ؛ ليس فحسب لأنها أعز أصدقاء ماتيلدا بل بتشجيع وترحيب من طلعت . ذلك أن طلعت فى الواقع زئر نساء لا مثيل له بين جيله كله ؛ هذا الزعزوع السهتان يمكن أن يرتكب أخطر الموبقات دون أن يدرى إذا كانت ستوصله إلى امرأة يشتهيها . كان يشتهى حياة البرى منذ أن وقع بصره عليها لأول مرة يوم جاءت لتسلم على صديقتها الإيطالية وتتعرف على زوجها المصرى . كانت فى نظره هى الجنس الحقيقى كما يستشعره ويتمناه سيما وأن ماتيلدا – وقد تزوجها رغم ذلك – ليست جنسية على الإطلاق ؛ إنها بيضاء فحسب ، مشربة بحمرة خفيفة ، مترهلة الجسد غير متناسقة الأعضاء بالمرة مابين كفل كبير وجسد كعربة الحنطور ؛ ثم إن المرأة المثقفة لا يرجى منها جنسيا فى نظره فما بالك لو كانت تشتغل بالسياسة على مستوى الاحتراف الدولي ؟. زاد اشتهاؤه لحياة بعد زواجه من ماتيلدا ؛ أصبح يشتهيها بكل مافى خياله الجنسي من نشاط وقوة .

راودها عن نفسها صراحة ذات مرة ؛ فقالت له بكل بساطة : «أنا امرأة جنسية وأنت رجل غير جنسي !» قال لها : «من أدراك» . قالت : «حدس المرأة المفتوحة المسام !» ثم أردفت : «إن الرجل الحقيقى لا يراود المرأة عن نفسها أصلا إنما هو يكافأ من المرأة على تعففه وصدق رجولته !» ؛ ثم استدركت لتقضى على البقية الباقية من إلحاحه السمج الذى يريد أن يفرض عليها فحولته المزعومة فى نظرها : «أنت بالكاد تكفى ماتيلدا المتواضعة غير المعنية بالجنس ! حتى ماتيلدا لا أظن أنك قادر على إشباعها !» ؛ قال : «جربى قبل أن تحكمى !» ؛ قالت : «إذا كانت نفسك الـ.. الـ.. لنقل الضعيفة تسمح لك بخيانة زوجتك مع صديقتها فإننى لا أقبل خيانة صديقتى مع زوجها» !. سبع البرمبة صار كالأرنب المذعور . كانت تعرف أنه كذب عليها عندما قال لها إن ماتيلدا تنتظرها على الغداء فوضعت سماعة التليفون وأتت فى الحال لتكتشف أن ماتيلدا لديها محاضرات إضافية بعد الظهر وستبقى فى المعهد حتى الثامنة مساء ومع ذلك تظاهرت بتصديقه حين

زعم أنه تلقى لتوه مكالمة من ماتيلدا تعتذر فيها عن التأخير الاضطرارى . فجأة قال لها :

– «ماتيجى اسقيكى حجرين حشيش ؟» .

– «فى غرزة حكيم برضه ؟».

– «فيه أحلى منها ؟ شفتى صالح هيصة ؟».

– «رحت كذا مرة مع قمر ومع طليقى ومع ذلك ماشفتوش !».

– «تلاقيكى رحت وهو مخلص المقطوعية وبيعمل هيصة ! تعالى أفرجك عليه»!.

فى غرزة حكيم انزوى بها فى ركن قصى ؛ لكنها ما أن وقع بصرها على صالح هيصة فى ركنه منهمكا فى رص الحجارة حتى ركبها الفضول فأهملت طلعت ، زحفت ، أقعت أمام صالح تتفرج عليه بإمعان وفضول شديدين مما جعله يهدر بالضحك حتى صارت تفاحة أدم البارزة تحت ذقنه تعلو وتهبط كغربال يتخبط يغربل الضحكات فتتساقط خشونتها صدره يتناثر دقيقها الناعم على وجه حياة البرى . تعبت من الإقعاء فجلست على المصطبة التى نجلس عليها فى مواجهته مما اضطر طلعت إلى أن يحمل خشبة الحجارة ويجىء إليها مسلما أمره إلى الله يجلس فى الملقف الذى أراد الهروب منه حتى لا يتطفل عليه واحد من الشلة يفسد عليه خطته . يومها شربت حياة بعمق ، ناددت طلعت فى شد الأنفاس وكتمها فى المنخرين كعتاة الحشاشين ؛ اسبهلت ، توهجت فوق وهج ، أنعشها الحوار الطلى مع صالح هيصة ، أشعل خيالها ، عشقته ، شعرت أنها قد ارتدت إلى ذلك العالم البدائى الساحر المثير ، فجأة أبونا آدم أمامها وجها لوجه فى أحد الأخنان بعد طرده من الجنة مباشرة ؛ فانتابها شعور خفى بأنها حواء ، انتفت شخصيتها تلاشت بطاقتها الشخصية بل تلاشت عنها ثيابها شعرت كما لو كانت سعيدة بعريها . الأهم من ذلك أنها استشعرت فى صالح هيصة رحيقا من الرقة والتحضر لم تجدهما فى أى مخلوق طوال عمرها ؛ ناهيك عن حيائه الأصيل

المبهج ؛ قالت لطلعت إنها تدفع عمرها كله لتعيش على سجيتها مع هذا الرجل أطول وقت ممكن من الزمن لا تلتزم فيه بأى قيود أو تقاليد أو عادات بل تغتسل من ثقافتها ومن كل علم حصلته إذ إن كل معلومة تضاف للإنسان هى فى نظرها قيد جديد يحد من حريته . حينما ألح عليها طلعت بضرورة الانصراف قامت لتسلم على صالح هيصة ، سلمته يدها النحيلة الناعمة ؛ فشعر بالحرج من وساخة يديه الملونتين بعسل التبغ والحصى وصدأ الحجارة ؛ بكل حياء لف كفه فى منديل من الورق واحتوى يدها يشد عليها بحرارة وصدق ؛ فبقيت في وقفتها مخدرة إلى أن سحبها طلعت ومضى . تأبطته غير مبالية بضربات ثديها لكوعه وهى تميل عليه قائلة فى نشوة جنونية :

– « تصدق يا طلعت ؟ أهو ده الراجل اللى نفسى فيه !! أما لو كان يرضى ييجى يعيش معايه بشرط أنه يفضل زى ما هو كده !! » .

رغم أن الصدمة زلزلت طلعت هزته من أعمق أعماقه فإنه استحلى طعم السخرية كملاذ مريح قبل أن تشق الصدمة رأسه . قال كأنه يحاول نزع النصل الحاد من قلبه :

– « ما يرضاش ليه ؟! ده يتمنى !» .

– « ما اظنش ! اللى زى ده شكله يخدعك بإنه سهل وهو فى الواقع عقدة ! فى العادة بتلاقيه مبرمج على حياة معينة ! نظام معين مستحيل يقدر يطلع منه زى السمكة لما تطلع من الميه تموت ! صالح هيصة ده لو طلع من هنا على قصر المنتزه حيموت ! القصر بالنسبة له سجن ! ده حتى لو طلبت منه ينام معايه ممكن ما يرضاش !! يا إما خوف من الحرام يا إما عدم ثقة فى نفسه !!» .

– « لأ بقى ! كله إلا دى ! ده كان حياكلك أكل ! والنبى لو اتقفل عليكم باب ليفترسك ويمصمص عضمك ! دول ناس متوحشين والفقر هو اللى مخلع ضوافرهم ! الحرمان والكبت الجنسى اللى صالح عايش فيه بيخليه على أتم استعداد لأى هبرة ! المنطق بيقول كده !» .

– « غلط !! المنطق ما يقولش كده ! دى نظرتك أنت بس هى اللى تقول كده ! حاكم أنت التاريخ اللى بتدرسه من غير وعى حقيقى بوظ لك مخك أكتر ما هو بايظ !! خلاك تتعامل مع الناس باعتبارهم قطعان غنم وطوائف تتوصف بأوصاف واحدة !! المنهج اللى أنت بتشتغل بيه بيركز على الجماهير والتفسير المادى للتاريخ لكنه بكل أسف عاجز عن فهم الجماهير !! أنا بقى عشان قارئة أدب عالمى ومحلى بيهمنى الفرد فى حد ذاته وعندى يقين بإن الناس مختلفين زى بصمات صوابعهم بالضبط حتى لو كانوا توائم !!» .

– « يعنى عاوزة تقنعينى إنك لو عرضتى نفسك على صالح هيصة ما يسيبش اللى فى ايده ويهجم عليكى ياكلك لحم وعضم ؟! مين يصدق الكلام ده ؟! إذا كنت أنا اللى متجوز ولى مغامرات كتيرة ما أقدرش .. » .

سحبت ذراعها من إبطه فى نعومة لتلوح بها :

– « إنت آه ! إنما هو لأ ! ممكن يكون عنده ألف سبب يمنعه من الاستجابة حتى لو كان هو نفسه عنده الرغبة والقدرة ممكن رغبته تندفن من تلقاء نفسها لأنها على الأقل عاجزة عن التعبير عن نفسها !!».

– « دى لو كانت غريزة وبس! الغريزة حيوانية . آه لكن العقل المكتسب كل ما كان كبير تتحجم الغريزة ! إنتى لسه قايلة بعضمة لسانك إن أى معلومة جديدة بتبقى قيد جديد على الحرية الشخصية !!» .

– « ما أنت عقلك المكتسب كبير ومع ذلك الغريزة باسم الله ما شاء الله جنينة حيوانات كاملة ! المسألة محكومة بحاجة تانية ! بالقيم اللى جوه البنى آدم اللى اتربى عليها يا طلعوت !» .

– « طب تراهنينى ؟!» .

– أراهنك!» .

– «كام لكام ؟!» .

– « لو صالح هيصة استجاب لمحاولتى ورضى ينام معايه ! مجرد إنه يرضى

بس ومش مهم الباقي ! حاديلك نفسي ليلة كاملة !! وإذا صالح أيد وجهة نظرى وامتنع لأى سبب من الأسباب يبقى عليك تشيلنى من دماغك نهائيا وإلا حاقول لماتيلدا على كل حاجة وأنت عارف إنى ممكن أعملها !» .

هرش فى شاربه بكثير من التوتر والشحوب :

– « أيوه بس ازاى حـاوافق أو إنتى توافـقى على إن واحد زى ده ينام معاكى؟!».

– «ومين قال إن ده حيحصل ؟ أنا حاختبره بس ! حاشوفه حيوصل معايه لحد فين وخلاص!» .

– «مصممة على التجربة دى ؟!» .

– « جدا ! وإذا ما اشتركتش معايه فيها حاعملها لوحدى أو بواسطة حد تانى زى قمر المحروقى مثلا !» .

– « بس دى عايزة ترتيب ! تأليف وإخراج وتمثيل !» .

– «وماله ؟ اعزمه ييجى ضيف عندك يومين تلاتة . وبعد ما يشعر بالألفة نبقى ناخذه ونروح شقتى نعمل العملية دى هناك !» . .

– « وهو كذلك ! إنتى مجنونة وأنا أجن منك !» .

انتقل صالح بالفعل إلى شقة طلعت الامبابى ضيفا عزيزا مكرما ، الشقة الحافلة دائما بأرتال من الشباب معظمهم من النساء الأجنبيات والمصريات كلهن أعضاء فى تنظيمات ماركسية متعددة تقوم إحدى الخلايا الفرنسية بمحاولة توحيدها وتتولى الإنفاق عليها عند الأزمات . بظهور صالح هيصة فى الشقة اضطربت أحوالها بصخب بهيج كاد يصل إلى حد الجنون على شرف هذا الضيف العجيب . كان بالنسبة لهم كحيوان بشرى نادر يعود إلى جدنا القرد رأسا كأنه انعزل طوال تلك القرون الماضية فى غابة من الغابات قبل ظهوره هنا . الجميع راح يهنئ طلعت على عمق صياعته واكتشافه لمثل هذه النماذج الإنسانية العتيقة . بعضهم راح على الفور يضعه تحت الدراسة والفحص الاجتماعى والثقافى يربطه بالمجتمعات البدائية التى قدر لها أن ترى منجزات العلم الحديث .

بعضهم الآخر جعل يمتع نفسه بالاستماع إلى حديثه الطلى واستشف ما فيه من أفكار غريبة وآراء متشددة فى الحياة وحكم بليغة لا نهاية لها . بعضهم الثالث - من أصحاب العقول التنظيرية ذات الطابع الحنجورى الهتافى - راح يسخر من الجميع من ابتذالهم وفراغهم إلى حد هذا الاهتمام غير العادى برجل بدائى متخلف لا فى العير ولا فى النفير أما ماتيدا نفسها - زوج طلعت وسيدة هذا البيت ودافعة ايجاره الشهرى - فإنها قد سعدت به ورحبت بوجوده فى أريحية لم تكن متوقعة على الإطلاق . ذهبت - الأروبية - إلى وكالة البلح فاشترت له سروالا وقميصا وشرزا من الملابس السابق استعمالها ، ذلك لأن الملابس الجديدة - كما توقعت بألمعيتها المتودكة على التعامل مع فقراء العالم الثالث - قد لا تعجبه . دربته بنفسها على استعمال الدش والبانيو وكيفية الاستحمام بالليفة والصابونة اللتين اشترتهما خصيصا له ؛ ولا تسل عن سعادتها وهى تراه خارجا من الحمام بعد أن لبس هدوما نظيفة ، حيث تأكدت نبوءتها بأن الاستحمام وتغيير الملابس لن يؤثرا على فولكلوريته بل على العكس زاداها ألقا .

فى البداية كان صالح هيصة سعيدا بهذا الاهتمام غير الطبيعى به ، ينام ملء جفونه فى مطلع النهار بعد أن يتناول فطورا طيبا من البيض المشوى مع طبق الفول وأنواع من الجبن الأبيض والأصفر والأحمر ناهيك عن المربى والعسل الأبيض والزبد والقهوة باللبن ثم الشاى . يصحو عند أذان العصر ليتغدى غداء شهيا حافلا بلحم الأبقار والطيور مطبوخا بطرائق مبتكرة يعرفها جيدا منذ كان صبيا فى مطعم اليونانية تحت سينما الأوديون . فى الليل يشرب الويسكى أو الروم أو النبيذ مما يجئ به ناس كثار أحبوا رؤية صالح هيصة والتفرج عليه والتحدث معه لكنه مالبث حتى سئم اللعبة كلها، بدأ يشعر بالضيق الشديد من هذه الحلقات التى تحاك حوله ليل نهار باعتباره أعجوبة غريبة شاذة ، بات يضيق بكثرة الاسئلة وما يلقاه من عنت وعناء فى الرد عليها بقدر ما يستطيع من صدق وأمانة ، بدأ يظهر عليه التذمر والضجر ؛ بدأ يتحدث كثيرا عن اشتياقه لحى

معروف ، للهيصة ؛ قال بصريح العبارة إنه يريد أن يعمل هيصة حيث إن الويسكى والروم والزبيب والعرقى كل ذلك لا يؤثر فيه بأى درجة . وهذا بالضبط ما أرادته حياة البرى ، قالت لهم إن صالح هيصة لابد أن يغير الجو ؛ تعهدت بأن تأخذه للتهوية وتجديد النفس ثم تعود فتسلمه لهم كاملا غير منقوص .

سبقها طلعت إلى شقتها ، اختبأ فى حجرة المكتب وأغلقها على نفسه من الداخل ورمى بجثته فوق الكنبة الاستديو وهو فرح بوجود نسخة من كتاب كان يقرؤه فى بيته هو كتاب «اللاهوت والسياسة» لاسبينوزا ؛ راح يستكمل قراءته متجنبا التخطيط بالقلم على صفحاته كما يفعل فى نسخته الخاصة . إلا أنه كان شديد الاضطراب متلاحق الأنفاس شارد الذهن . بمجرد شعوره بدخولهما نحى الكتاب جانبا ، كاد يكح لولا أنه فطن فارتعب لبرهة ثم ابتسم ثم تمدد قائلا لنفسه إن الوقت لايزال طويلا حتى يبدأ الاختبار محاولته الفعلية .

حياة البرى وإن كانت متحضرة تلبس أحدث الموديلات وأرقاها تستخدم أثمن أنواع العطور الباعثة على النشوة والإيحاءات الجنسية ، وتقرأ وتتحدث بلغتين أجنبيتين هما الانجليزية والفرنسية إلى جانب العربية ، وتعشق الأدب العالمى وتترجم الكثير من قصصه وأشعاره ومسرحياته ، ولها رأى فى القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية تعرف كيف تصيغه بشكل موجز محدد .. فإنها فى أعماقها تخبئ طبيعة حوشية بدائية شديدة الحيوانية ؛ لا تنسل عن ولعها بالمأكولات التى تذكرنا بأصلنا الحيوانى البعيد أيام كنا نأكل الجيف كالفسيخ والسردين والمش العتيق ، لا تسل عن انحيازها العاطفى لكل ماهو بدائى خشن ، هى طبيعة موجودة فى معظم البشر لكن حياة البرى شجاعة فى المجاهرة به وممارسته دونما تحفظ ؛ وفى رأيها أن الجنس الحقيقى لا وجود له فى الحياة الزوجية إنما هى علاقة بيولوچية بين طرفين كشركة متفق عليها بعقد مبرم بينهما على أن يريح كل منهما الآخر من التوتر وأن ينجبا أطفالا ؛ أما الممتع حقا فإنه ضد الزواج ضد الثبات الذى يخلق ألفة واعتيادا يصد النفس كالطبيخ البايت

الملل المقرف أحيانا ، تضرب المثل بالجنس عند الحيوانات وخاصة جنس الكلاب حيث إنه وليد الرغبة الحقة عند طرفين ، فالكلبة تنشر فى الهواء رائحة رغبتها فتتكالب عليها طوائف من الكلاب الراغبة يصل الصراع بينها إلى حد الاقتتال فيما هى - الكلبة الراغبة - مقعية كالإمبراطورة تنتظر ما سيسفر عنه الصراع ، . ولربما مالت لواحد منهم وأعطته نفسها ، وربما نفرت منهم جميعا فإذا هم قد انسحبوا فى الحال فى هدوء وتحضر ! ومهما بلغ جنون الرغبة عند أحدهم فإنها لا تصل مطلقا إلى حد الاغتصاب كما يحدث بين البشر ! إلا قوة فى الأرض تستطيع اجبار كلبة على الاستسلام للاغتصاب مهما كانت ضعيفة والمغتصب قويا؛ إن لها مقاييسها الخاصة فى الاختيار والرضوخ بمحض إرادتها. هذا - فيما تقول دون حياء أو تحفظ - هو الجنس كما خلقه الله : أن تتوافق الرغبة عند طرفين فيحدث التلاقى فتكون المتعة عظيمة .. والرأى عندها أن مؤسسة الزواج قد ثبت فشلها منذ زمن بعيد حتى بالنسبة للغرض الأساسى منها وهو حفظ الأنساب.

كان طلعت الامبابى يعلم كل هذا سلفا ويوقن أنها متحررة جدا كما يوقن أنها إلى ذلك غويطة وليس من السهل ادراك اعماقها ، فلقد تقلب عليها أرهاط من زبانية القيادات والكوادر من ذوى الأسماء الكبيرة فى الحركة الشيوعية وبخاصة أولئك الفوضويون الذين دخلوا الحركة الشيوعية دون وعى حقيقى بجوهرها وإنما لمجرد أنها ذريعة للتحرر من كثير من القيود ؛ كلهم عقروها وتركوها فى العراء تداوى نفسها بنفسها حتى امتلأت بجروح لا حصر لها أفقدتها الثقة فى جميع القيادات جميع التوجهات لكنها مع ذلك بقيت محصورة فى إطار هذه النوعيات من البشر لأن من يدخل الحركة الشيوعية يصعب عليه الخروج منها وقد تورط فى مواقف فى علاقات ليس من السهل التملص منها كما أنه تقريبا يكون قد أدمن هذه النوعيات التى تعرف بعضها ولا تتكيف إلا مع بعضها البعض . يعرف طلعت أنها لم تعد تؤمن بأى شئ على الإطلاق لكنها فى المقابل لم تعد صالحة للعيش

بين نوعيات جديدة مختلفة ، هى لا تشعر بكيانها إلا بين هذه النوعيات حتى وهم يمارسون عليها النصب والكذب والادعاء باسم المبادئ ومستقبل الطبقة العاملة ؛ لم تعد تسخط عليهم ولا تشمئز منهم ، ربما لأنها هى الأخرى تمارس عليهم نفس السلوك فإن واعدها أحدهم بأن يلتقيها غدا فى المكان الفلانى فى الساعة كذا لقضاء المصلحة الفلانية فإنها تنصت إليه بجدية واهتمام مؤكدة التزامها بالوعد لكنه مجرد كلام سرعان ما تنساه بمجرد أن تعطيه ظهرها ، لا تذهب إلى الموعد لوثوقها من أن الآخر - هو الآخر - لن يجئ مطلقا ؛ ثم إنها اعتادت حرب الاشاعات والتشهير أصبحت محقونة بمصل منها يقيها من الاصابة بأضرارها ، فأينما التقت بالرفاق فى أية لحظة فإن الحديث يكون نهشا وتمزيقا فى أحد الغائبين فلا هى تثق فيما يقولون ولا هم يصدقون أنها صدقت بل إنها لا تصدق حتى ما تقوله هى نفسها فى مثل هذه النميمة لأنه مجرد اعتياد على مجاراة الحديث أينما اتجه بمرونة فائقة ، ولا بأس فى نظرها من مجاراة أى شئ طالما أنها فى النهاية لن تفعل إلا ما تريده هى لن تلبى موعدا إلا أن يكون احتياجا ضروريا .

يقول قمر المحروقى بعد تحليله لشخصية طلعت وكيف يفهم شخصية حياة ، إن حياة حينما راهنت طلعت على صالح هيصة كانت فى الواقع تتمنى من أعماق قلبها أن يكسب طلعت الرهان ، يعنى أن يهيج عليها صالح هيصة ويفترسها إذ هى قد اشتهته بالفعل وشعرت لرائحته الزنخة بنشوة خاصة ، وقد راق لها هذا الرهان فبيتت النية على الايقاع به فوق أرضها مهما كلفها ذلك من جهد حتى لو أدى الأمر إلى اغتصابه فى مغامرة دونية لا تخلو من سحر وطرافة ؛ ليس مهما عندها أن يكسب طلعت الرهان أو يخسره إنما المهم أنها لابد أن تكسب الموقف وتصل مع جنون النشوة إلى أقصى مداها .. هكذا اعترفت حياة لقمر بلسانها وهى تحكى له تفاصيل المغامرة مع سيجارتى حشيش فى لحظة ذات شجون فى حديقة الجامعة الامريكية .

شقتها في روكسي بمصر الجديدة عبارة عن حجرتين كبيرتين احداهما متاخمة للباب – وهي المكتب والمكتبة – والأخرى في الداخل مجاورة للحمام والمطبخ – وهي للنوم – أما الردهة فأشبه بالكرش دائرية وواسعة تتسع لأنتريه وترابيزة سفره دائرية بستة مقاعد مع خزانة زجاجية للأطباق . ثمة ستائر مخملية على الباب من الداخل وشباكان مطلان على المنور ، وعلى الفتحة الفاصلة بين الردهة والممر المؤدى إلى المطبخ فالحمام فحجرة النوم .

في الردهة أجلست صالح هيصة ، أتت له بزجاجة الكولا وزجاجة السبرتو الأحمر من الثلاجة ، ودورق وكوب ، وبعض مزة خفيفة وضعت ذلك أمامه :

– « شوف نفسك يابو الصلح !»

اختفت خلف ستارة الممر الثقيلة كالجدار . انشغل صالح بإجراء الخلطة . راح يجرع في اشتياق والحرقان يشحط حلقه يلهبه فيشعر لذلك بلذة . ثم بدأ التنميل في دماغه مع سحب من ضباب تخايل عينيه ، ثم زحفت على خياشيمه رائحة عطر عبقرية عبأت الجو كله برائحة أنثى بحجم هذا الكون ؛ فارتعدت فرائصه ؛ استيقظت في داخله مشاعر قديمة كان يظن أنها اضمحلت ؛ تحركت في أعطافه مناورات خفية فشعر كأن عروقه تتمشى فيها دبابات ومصفحات وكتائب من المشاة بمدفعية ثقيلة؛ فجأة اكتشف بأنه لايزال شابا فتيا في الخامسة والعشرين من العمر مع أن شهادة ميلاده تنص على أنه في الخامسة والاربعين، رفع رأسه ليواجه شبح الرائحة المسكرة، رأى حياة البرى في صورة أخرى تماما، رأى شيئا لايصمد أمامه أعتى الورعين ، جسدامبروما وموزونا بدقة إلهية معجزة تبرز تفاصيله كاملة خلل قميص نوم شفاف أسود كأنه مجرد سحابة رقيقة من دخان السجاير ، البطن الضامر مشدود للخلف تتوسطه سرة كمليم معضوض ؛ من تحتها سوة لطيفة كالرغيف البلدى القابب ، تنحسر قليلا في الأسفل لينحصر التكور بين الفخذين كجوفاية مخبأة في منديل حريرى وردى اللون مشبوك بحمالات ملفوقة حول خصر دقيق تتعلق به من الخلف عجيزة مدورة مشقوقة من

المنتصف حيث ينساب الفخذان فى نعومة كقرطاسين من المرمر ، ناهيك عن سمانتى القدمين الحافيتين .

انزرع المشهد فى عينى صالح فسمره فى مكانه شاحب الوجه ناشف الريق متلاحق الأنفاس .

اقتربت منه فى دلال وتثن ، وبصوت أنعم من مفرش سريرها الحريرى :

- « روقت يا صلوحه؟»

جلست فوق ركبتيه ؛ أحاطت كتفيه بذراعها ، مالت قليلا على كتفه فتدفقت جدائل شعرها الأسود الفاحم على رأسه ؛ اندلق ثدياها السائبان تحت غلالة القميص العارى الظهر والكتفين ، الثديان مبططان كرغيفين من العجين قبل دخولهما إلى الفرن ، وقد التصق العجين ببعضه فى أعلى لوح الصدر وانفصلا عن بعضهما فى الأسفل وقد دبت فيهما الحيوية فانتصبت الحلمتان اخترقتا غلالة القميص صارتا جمرتين تلهبان كتف صالح .

ارتبك ، صار يضحك ضحكات جعلها التوتر الشديد تبدو بلهاء . كان يرتدى جلبابا من البوبلين الأبيض بياقة وأساور ؛ وفوجئ بحياة البرى تتفزز فى قعدتها ثم تقف مذهولة جاحظة العينين يلمع فيهما بريق جنونى . لاحظ هو أن نظراتها تصب فى حجره. شعر صالح بحرج شديد فحاول إخماده ونسيانه ، ركعت حياة أمامه ، راح صالح يهدر بضحكاته البلهاء يتقوس يحاول إبعادها كطفل يهرب من الزغزغة .. صالح يحاول بكل قوته أن يزيحها :

- « لو سمحتى يا ست هانم! طب نتفاهم الأول بس !» .

هى من اللهاث لا تجد صوتها فتطلق فحيحا وقد تعلقت بذراعيها فى رقبته راحت تمرجح نفسها بمرونة ولياقة عفية . فلم يجد مفرا من الوقوف بها حاضنا إياها بذراعيه . مشى بها قليلا وهى تصيح فى رجاء :

- « خش جوه على أوضتى!» .

إلا أنه اختار الكنبة الطويلة ومال فوضعها فوقها مخلصا رقبته من يديها ؛ ثم تراجع بظهره لاهثا وجلس على المقعد المجاور لها وصدره يعلو ويهبط والابتسامة محفورة على وجهه فاقدا النطق. أشعل سيجارة ، جرع رشفة وراح يدخن بشراهة. هبطت حياة من أعلى جبل الأوليمب إلى منخفض القطارة صارت هشيما تذروه الرياح . إلا أنها كانت دائما تجيد علاج نفسها في مثل هذه المواقف الحرجة ، لقد أطفأت بعض نيرانها وكتمت بقية الجمرات تحت رماد الأعصاب الفولاذية التى تمرست بالاعتقالات ومفاجآت الشرطة . جعلت تنظر لصالح فى جدية هذه المرة ، بعين جديدة ، عين إنسانية مدربة على مراجعة النفس وانتقادها والتسليم بالهزيمة بروح رياضية كبطل خسر مباراة وعليه أن يتعلم منها بدلا من لعنها. أشعلت سيجارة ، ركزت عينيها الساخرتين السوداوين الفياضتين بدفء الصعيد الحضرى المترقق . ظهر فى عينيها أنها بالفعل أمام نموذج إنسانى يستحق الدراسة وليس مجرد مسخ يجلب السخرية . ارتعشت الابتسامة على شفتيها تكسرت الكئوس الأنثوية على رخام صوتها البارد . سلطت عليه عينيها :

- «خايف ؟!»

- «ومستعبر !»

- «خلينا فى الخوف الأول ! تخاف ليه ده أنا وأنت وبس فى الشقة ؟!»

- «وربنا ؟!»

- «والسكر ده .. ما يغضبش ربنا ؟!»

- «لأ ما هو .. عايز أقول لحضرتك حاجة ! حاكم ربنا وسبحانه وتعالى ماهش من غير مؤاخذة فاضى عشان يقعد لكل واحد من عبيده ويمسك له على الواحدة !! ربنا رب قلوب ! شايف وعارف ! الشرب ده باضر بيه نفسى بس ! وحتى لو كانت الهيصة اللى باعملها حرام !! مفيش داعى أكبر الملف بتاعى وازود العقوبات على نفسى يوم القيامة !!»

رددت – كأنما لنفسها – فى اقتناع : «كلام جميل يا صالح !» ، ثم نفضت زهرة السيجارة فى المنفضة برشاقة وسحبت نفسا عميقا وشردت مبقية السيجارة قرب أنفها ، ثم استدركت كأنها تذكرت شيئا مهما جدا :

– «لكن إيه القوة دى ؟! إزاى قدرت تمسك نفسك مع إنى كنت حاسة بيك وأنت بتتنفض نفض وكنت واثقة أنك خلاص دخلت في الفعل ومستحيل تعرف تخرج ؟! ده موقف لا يمكن أنساه طول حياتي !!»

– «أنا ماكنتش دخلت يا ست هانم ! أنا اندخلت ! يعنى أنا اللى أقدر أطلع اللى دخلنى من غير استئذان كإنى وكالة من غير بواب !! ما تعرفيش يا ست هانم إن العملة اللى حضرتك عملتيها فىّ دى المتنى ؟! لمؤاخذة كإنك ضربتينى بالصرمة القديمة ! الله !! مش أنا بنى آدم برضه يا ست هانم ؟! وراجل ؟! يعنى من حقى فى أى لحظة أبقى عاوز وفى لحظة تانية مش عاوز !! وهى الأمور تيجى كده برضه من غير إحم ولا دستور ؟!»

زامت بعمق وهى تتأمله بعينين تقولان بوضوح : بالعكس فأنت رجل ولا كل الرجال كما أثبت لى الآن . إلا أنها لوحت بذراعها إلى الوراء متذكرة :

– «نيجى بقى للاستعبار ! يعنى إيه استعبار ؟!»

– «احترام النفس يعنى من غير مؤاخذة !»

– «بمعنى ؟!» .

– «أهلنا زمان قالوا : اللى ياكل في ماعون ميصحش يوسخه !! واللى يدخل بيت ينفض رجليه قبل ما يدخل !! وأنا بسخصيتي دخلت بيتكم وكان لازم انفض نفسي من أساسها ! إزاى بقى البيت يكرمنى وأعمل فيه دقة نقص ؟! وكمان الأستاذ طلعت صاحبى وبينه وبينى عمار وحضرتك من طرفه يعنى لازم أحافظ عليكى كأمانة مش ألحس منك لحسة دناوة !!»

انساقت وراء العبث فضحكت فى نزق ، وصاحت متعمدة أن يسمع طلعت صوتها :

– «من الناحية دى اطمئن ! طلعت نفسه عارف وموافق وكل واحد حر يعمل اللى هو عايزه !!»

انحرق وجه صالح ، تناثر الزبد على شفتيه والشرر فى عينيه .

– «الأستاذ طلعت عارف ان حضرتك حتعملى معايه كده وموافق عليه ؟!»

هزت رأسها بالإيجاب مع همهمة صوتية :

– «آهاه !»

– «يبقى لمؤاخذة عرص ابن عرص وأنا مش مستعد أعرفه تانى ! يا نهار إسود ومنيل بستين نيلة ! ده أنا على كده كنت مغشوش فيه بافتكره راجل حر ومحترم !!»

هكذا اندفع بانفعال مخيف وهو يصفق كفا على كف . فى الحال كفت حياة عن الضحك ؛ فى جدية ، وبنبرة صدق واضحة وقفت تصفق بيديها فى استحسان ، ثم انحنت فى تبجيل بحركة مسرحية ، وتقدمت منه فى وجل :

– «فعلا فعلا إنت راجل يا صالح ! تستاهل تقلك ! أنا سعيدة جدا إنك هزمتنى ! على الأقل وفرت على رهان كان حيبقى تقيل على نفسى قوى لو دفعته ! وبصراحة إنت ماهزمتنيش ! لأ ! ده أنت نصرتنى ! أيدت وجهة نظرى ! طب تصدق بالله يا صالح ؟ والله العظيم أنا نفسى أتجوز راجل زيك ! لكن بما إن ده مستحيل مؤقتا خلينا نبقى أصدقاء ! وعشان اثبت لك صداقتى حاشرب من مشروبك ! من نفس كاسك ! أهه !!»

سحبت كأس السبرتو ، جرعت منه جرعة تقلصت منها كل عضلات وجهها؛ ثم أعطت الكأس لصالح : «فى صحتك» ، فجرع هو الآخر كأنه يوقع بإمضائه على الميثاق الذى أبرم بينهما لتوه . انفلتت هى مهرولة فاختفت

خلف ستار الممر ؛ واندمج هو فى الشـرب والتدخين بإيقاع سريع حتى أوشك على الإجهاز على الدورق والزجاجتين . ثم ظهرت حياة مرتدية جلبابا منزليا كاسيا فبدت امرأة أخرى تماما . أزاحت الستارة الثقيلة فانفتح الممر ؛ نادته باحترام كأنها تنادى زوجها أو أخاها :

- «تعالى يا صالح !»

نهض واقفا ثملا يكاد يترنح لكنه يبتسم فى توجس . ذهب إليها . سحبته من يده فى رفق إلى باب الحمام ؛ أشارت إلى البانيو :

- «خد لك حمام سخن عشان تفوق وتعرف تتغدى ! طابخة لك بطة !»

لم تنتظر رده ؛ دفعته إلى الداخل ثم سحبت الباب وأغلقته بإحكام ؛ وتصنعت كأنها سمعت طرقا على الباب فصاحت :

- «مين اللى بيخبط ؟ لحظة واحدة !»

ومشت إلى باب الشقة ففتحته بصوت مسموع ثم هللت فى ترحيب حار :

- «أهلا أهلا وسهلا ! جيت فى وقتك ! اتفضل !»

ثم أغلقت الباب بصوت مسموع ، لعلها رزعته ، ثم مضت إلى حجرة المكتب فنقرت على بابها نقرا لا يكاد يسمع ؛ فانفتح بابها عن وجه طلعت شاحبا شحوب الموتى وأصابعه تدعك فى شاربه بتوتر كبير . همست له وهى تغلق الباب وراءه كما كان : «إنت اللى لسه جاى حالا هه ؟» ، فهز رأسه موافقا فى سأم ثم مضى إلى الأنتريه فجلس يواصل التدخين متجهما صامتا . أما حياة فاتجهت إلى المطبخ لتجهيز الغداء . وفيما هم يتحلقون المائدة كان صالح هو الوحيد الذى يأكل بهية دون شره ، وما أن انتهى من الأكل حتى هتف .

- «اللهم لك ألف حمد وألف شكر !»

وأردف بعد برهة :

- «الواحد ناقصه بقى يشم شوية هوا نقى !»

قالت حياة :

– «فين يعنى ؟ فى جنينة الحيوانات مثلا ؟!»

قال صالح بتلقائية :

– «لأ ! فى مكان نقى باقول لحضرتك !»

– «زى إيه طيب ؟!»

– «زى شارع معروف مثلا !»

فتبادلت حياة مع طلعت نظرة جمدها الذهول .

منذ ذلك اليوم – يقول قمر المحروقى – لم يلن وجه طلعت الإمبابى أمام عينى صالح هيصة أبدا ، أو بتعبير صالح نفسه : «ما بيدنيش وش !» . وقد علق مصطفى لمعى من تحت لتحت :

– «مش جايز يكون وشه ضاع منه يا صالح ؟! انت عارف الحرامية اليومين دول كتروا وبيسرقوا الكحل من العين !! واجب عليك تساعده لحد ما يلاقيه مش تزعل منه ؟!»

وقال الممثل زكى حامد :

– «أهو أنا بقى اللى نفسى ومنى عينى أسرق وش صالح هيصة عشان أمثل بيه شوية أدوار !! لو كان القناع يجيب نتيجة كنت جبت واحد ينقله !!»

ضحك صالح قائلا بلهجة ذات معنى :

– «ألفهولك فى ورقة ؟!»

ضحكنا ضحكة صاعقة . وكان فاروق الجمل يتأهب للكلام لكن إبراهيم القماح قال بخبث أولاد البلد الخفيف الظل :

– «عم صالح بقى لازم يقول لنا إيه اللى حصل بينه وبين طلعت ! أكيد فيه سبب وأكيد تعرفه أو على الأقل حاسس بيه !»

هتف فاروق الجمل كأنه يشرع فى إلقاء قصيدة من قصائده العامية ذات النبرة العالية الغاضبة فى حدة ، مضيقا ما بين حاجبيه :

- «وأكيد من حقنا نعرفه باعتبارنا أصدقاء للطرفين ! مش كده وإلا إيه يا صالح ؟!»

قمر المحروقى يقاوم ليكتم السر الذى حكاه لى منذ بضعة أيام وحكيته بدورى لمصطفى فحكاه لإبراهيم الذى حكاه لفاروق وقد شدد كل منهما على الآخر بألا ينبس بكلمة تفضح هذا السر ، فطلعت مهما كان صديقنا ولا داعى لفضحه وإلا سقطت هيبتنا جميعا فى مكان كهذا . كان من الواضح أن السر يأكل صدر قمر يدق أضلاعه مطالبا بالبوح العاجل ؛ ففتح فمه ملوحا بذراعه فأيقنت أنه سيقول الحكاية كلها ؛ فتنحنحت وأنا أغمز له بعينى راجيا إياه أن يمسك عن البوح ليظل الأمر فيما بيننا وحدنا سيما وأن صالح لو قتلناه فلن يفك حنكه بكلمة واحدة عما دار وجرى . تراجع قمر قائلا :

- «الموضوع طويل يا جماعة ما يتحكيش !»

لحظتئذ اعتدل صالح ومدد ذراعيه فوق ركبتيه فى وضع الإقعاء تمهيدا للوقوف ؛ ثم قال بنبرة صدق :

- «لا طويل ولا حاجة يا أستاذ قمر ! ده كلمة ورد غطاها أول عن آخر !!»

تحداه قمر هاتفا بصبيانية حميمة :

- «طب لو كنت راجل صحيح تقوله !»

صاح إبراهيم القماح بلهفة :

- «نحب نعرفه والنبى عشان ضميرنا يستريح !»

- «موضوع بسيط خالص والله يا جماعة !»

شخط فيه مصطفى لمعى كأنه رئيس المحكمة :

- «إيه الموضوع باختصار ؟!»

هتف قمر :

- «باختصار لأ ! بالتفصيل الممل كمان !»

قال صالح :

- «الموضوع وما فيه إن الأستاذ طلعت أصبح فى هيصة ! بيعمل هيصة !!»

احتج قمر :

- «يعنى إيه بيعمل هيصة ؟! ويعمل هيصة ليه ؟!»

- «عشان يلحق الهيصة ! يعنى لمؤاخذة ياخد قرشين سقع حلوين ! يمسك منصب كبير !!»

تغيرت ملامح قمر وهو ينصت بجدية هائلة :

- «منين ياخد قرشين ومنصب ؟!»

- «من العراق ! فى العراق!»

- «مش فاهم !»

- «يا بيه أصل صدام حسين فى العراق بيعمل الهيصة ! هو راخر عاوز يلحق الهيصة ! أنا أصلى شفته كتير أيام ما كان بيتعلم فى مصر وأنا كنت ماسك النار وحجارة الشيشة فى قهوة فى الجيزة كان هو بيقعد عليها مع الأدباتية والسياسيين ! أنا فهمته على طول وعرفت ان فى دماغه شيطان كبير قوى ! لفت الأيام وبقى هو رئيس العراق ! لكن العراق أقل منه فى نظره ! قال لك جمال عبدالناصر مات أحل أنا محله بقى واحكم العرب ! عينه اتحطت على مصر ! الصحفيين وكل الألاديش اللى كانوا تبع جمال عبدالناصر اتهيأ له ان هما اللى عملوا زعامة عبدالناصر ! بعت ناس تتفاوض معاهم عشان يشتغلوا له فى العراق هتيفة ويزعموه ! اللى صحفى صحفى واللى كاتب كاتب واللى أونطجى أونطجى مايضرش ! حياخدوا ماهيات بالكيلة طبعا !»

- «يا بنى آدم أنت ! إيه دخل طلعت الإمبابى فى اللى انت بتحكيه ده ؟! إنت فاكرنا مساطيل ؟!»

- «مانى جايلك اهه ! الأستاذ طلعت دلوقت زمانه انتهى من عمايل الهيصة ! وحيلحق الهيصة اللى فى العراق ! مش الأستاذ طلعت من غير مؤاخذة كان عضو فى البتاع ده اللى اسمه التنظيم الطليعى ؟! رجالة صدام نقوا شوية من البتاع ده

عشان يروحوا يشتغلوا عند صدام ! اللى صحفى واللى مذيع واللى استاذ جامعة. واللى مش مهم يكون أى حاجة مادام حيسبح بحمد صدام ويشترك فى الهيصة بتاعته !»

– «طلعت الإمبابى ! حيسافر العراق ؟!»

– «ده بقى له شهرين بيحضر البازبورت ! وخد إجازة خلاص من الجامعة ! وتذاكر الطيارة جات له كمان !»

متشككا سأل مصطفى :

– «جبت منين الكلام ده ؟!»

– «لسانه وقع من حنكه ! نتور كلمتين تلاتة كده على الطاير ! اتشعلقت أنا فيهم : مسافر فين ؟! راح مشوح وساكت : الست بتاعته صافية متعرفش اللوع ! حكت لى الحكاية كلها رحت أنا ساكت ! لكنه سألنى إيه رأيك ؟ قلت له الصراحة : نفسك تعمل الهيصة ! من بدرى وأنت عاوز تلحق الهيصة ! خلاص اتكل على الله والحقها ! زعل وكشر ! الست ردت بالمفتشر ! قالت لى يا عم صالح لازم يبقى لنا بيت ملكنا ولازم نعمل حساب ولادنا اللى جايين ونعيش العيشة اللى تناسبنا ! قلت لها حقك يا ست هانم ! من يومها وهو مقلوب من ناحيتى !! يعنى كنت أضحك على نفسى وأقول له براوة عليك ؟! فى وشه ولا تغشه على رأى المثل !!»

ثم انتصب واقفا ، دخل الدار يبحث عن شئ ما . وقف قمر وراح يتمشى ذهابا وعودة واضعا يديه فى جيبيه وقد تغير لونه إلى بياض شمعى بغير دماء ؛ صار يدمدم فى غيظ :

– «وما يقولناش ؟! ده انت هتاريك غويط قوى يا طلعت !! طب على الأقل إدينى فكرة !»

وكان قد شملنا صمت عميق ؛ خيم علينا شئ أشبه بالحزن كأننا تلقينا خبر موت صديق لنا . ويبدو أننا قد أفقنا جميعا مما شربناه ؛ إذ التأمت القعدة من جديد ؛ استأنفنا الشرب بعمق واستغراق وجدية كأننا نشرب فى آخر زادنا .

شبح الهيصة

كان مصطفى لمعى مرشحا – فور تخرجه فى كلية الفنون الجميلة فى أوائل الستينيات – للسفر إلى إحدى الدول الاشتراكية فى بعثة دراسية باعتباره من المتفوقين فى فن التصوير الزيتى ومتقدما على رأس خريجى دفعته . وقد ظل ينتظر دوره فى السفر بضع سنوات ؛ ورغم يقينه أنه لكى يسبق أقرانه إلى السفر عليه أن يتنازل عن بعض كبريائه بعض قيمه الأخلاقية ، كأن يتزلف يتملق يستجدى يتطوع بكتابة التقارير السرية عن النشاط السياسى لزملائه وأساتذته ؛ فإنه مع ذلك عاش يغذى الأمل فى نفسه بأن الحياة فى مصر لابد أن تكون محتفظة ببعض العادلين الذين يمكن أن يعطوه حقه ولو بضربة حظ . ولكن لأنه كان واثقا فى أعماقه أن عصر العدالة قد انمحى من الوجود إلى غير رجعة، لذا فقد كان يغرق همومه وحيرته فى التحشيش بتركيز وتوسع حتى أصبح حشاشا قراريا لا تعرف البهجة أو الفكرة طريقا إليه إلا عبر التعميرة الجيدة مع أنه فى الأصل شرب الحشيش من أجل خاطر عيون الأماكن العامة التى يتم فيها التحشيش بأشكالها وأوضاعها وناسها وعالمها الغنى الموحى للرسام بلوحات فيها زخم الحياة .

جاء عليه حين من الدهر سئم الحياة فى مصر تماما ؛ فليس ثمة من فرصة للتحقق بل إنه حتى لم يعين معيدا فى الكلية رغم أحقيته . إنه لمحب للمغامرة وقادر عليها فلماذا ينتظر ؟ .. وهكذا قرر السفر على نفقته الخاصة ، منها دراسة ومنها اكتشافات للعوالم الأخرى ، وما أيسر أن يلتحق بأى عمل ينفق منه على دراسته . لم يكن يملك تذكرة السفر ؛ إنما يملك أختين متزوجتين زيجات ناجحة ، وهو الولد الوحيد عليهما ، ومع أنهما كانتا تتمنيان بقاءه فى مصر بل فى القاهرة على وجه التحديد كسند لهما فى الحياة فإنهما رأتا أن مستقبله

أهم من العواطف ، فرضيتا أن تقرضاه مبلغا من المال تعهد برده في أقرب فرصة . ثم سافر إلى تشيكوسلوفاكيا ؛ أما لماذا وقع اختياره على هذه الدولة بالذات دون بقية الدول فهذا ما لم يفكر فيه أصلا ؛ كل ما في الأمر أن له بعض أصدقاء مصريين وعرب يعيشون هناك وبإمكانهم تدبير عمل له ومكان للإقامة والمبيت ، هكذا قالت الرسائل المتبادلة بينه وبينهم . وقد فعلوا ؛ ألحقوه بالعمل في إحدى ورش الإعلانات المتخصصة في أفيشات السينما وكراسات العروض التي تحتوي على بيانات خاصة بالعروض السينمائية والمسرحية التي توزع على الجمهور بالمجان . في نفس الوقت التحق بأكاديمية الفنون وسجل موضوعا للدراسة كان معنيا به طول عمره من خلال ولعه بالنقوش والرسوم الفرعونية ألا وهو : تفاصيل الوجه الإنساني كممثل للبيئة التي يولد ويعيش فيها وكيف تترك بصماتها على جيناته الوراثية فتقوم بصياغة ملامحه بحيث يتاح لنا أن نعرف - بمجرد النظر - الصيني من الهندي من الإفريقي من الأوروبي .. إلخ .

طابت له الحياة فعلا ؛ فالأسعار معتدلة مدعومة كما أن جميع السلع المطلوبة متوفرة في الأسواق ؛ الحياة سهلة جدا ، لا قيود ولا تعقيدات في أي شئ فمادمت بعيدا عن شغل السياسة فأنت من ذلك في نعيم . الوجه الآخر لسهولة الحياة هو سهولة العلاقات . بهذه السهولة استجابت الآنسة بربارا لنداء عينيه العاشقتين من أول نظرة . بربارا سمايلوفيتش من أصل صربي مختلط بدماء ألبانية ، شكلها شرقي أليف ، مرحة ضاحكة ، جميلة التقاطيع رصينة الملامح وديعة ، ممشوقة القد هيفاء ، رفيعة الخصر ممسوحة الكفل ، ناهدة الصدر طويلة الرقبة ، في العشرين من عمرها ، تحمل شهادة متوسطة تعمل بموجبها موظفة في نفس الشركة صاحبة الورشة مهمتها توزيع المادة الخام على الفنانين : الورق، الألوان ، الفرش وما إلى ذلك من أدوات كلها في عهدتها . بعد حوالي خمسة شهور من الاستلطاف المتبادل ، والخروج معا للفسحة في أنحاء العاصمة وضواحيها ،

وتبادل العزومات ، تم الزواج بينهما فى حفاوة كبيرة من الزملاء وأصدقائهم . استقل بها فى شقة متواضعة نسبيا فى إحدى ضواحى براغ قاما سويا بفرشها فرشا بسيطا . الأجور كانت مجزية والفلوس كافية إلا أن العمل - لكى تكتمل منظومة المصروفات المطلوبة - يأكل الوقت كله فلا يتبقى للدراسة أى وقت على الإطلاق بل لا وقت للراحة المطلوبة للجسد . وفى المرة الوحيدة التى أتيح له فيها اقتناص نزهة خارج المدينة استغرقه التفكير والشجن ؛ أحس فى الحال بخطر داهم يتهدد مستقبله بل يوشك أن يدمره تماما : إن الرسوم الإعلانية قد بدأت تطبع على ريشته تكنيك الإعلان الذى يفرض عليه الكذب الشعورى والابتعاد عن الجماليات الفنية التى بدونها لا قيمة لأى عمل فنى ، ولو استمر على هذا الوضع عاما ثانيا فالمؤكد أنه سيتحول إلى حرفى ، محض حرفى كأى نقاش أمى يتكسب بأشغال لا بأعمال فنية وراءها رؤية وفلسفة وإحساس بالحياة ؛ ثم راح يقارن - تلقائيا - بين الحياة هنا والحياة فى مصر ؛ فاكتشف بقلب مرتاع أن الفروق ليست فى مستوى الاغتراب والبعد عن الأهل والخلان وأرض الوطن ذات السحر الخلاب حيث هو فيه علم ولو صغيرا فى حين هو فى هذا المجتمع الأجنبى نكرة ، مجرد عامل فى ورشة ؛ إن المبرر الوحيد لبقائه هنا هو مواصلة الدراسة والحصول على إجازة الدكتوراه وتحصيل الخبرات الفنية ؛ أما وقد تأكد أن هذا غير متاح بالمرة فأولى به إذن أن يرجع إلى دياره معززا مكرما ؛ فهو على الأقل يستطيع الالتحاق بأى مجلة يحصل منها على مرتب معقول وفى نفس الوقت يحقق حضورا فنيا متوائما مع طموحه . لم يتوان ؛ أبرق إلى شقيقته الكبرى بأن تدبر له شقة يقيم فيها مع زوجه . تشاء الظروف الحسنة أن شقيقته الكبرى كانت على أهبة السفر مع زوجها المهندس المدنى إلى الخليج بعقد طويل الأمد ؛ فرأت أن إقامة شقيقها الوحيد فى شقتها هو أنسب لحفظها وتأمينها . وهكذا عاد مصطفى لمعى ولكنه كان قد أصبح ثلاثة أشخاص : هو وزوجه بربارا سمايلوفيتش وطفلته سارة البالغة من العمر ثلاثة أشهر . الظروف الحسنة نفسها شاءت أن تقرر

إحدى الدور الصحفية الكبرى إنشاء مجلة للأطـفال اسمها العصفور الأخضر جمعت كل زملاء دفعـته ، فالتحق بها بعد أسبوعين اثنين من مجيئه ؛ ليصبح أحد أهم المؤسسين لشلة التحشيش اليومى فى غرزة حكيم . كان سعيدا جدا بطفلته التى جعلت تنمو بسرعة كأن جو مصر الجميل قد نفخ فيها روح شمسه المعتدلة فأنضجت ملامحها فتجسدت فيها ملامح أمه المرحومة وبعض ظلال من أبيه الراحل الذى كان وكيلا لأحد المحامين المشهورين فى وسط المدينة ويملك بيتا عتيقا هـرما فى حى الجمالية يسـتأجره نفر من تجار النحاس المشغول وورش الذهب لكن إيجار البيت كله لا يساوى مشقة الذهاب لقبضه . ما كادت الحياة تضحك لمصطفى حتى أنذرت بعبوس ؛ فجأة ضاقت المؤسسة الصحفية بخسائر المجلة المطردة باستمـرار ، واكتشف رئيس مجلس الإدارة الجديد أن جريدته أنشئت لتلعب دورا سياسيا لا يجوز أن تنشغل عنه بمجلة للأطفال ! مالنا نحن والأطـفال ؟! أهى مؤسسة صحفية أم دار حضانة ؟! .. وهكذا بجرة قلم أغلقت المجلة ؛ ولما كان جميع العاملين فيها يعملون بعقود مؤقتة تتجدد بطلب كل ستة أشهر فقد تم تسريحهم جميعا غير مأسوف على مواهبهم .

اسودت الدنيا فى وجه مصطفى لمدة شهر واحد عجز فيه عجزا تاما عن تغطية نفقاته . فى الشهر التالى جاءته برقية من ليبيا تدعوه للمشاركة برسومه فى مجلة الثقافة العربية التى أنشأها النظام الليبى ليضع ليبيا على خريطة النشاط الثقافى العربى كمصر ولبنان وسوريا والعراق والجزائر ، كذلك أنشأت صحفه ومجلاته الأسبوعية ملاحق مصورة للأطفال .. وعلى مصطفى أن يتصل بالمراسل المصرى المنوط بجمع المادة من القاهرة ليأخذ منه قصصا وسيناريوهات يرسمها ويعيدها إليه . كانوا يدفعون أجورا مجزية حقا ؛ جرى القرش من جديد فى يدى مصطفى أصبح يحشش بقلب جامد وعين قوية . إلا أن وجه الحياة قد عبس فجأة واعتلته سحب من الغيوم الداكنة حجبت شمس ذلك الصباح الذى استيقظ فيه ليجد ابنته الحبيبة الوحيدة مصابة بالحصبة المكتومة ؛ جرى علاجها باعتبارها لطشة برد

حادة ، فما كاد النهار الكئيب ينقضى على ترموميتر الحرارة المتصاعدة حتى لفظت الطفلة أنفاسها صبيحة اليوم التالى فى هدوء ؛ غافلتهم روحها أثناء غفوة لم تستغرق دقائق معدودة فتسللت من جسدها مغادرة إلى غير رجعة .

الحادث كان قاسيا جدا علينا جميعا . شغلنا موتها المفاجئ الصادم عن مسألة سفر طلعت الإمبابى إلى العراق كاتبا فى جريدة الثورة ليكتب عن القومية العربية فى ظل زعامة تتأهل لقيادتها بعد رحيل عبدالناصر . جلساتنا أصبحت مركزة على مواساة مصطفى ومحاولة تخفيف حدة ألمه إلا أن حزنه كان عاصفا حتى كاد يقتله . تغيرت شخصيته تماما ، آبت إلى رجل نحيل متجهم الوجه على الدوام ، متورم الملامح من فرط البكاء الحارق ؛ ضاع منه المرح ، لم يعد يتذوق النكتة ، يقضى الوقت كله صامتا كالمتجمد ، صار كسير القلب لا يهش ولا ينش ، ضاق بالحياة فى مصر سيما وقد يئس تماما من البعثة الدراسية وتأكد أنها محض كابوس يجب التحرر منه فورا بالرحيل عن البلاد إلى أى مكان بعيد . يبدو أن مفاوضات قديمة قد جرت بينه وبعض أصدقائه فى مختلف البلاد العربية بحثا عن عقد عمل له فى أية دولة عربية ، فلقد فوجئنا ذات يوم بالمراسل المصرى يرسل له عقدا جاءه من ليبيا .

الشلة لم تكن تعرف عن هذا العقد شيئا . ومصطفى الذى اعتاد أن يمسك بمحفظة جلدية تخينة لها حلقة جلدية يدخل فيها رسغه ويتركها معلقة فيه أثناء السير ، يضع فيها نوتة اسكتشات وبعض أقلام من الفحم وجواز السفر والفلوس وعلبة السجائر ومفاتيح الشقة ؛ وضع هذا العقد بصورتيه مطويا أربع طيات فى المحفظة ثم أهمله لمدة تزيد على شهرين دون أن يوقعه أو حتى يقرأه . وفيما كنا جلوسا أمام الربوة العالية فى طراوة العصر الأغسطسى الخانق فوجئنا بالمراسل المصرى يطب علينا وبرفقته المطرب النوبى الشهير فى النضال السياسى أكثر منه فى الطرب : محمود زغاليل ، صديق مصطفى وزميل دفعته قسم الديكور . من العتاب المتبادل بينهما فهمنا أن المراسل قد تعب من مطاردة

مصطفى لأن الليبيين يستعجلون وصول الاثنين معا : العقد ومصطفى ، فلما لم يتمكن من العثور عليه فى البيت لجأ إلى صديقهما المشترك محمود زغاليل الذي اصطحبه إلى هنا متعهدا بأن ينهى الموقف لصالح العقد من أجل مصلحة مصطفى .

فتح مصطفى محفظته ، أخرج العقد مطويا كالمنديل قدمه إلى المراسل الذى انبسط وجهه وهو يفك طيات العقد ليفصل نسختيه فيحتفظ بواحدة ويترك الأخرى لمصطفى مرددا فى انشراح : مبروك ! ألف مبروك ! ، ثم قلب الصورتين باحثا عن توقيع مصطفى فلم يجده ، تقلصت عضلات وجهه شحبت ، نحى العقد جانبا صار ينظر فى وجه مصطفى متفحصا كأنه ينظر فى إحدى عجائب الدنيا السبع:

- «ما وقعتش ليه طيب ؟!»

- «أسف يا صلاح ! مش حاقدر أوقع !!» .

تلقى المراسل صلاح هذه الكلمة كما يتلقى دبشة تفتح الدماغ ؛ فألقى بالعقد على كرسى بجواره واستغرق فى صمت محزون وكان من الواضح أنه يبحث فى دماغه عن تعليق مناسب . أما نحن فقد صرنا نتبادل النظر فى ذهول وقد عقدت الدهشة ألسنتنا ؛ من ناحية لأن مصطفى لم يحدثنا فى أمر هذا العقد من قبل ، ومن ناحية أخرى لأنه يرفض التوقيع بهدوء بكل استهانة بل وبلهجة رنت فى أسماعنا بنبرة من يتشبث بآخر عمود يقوم عليه صرح كبريائه ..

- «تسمح لى يا أستاذ صلاح ؟»

هكذا قال قمر المحروقى وهو يمد يده ليمسك بالعقد .. لم يأذن له صلاح ، لكنه لم يمنعه ، فراح قمر يجرى بعينيه على بنود العقد وقد تمشت الدماء تحت بشرة وجهه فى مهرجان من الفرح والدهشة ثم طواه قائلا :

- «أما مالكش حق يا مصطفى ! ترفض عقد زى ده إزاى ؟!»

انفرجت أسارير صلاح قليلا : هز رأسه علامة الأسف تأييدا لدهشة قمر : فكان هذا إيذانا لنا بأن نتداول العقد نتفحصه بدقة نفتش عن سبب واحد ظاهر أو خفى يبرر لمصطفى رفضه ؛ فلم نجد إلا فرصة لا تعوض ، ينص العقد على تعيين مصطفى لمعى رساما من الدرجة الأولى الممتازة فى جريدة الثورة - كل بلد فيها جريدة ثورة !! - بمرتب قدره ألف دينار ليبى فى الشهر نظير المشاركة فى التوضيب ورسم الموتيفات والقصص والشخصيات العامة ؛ وأما إن قام بأعمال إضافية لأية مطبوعة من مطبوعات الدار فإنه يحاسب عليها ؛ كذلك ينص العقد على منحه مرتب ستة أشهر مقدما ليرتب بها مسكنه وانتقاله على أن يخصم المبلغ من مرتبه بنظام التقسيط المريح .

صرنا جميعا ننظر إلى مصطفى نطالبه - فى صمت - بتوضيح الأسباب - الخطيرة بلا شك - التى تجعله يرفض التوقيع على عقد كهذا ربما لا يحصل عليه أحمد بهاء الدين نفسه !! لكننا لم نظفر منه بطائل ، فبقى الصمت ضاربا أطنابه فوقنا لمدة أربعين خمسين حجرا لم نشعر بها على الإطلاق . كان الغضب المكتوم قد ربط بين وجه المطرب محمود زغاليل والمراسل صلاح السيسى فى كلبشات من التجاعيد الحديدية الصلبة ؛ فلقد أعطيا لمصطفى فرصة كافية على أمل أن يتراجع عن موقفه أو حتى يناقشهما فى سبب الرفض . أخيرا قال محمود زغاليل بعد أن تنحنح وسلك زوره كأنه سيغنى :

- «العقد مش عاجبك يا مصطفى ؟!»
- «بالعكس ! ده أكتر مما أستحق !!» .
- «لك شروط معينة نقدر نناقشها معاهم بالفاكس ؟!»
- «إطلاقا ! ماليش أى شروط !»
- «إيه اللى مانعك من التوقيع ؟!»
- «أسباب شخصية خاصة جدا !!»
- «يلا بينا يا صلاح !»

هكذا هتف محمود زغاليل بلهجة من يود أن يقول : خلاص اتفلق ؛ لكنه قال واقفا :

- «باى باى يا جماعة ! آسفين لإزعاجكم !»

سحب صلاح من يده ومضيا فاختفيا فى السرداب الجانبى القصير؛ فعرفنا بالبداهة أن محمود سيمر على دكانة على منجه على ناصية هذا السراب ليتزود منه بتعميرة إذ ليس من المعقول أى يجىء إلى حى معروف وينصرف خاليا من المونة .

قال قمر بانفعال حاد :

- «إزادى ترفض عقد زى ده يا مصطفى ؟ إنت اتجننت ؟!»

قال فاروق الجمل متحسرا :

- «يدى الحلق للى بلا ودان!!»

وحملق فيه زكى حامد بعينيه القويتين منذرا :

- «إلحق الفرصة ما تبقاش مجنون ! دى اللى حتشيلك من الفقر الى الأبد ! اسمع كلامى والحقهم قبل ما يكلموا ليبيا !»

وهتف إبراهيم القماح :

- «أجرى وراهم أجيبهم ؟»

صاح مصطفى بحسم وهو يحتجزه بذراعه :

- «لا لا لأ!!»

لوح إبراهيم بيده السمينة حول رأسه بغمزة لطيفه ذات معنى :

- «إيه الموضوع بالضبط ؟ فيه إيه ؟!»

فأردف قمر :

- «أنا مش فاهمك يا مصطفى ! من وقت قريب كنت بتتنشق على عقد ربع ده! ولما يجيلك السعد كله تتبطر عليه ؟!»

سحب مصطفى نفسا عميقا من الجوزة كتمه فى أنفه فتجهم وجهه صار كوجه الجنين ؛ قال من خلال الدخان المتدافع من بين شفتيه :

- «بصراحة بقى عايز أبعد عن الهيصة ! ماليش فى الهيصة ! مادام جريدة ثورة وما أدراك ما الثورة ! أنا ما اعرفش اعمل الهيصة ! ومش عاوز الحق الهيصة !! »

بهتنا ، ظنناه بمزح ؛ حملقنا فيه ذاهلين ؛ فلما تبين لنا الجد فى وجهه شوح قمر فى مرارة :

- «هيصة إيه وزفت إيه يا أستاذ ؟! إنت حتمشى ورا صالح هيصة ؟! صالح هيصة هو اللى حيتحكم فى مستقبلك ولا إيه ؟! يا راجل اعقل امال !»

رفع مصطفى يده يريد إسكاته :

- «لا معلهش ! إذا كنتوا بتاخدوا كلام صالح على سبيل السخرية فأنا شخصيا مقتنع بيه جدا ! فعلا أنا باستنكف الموضوع ده خصوصا فى الظروف المهببة دى ! عندى أزنكاريا من المثقفين العرب كلهم ! اللى بيعملوا هيصة عشان يلحقوا الهيصة !! يروحوا يشتغلوا هتيفة ! أنا إيه اللى يخلينى أروح اشارك فى صنع أسطورة زعامة جديدة ؟! هى ناقصة ؟! العرب كلهم ما استحملوش زعامة واحدة حيستحملوا تلاتة أربعة ؟! ثم إنكم على علم بان صدام والقذافى وياسر عرفات وزعوا المثقفين العرب على بعض عشان كل زعيم فيهم فى دماغه هيصة كبيرة ويلزمه رجالة تعمل له اكبر هيصة وكل واحده منهم طمعان ان الهيصة بتاعته تاكل الهيصة بتاع التانيين حتى لو كلفته ميزانية قارون ! صحف تنطق بلسانه فى كل البلاد ! إذاعات ! تليفزيونات ! كتب! ندوات ! أقلام ! مسرحيات !! كل المثقفين سابوا مشاكل بلادهم الحقيقية وانشغلوا بتربية وتسمين الزعامات ! وكله باسم الثورة ! باسم العروبة ! شوفوا بقى الثورة أصبحت بتكسب قد إيه !! لا يا عم ! الله الغنى !»

بدا أن قمر قد خرج عن طوره :

«يا بنى آدم انت حد طلب منك تهتف أو تكتب حاجة تمجد فيها الزعيم ؟! إنت

مالك ما تسيب اللى يتزعم يتزعم واللى يهتف يهتف وشوف انت شغلك وبس ! إنت شغلتك محددة :

الرسم ! لا أزيد ولا أقل !»

- «تبقى غلطان لو فهمت ان شغلى كرسام فى جريدة الثورة حيكون خارج الهتاف والتمجيد والكذب على النفس ليل نهار ! ثم إنك مش ممكن تتمتع بأى قدر من الحرية وأنت محبوس فى قفص الزعيم يعنى أى فكرة أو مجرد خاطر مشبوه يمر على بالك تانى يوم ما تلاقيش نفسك !! يا قمر بص فى العقد وشوف المرتب والامتيازات اللى فيه ! يعنى عملية كسر عين مقدما ! حشو بُق ! عشان يا تشكر - يعنى تهتف - يا تبقى لوح مبيحسش!!»

رغم اقتناع قمر بوجاهة ما سمع كما قد بدا على وجهه فإنه شوح بيده فى فروغ بال :

- «هى تربست معاك وخلاص!»

علق زكى حامد :

- «أنا شخصيا اقتنعت بوجهة نظر مصطفى!»

طرقع الجمل بأصبعيه فى غبطة :

- «جاتنى قصيدة جديدة ! صالح هيصة دخل التاريخ يجرى ! راكب حصان من غير لجام ولا سرج ! بيمد إيده يزغد المبسوطين فى البرج ... »

أضاف إبراهيم القماح :

- «ويخطف منهم الدُرج!»

ضحكنا . قال قمر :

- «الخُرج أحسن!»

قال زكى حامد :

- «لا ! الدرج أنسب ! وأشعر ! رمز للفلوس المنهوبة !»

أضاف مصطفى لمعى بمرح مصطنع صوته مشروخ :

- « .. ويخطف منهم الدُرج ! ويوزع اللى فيه ع العُرج !»

ضحكنا بقهقة غوغائية ، ثم لوح إبراهيم القماح بأصابعه الملظلظة على طريقة أولاد البلد عندما يستحسنون شيئا يطربهم .

- «بس براوه عليك يا درش! على النعمة من نعمة ربى إنت واد مجدع تستاهل السلامة ! ده احنا ولاد مصر يا جدع ! ولاد الفراعنة ! إن ما كانش زعيم الأمة دى كلها يبقى مصرى ما ينفعش صدقنى ! هى الزعامة دى لعبة ؟ دى يلزمها ولد يكون جده رمسيس الثانى ! وخوفو يبقى خاله مثلا ! وأمه حتشبسوت ! وأحمس ابن عمه !! وأحمس ممكن يبقى أحمد ما يجراش حاجة طالما حينفع العرب !!»

هذه العصرية الحلوة تكررت عدة مرات . كنا نتوقع أن المكتب الليبى فى القاهرة سيوقف التعامل مع مصطفى نهائيا ، عقابا له باعتباره مش وش نعمة ؛ لكن العصريات الحلوة أنبأتنا على لسان مصطفى أن التعامل مستمر وأن العشم فى توقيعه على العقد لا يزال قائما . وقد انقسمنا إزاء هذا الموقف : زكى حامد والقماح وأنا والجمل مؤيدين لموقف مصطفى جملة وتفصيلا ، بل ومعجبين به ؛ لكن قمر وحكيم يتمنيان أن يلين مصطفى عقله ويهتبل الفرصة . أما صالح هيصة فإنه الوحيد الذى انسحب قائلا - بالحرف - إنه ممتنع عن التصويت : ثم استدرك موضحا :

- «الأستاذ مصطفى ح يعمل اللى هو شايفه!

ده راجل من غير مؤاخذه عقله كبير ميصحش تقول له إعمل كذا ومتعملش كذا ! دى حتى تبقى لمؤاخذه قلة أدب منى !»

رمقة قمر بنظرة تبكيت :

- «إه ! إشمعنى طلعت قلت له رأيك ؟!»

- «لأن طلعت بيه غير مصطفى بيه! طلعت بيه من غير مؤاخذة خفيف ! أنا قلت له رأيى عشان كنت متأكد انه حيسافر حيسافر لو انطبقت السما على الأرض برضه حيسافر ! طلعت بيه نفسه يقوم من النوم يلاقى نفسه بقى رئيس

جمهورية الاتحاد السوفيتى سخصيا عشان يضم لها مصر والعرب ويجيب خراشوف يعمله شيخ أزهر وبادجورنى يمسكه مكة والحرم الشريف ! وياخد شيخ الأزهر يعمله رئيس الكرملين !!»

وأبدا لاتعطله ضحكاتنا المجنونة الزاعقة بما يصحبها من دبدبة بالأقدام على الأرض ، لا ولا ضحكاته هو نفسه تعطله عن الاسترسال :

- «مصطفى بيه بقى وضع تانى ! ما اقدرش أقول له روح ولا ماتروحش عشان أنا واثق ومتأكد إنه مش حيروح !! أصله فعلا ما ينفعش فى الهيصة ! عشان ماهش عامل لنفسه هيصة في دماغه يعنى مش واخد فى نفسه قلم وفاهم أنه أبو على ! ومادام ماهش عامل لنفسه هيصة يبقى مفيش هيصة عاوز يلحقها ! مصطفى بيه غير الفرشة والألوان مش عاوز من الدنيا حاجة !»

لم يكد يمضى على هذه العصرية أسبوع إلا وفاجأنا المطرب محمود زغاليل قادما وفي صحبته الفنان التشكيلى فخر الدين شداد زميل دفعتهما . استغرق الترحيب بهما أربعين حجرا رصها مصطفى بسخاء فى التقطيع . وكان عدد الحجارة قد قارب المائة حينما انتهت الصفقة الجميلة التى شاركنا جميعا فى مباركتها . ذلك أن إمارة أبو ظبى تؤسس لمجلة للأطفال اسمها : (ماك) ؛ وكلفت فخر الدين شديد بالتعاقد مع طاقم للعمل ينتقل للإقامة فى أبى ظبى حيث تتوفر لهم مطابع على أحدث طراز بإمكانيات مهولة ناهيك عن الاستعدادات المادية الكبرى المرصودة لهذا الإصدار بحيث يجيء على أرفع المستويات فكرا وأداءً وتحديثا . ولما كان الخليج العربى بريئا من شبهة الزعامة والهيصة لا هدف له إلا العمل الفنى وحده فإن مصطفى وقع العقد بدون أدنى تردد رغم أن قيمة الراتب كانت لا تكاد تصل إلى نصفها فى العقد السابق . وكان يوما بديعا ذلك اليوم الذى توجهنا فيه جميعا إلى مطار القاهرة لنودع مصطفى لمعى وبربارا سمايلوفيتش ونوصيهما بعدم قطع الخطابات .

طقفان

سفر مصطفى لمعى ترك فراغا كبيرا ، على عكس ما حدث بالنسبة لسفر طلعت الإمبابى ؛ فلمصطفى ظل من الود يصعب افتقاده على من عاشره لفترة طويلة . بعد سفره ببضعة أشهر فرض على الشلة واحد من أجلاب قمر المحروقى هو ذلك المدعو بمرسى خلاف مهندس الفحص فى إدارة رخص مرور القاهرة . فجأة أصبح زبونا دائما يحرص على مواعيد الشلة ؛ ينفق عن سعة ؛ لا غرابة فهو يكسب كل يوم أكثر من خمسمائة جنيه مقابل تغاضيه عن الشروط المطلوب استيفاؤها فى السيارات طالبة الترخيص .

زكى حامد وفاروق الجمل وأنا لم نكن نرحب بوجود مرسى خلاف فى قعدتنا الململمة المتآلفة المتعاطفة المتفاهمة، يركبنا الاشمئناط بمجرد جلوسه بيننا نتيجة إصراره على ممارسة أسلوبه السخيف السمج فى البقششة علينا طوال القعدة: «هات للبهوات كذا على حسابى! خش على البهوات الأول لحد ما يبقوا فى التمام! حاسقيكم تعميرة يمكن ما شربتوهاش طول عمركم ! ما حدش منكم يحط إيده فى جيبه وأنا موجود ! أنا اللى حأحاسب ! أنا اللى حارص ! .. إلخ الخ » . كنا نحتمله على مضض باعتبار أن محدثى النعمة قد كثروا فى هذه الأيام بشكل مقلق .

لكن القعدة تصير ماسخة لا طعم لها ولا متعة فيها على الإطلاق إذا داهمنا مرسى خلاف ومعه وليد رشيد ووجدى الوكيل ؛ مما جعل الرغبة فى تغيير الغرزة تراودنا لولا أن ولاءنا للمكان باعتباره مهد ذكرياتنا الحميمة كان يعطلنا عن الرحيل إلى غرزة بعيدة بل يحملنا على العودة إليها كل يوم بلهفة واشتياق كأنها توشك أن تضيع منا .

يبدو أن محدثي النعمة الثلاثة قد شعروا بأنهم غير مرغوب فيهم إلا من حكيم وحده ؛ إذ ما لبثوا حتى كفوا عن المجيء مرة واحدة . ما كدنا نستشعر الهدوء فى غيابهم حتى لاحظنا أن قمر المحروقى قد بدأ يغيب لفترات طويلة ثم ما لبث حتى اختفى نهائيا هو الآخر . أصبح السؤال عنه ضرورة ملحة ، كل واحد يسأل الآخر عما إذا كان قد بلغه شيء عن سر اختفاء قمر ؟! الاختفاء كان مربوطا باختفاء مرسى ووليد ووجدى وهذا ما جعلنا نستريب فى الأمر بقلق متزايد .

ذهبت الى شقته فى الحى الجديد . صعدت السلم الى الطابق الثالث فى قيظ الظهيرة ؛ طرقت باب شقته المجاور لبسطة السلم على اليمين . سمعت صوتا غليظا يأتى من الداخل صائحا فى عجرفة : أيوه ؛ ثم انفتح الباب عن رجل ضخم الجثة جهم الهيئة يكمل ربط دكة السروال على عجل . صاح فى غلظة وصفاقة مشوحا : «إيش؟!» . قلت محاولا ضبط لهجتى على نبرة تتذرع بآخر أهداب الأدب: «الاستاذ قمر المحروقى من فضلك ؟!» . وضع كفه الغليظة مفرودة بجوار أذنه وهتف عاقدا ما بين حاجبيه : «شنو ؟!» . ارتفع صوتى فوق فوران العصبية:

– «الأستاذ قمر المحروقى قلت لك مش دى شقته ؟!»

– « ما باعرف ! هادى شقتى !»

– «من إمتى ؟!»

– «إيش ؟! تريد تحقق معى ؟!»

وأغلق الباب فى وجهى ، فارتجت الأرض تحت قدمى ، فضربت الباب ببوز حذائى فى عنف ، وبصوت عال لعنت أباه وأب الحيوان الذى أنجبه والظروف القذرة التى أتت به إلى هنا ، ثم جعلت أهبط السلم ببطء وقد وقر فى ذهنى أننى قادر على ضربه إذا ما سولت له نفسه اللحاق بى .

بنفس الأتوبيس عدت الى ميدان التحرير معرجا على الجامعة الامريكية . كانت الحجرة التى يجلس فيها قمر ضمن مجموعة من مساعدى البحاثة خالية تماما . قال أحد السعاة إنه لم ير الاستاذ قمر من شهور طويلة وإنه إما فى

إجازة طويلة وإما أن عقده مع الجامعة انتهى . وفيما أنا خارج من الممر وقد تكاثفت وتكاثفت على رأسي الوساوس تذكرت صديقتنا حياة البرى ؛ فاتجهت مباشرة الى المبنى الآخر حيث يوجد مكتبها فى جناح المكتبة .

استقبلتني بحفاوة بالغة . بعد شرب فنجان القهوة أبديت رغبتي في أن أعزمها على الغداء في محل إيزافيتش فإذا بها تعزمني في مطعم اليونانية تحت سينما الأوديون باعتباره مطعمها المفضل ولديها فيه دفتر لحساب شهرى . وبررت عزومتها فى هذا المطعم بأنها مشتاقة لرؤية صالح هيصة على بعد خطوات من المطعم . هى ذكية جدا ، عرفت بحدسها القوى أننى أهدف إلى السؤال عن قمر ؛ فاختصرت عليّ طريق الأسئلة وطرحت فوقى شباك حكاية مثيرة مذهلة :

.. في الشهور التى لم يكن فيها قمر المحروقى طبيعيا أهمل فى ملبسه فى مأكله فى نومه ؛ أصبح ينفر من كل الناس ؛ سيطرت عليه مشاعر غريبة تجاه عمله أصدقائه زوجه مع أنها فى نظر حياة البرى غلبانة لا تهش ولا تنش . سلوكه صار مثيرا للاستغراب والدهشة والاستفزاز ؛ يدعو الى البيت أصدقاء من نوعيات غريبة لا يمكن أن تقوم صلة بينها ومحيط محاسن عاصم ، أحدهم يدعى مرسى خلاف لا حديث له سوى ما ينفقه على دماغه وحده يوميا ، وتطفله السمج على كل من يعرف أنه صاحب سيارة مبديا استعداده للخدمة فى مجال الاصلاح والترخيص والبيع . أما الثانى فيدعى ولد رشيد، ولد خفيف الظل أى نعم لكنه مريب ، فالسيارة التى يركبها ماركة كومارو ليس يركبها رئيس الجامعة الامريكية نفسه ، ومستوى إنفاقه في تدخين الحشيش والمارلبورو والويسكى والقمصان المستوردة والأحذية العالمية لا يمكن قبوله من شاب لايزال طالبا فى كلية لا تدرى ماذا حتى ولو كان وارثا لثلاثة أفدنة من أرض زراعية قسمت بينه وأربع بنات متزوجات : ثم إن دائرة معارفه كما لاحظت حياة واسعة جدا بين الأجانب وهو إن كان ضعيفا فى اللغة الإنجليزية فإنه فهلوى ذكى يستطيع التفاهم بالنظرات والإشارات مما يشى بأنه يبيعهم أشياء ثمينة بمبالغ طائلة . وأما الثالث المدعو

وجدى الوكيل فإنه – كما أسمته حياة البرى ووصفته – ولد سهتان بهتان نصاب يزعم تارة أنه ابن عم زينب الوكيل زوجة النحاس باشا ؛ ثم ينسى ويزعم أنه من الفرع الأغنى للعائلة ، وينسى مرة أخرى فيزغم أن المسألة مجرد تشابه فى الأسماء ؛ ثم هو يزعم تارة أخرى أنه صاحب محل لبيع الأحذية فى شارع الشواربى ، وينسى فيزعم أنه مجرد شريك فى المحل ، وينسى مرة أخرى فيزعم أنه مجرد بائع فى المحل إلا أنه أهم من صاحب المحل فى الواقع . نماذج غريبة جدا ، ضاقت بها محاسن واستنكفت أن تقوم هى بخدمتها فى بيتها فى حين أنها تحتقرهم تنفر منهم تشمئز من جلوسهم عندها . إلا أنها حينما نقلت اشمئزازها ذاك الى قمر انبرى يدافع عنهم بحرارة متهما محاسن وأصدقاءها بأنهم مجموعة من الماركسيين المنعزلين عن الناس كالچيتو اليهودى وأنهم لا يفهمون طبائع الشعب المصرى وربما كانوا مجرد عملاء للاتحاد السوفيتى ، قال كلاما كثيرا من قاموس الغرزة مؤداه أن الماركسيين جميعا فى العالم العربى كله يعملون الهيصة حيث كل واحد منهم فى هيصة من أجل أن يلحق الهيصة وبعد طول عناء قد لا يلحقها لأن هيصة الاتحاد السوفيتى نفسه انتقلت من المتاجرة بأوجاع وأحلام الفقراء المطحونين فى العالم إلى المتاجرة بمصير البشرية فى سباق نووى مجنون مديرا ظهره لمستقبل الطبقة العاملة ولمستقبل جميع الطبقات فى الأرض بات مجرد وجود عسكرى صرف جاثم على أنفاس الكرة الأرضية ، وكل من سافر إلى روسيا شهد بعينيه أن الأمور التى شقيت شعوب الاتحاد فى جمعها ينفقها سيادته على حرب الفضاء تاركا أهله فى أوضاع غاية فى السوء ما بين الجوع والقمع والقهر فى القبضة الحديدية .. ولو أن قمر طلب رأى محاسن أو حياة البرى فى الماركسية اللينينية وفى الاتحاد السوفيتى – فى لحظة صفاء بينهما وهى الماركسية السابقة وإن تخلع بعد قناعها الملتصق بوجهها – فالمؤكد أنها كانت ستقول له ماهو أفظع من ذلك بكثير بل قد تزوده من البيانات الرسمية والتصريحات والدراسات الميدانية ما يثبت بما لا يترك مجالا للشك أن الماركسية

اللبنينية صائرة إلى زلزال سوف يدمرها لا محالة . أما أن يقول قمر مثل هذا الكلام السوقى على سبيل الهجوم والشتائم لمجموعة من أصدقائه وبينهم زوجه مع أنه يعلم جيدا أنهم لم يعودوا ماركسيين ولا تربطهم بالتنظيمات أى روابط ؛ فهذا معناه أنه طاقق يريد أن يجرح للتجريح وأنه مضطرب الذهن مشوش الأعصاب .

مهما يكن من أمر فإنها - حياة - لتعرف كيف تروضه وتسلس قياده . إنها تشاركنى فى حبه وتعتقد أنه من أنقى الناس الذين عرفتهم وأنه شخص شريف مائة فى المائة ، إنسان بمعنى الكلمة ، كريم جدا ، إلا أن عقدته كما اكتشفتها حياة هى المرأة ، إنه على قدر ما فيه من رجولة يطوى صدره على صورة سيئة للمرأة بوجه عام ؛ تقصد حياة أنه يحتقر المرأة فى أعماقه وإن تظاهر بالرقة معها؛ المرجح أنه قد يكون مقروصا من امرأة مجهولة ، ممرورا لذلك من كل امرأة ؛ سرعان ما يضيق بها ؛ ورغم طول باله وصبره كشخص ودود عشرى فإنه لايصبر على حديث امرأة ، دائما يتجنب إطالة النقاش معها مهما عظم شأن موضوع النقاش ؛ يريد أن يكون صاحب الأمر والنهى والكلمة الأخيرة مهما كان على خطأ ، مع أنه يمكن أن يكون سى السيد بملء راحته ورغبته وعن طيب خاطر من جانب محاسن إذا هو طول باله عليها و أخذها بالهدوء ؛ كان من الممكن أن يقنعها بأن تجامل أصدقاءه من أجل خاطره وفى نفس الوقت يشدد على أصدقائه بأن يلتزموا جانب الاتزان والاحترام فى بيوت الناس ؛ إلا أنه ما كاد يسمع احتجاج محاسن على سوء المستوى الثقافى والأخلاقى لأصدقائه حتى انفجر فيها يحقر من شأنها هى ومن تلوذ بهم ؛ ولكن الله كان مسانداً لمحاسن ذات ليلة ليكسف قمر ويثبت له أنه غليظ القفا ..

ليلتذاك احتفلت محاسن بعيد ميلاد ابنتها داليا ، والحق أن قمر لم يقصر فى نفقات الحفل بل اشترى كل شىء بوفرة وشت بأن هناك ممولا آخر لهذه النفقات الباهظة . فى المساء دعا أصدقاءه كما دعت محاسن أصدقاءها . امتد الاحتفال

على طول السهرة ؛ فسكر أصدقاء قمر سكراً بيناً ، خرجوا عن حدود اللياقة ، تلفظوا بألفاظ سوقية بذيئة ، عاكسوا بعض السيدات تجرأ أحدهم وتحسس مؤخرة البنت الشغالة التى داخت محاسن فى الإتيان بها من قرية فى الفيوم . من سوء حظ وجدى الوكيل أن البنت ارتعدت جرت صارخة إلى المطبخ . محاسن هى الأخرى تعجلت ، معذورة طبعا ، أعصابها شاطت فى المطبخ وهى تصرخ فى البنت الشغالة لتخبرها بما حدث ؛ وفيما كانت البنت تحكى لها بلسان مرعوش وكلمات خجلة مرتعبة كان مرسى خلاف قد خلص لها حقها فى الحال ، رفع ذراعه وبكل قوته ناول وجدى الوكيل صفعة على صدغه دوت كالرصاصة ألقت به على الأرض جثة متجمدة من هول المفاجأة ؛ لم يقنع مرسى بذلك بل شيع إلى وجهه بصقة تناثرت على الجميع قرفا واشمئزازاً . كان من الممكن أن ينتهى الموقف عند هذا الحد ؛ لكن محاسن هرعت من المطبخ كتلة من اللهب ذات ألسنة كالأخطبوط ، سبت لعنت بصقت ألقت ما فيها ما خلت ؛ كانت شخصية أخرى تماما ؛ كانت عنفاً خشى الجميع مواجهته ، فامتثلوا لأمرها فى الحال صاغرين ولملموا أنفسهم استعداداً للرحيل ، لكنها فقدت السيطرة على المارد الذى انطلق منها فإذا هو – وهى – يندفع فى جنون محقق فيقلب المائدة فتتطاير الزجاجات والأكواب وأطباق المزة على وجوههم وثيابهم الأنيقة ؛ لحقت بها حياة البرى وهى ترفع سماعة الهاتف تستغيث بشرطة النجدة ؛ احتوتها فى حضنها ، زحفت بها إلى حجرة النوم . أغلقت عليهما الباب من الداخل جعلت تهدىء من أعصابها تنبهها إلى أن الأمر يهدد بفضيحة مدوية . فى تلك اللحظة بدأ قمر يفيق من هول الصدفة يصير قادرا على الوقوف ، فسحب أصدقاءه ونزل بهم إلى الشارع .

طول الليل والرعشة متمكنة من محاسن ، والروع يتملك ابنتها داليا فلا تكف عن الصراخ والبكاء المذعور وقد أنسيت أنها منذ سويعات قليلة كانت موضع احتفال بإطفاء شمعتها الرابعة فياله من عيد ميلاد مشئوم مؤلم لطفلة . ليلتها

نظرت حياة فى ساعتها فوجدتها تقترب من منتصب الليل ، فألهمها الله ما يمكن أن تفعل لإزالة الروع عن هذه الطفلة التعيسة : أخذت محاسن وداليا والبنت الشغالة ونزلت ، استأذنت ممن كانوا معها ، دفعت بهم إلى سيارتها الفولكس الخنفساء - التى اشترتها من طلعت قبيل سفره وغيرت لونها إلى الأسود الدبلوماسى - ثم ركبت إلى شارع الشيخ ريحان وهى موقنة أن مسرحية مدرسة المشاغبين تكون الآن - بالكاد - فى منتصف فصلها الأول . سمير خفاجة ومعظم أعضاء فرقة الفنانين المتحدين من أصدقائها منذ أن كانت سكرتيرة للمنتج السينمائي الشهير . ابتسم لها موظف الباب وأفسح الطريق إلى صالة العرض فسألته عن سمير وهى تدفع أمامها محاسن وداليا والشغالة ، فقال لها إنه يحل محله فى أداء الواجب وأن القهوة ستجيء وراءها ، ثم أشار لزميله قائلا :

- قعد الأستاذة حياة فى بنوار الأستاذ سمير !»

محاسن وداليا وحياة والشغالة ضحكن من القلب فعلا ؛ وفى الاستراحة شربن القهوة والكوكاكولا وأكلت داليا قطع الشيكولاتة على نفقة سمير خفاجة : تجولن فى الكواليس حيث سلمن على عادل إمام وسعيد صالح ويونس شلبى وأحمد زكى وسهير البابلي وحسن مصطفى وهادى الجيار . وأهم شيء خرجت به حياة البرى من هذه السهرة الفكاهية الضاحكة - بعد الترويح عن داليا وأمها - هو أنها اكتشفت لأول مرة شيئا غريباً جداً لم تكن تلحظه من قبل هو أن سعيد صالح وعادل إمام بالذات فيهما لطشة شريعة لكنها واضحة من شخصية صالح هيصة التى سرها أن تعرفت عليها جيدا . قمر المحروقي إذن ليس هو الوحيد المتأثر بصالح هيصة .. هى فى الواقع لا تدرى إن كان صالح هيصة قد أصبح تياراً جديداً كاسحا يؤثر فى جيل بأكمله أم أن المتأثرين به هم الذين شكوا ما يمكن أن يكون تيارا سيما و أن جميع ممثلى الكوميديا على إطلاقهم فى بلادنا يشتغلون على شخصية العبيط أو المستعبط أو الذى بيسوق العبط على الهبالة لكيلا يلتزم بأى قانون ؛ إنهم يتكلمون مثل صالح هيصة يرددون بعض طرائفه

يفكرون بطريقته على المسرح وإنها لمتأكدة أنهم قد حششوا عند صالح هيصة غير أنهم كالعادة لم يأخذوا منه إلا القناع والمفردات الخرقاء يضعونها فى سياقات من المفترض أنها جادة فتحدث المفارقات الزاعقة . أما صالح هيصة نفسه فإنه فى نظرها شىء ثمين من زاوية ما ..

خشيت حياة أن لو عادت محاسن إلى البيت تفترسها الكآبة من جديد ، أو يجىء قمر ليفرغ جام غضبه عليها فيتفاقم الموقف ويتعقد . ركبن السيارة ؛ وبدلا من أن تلف حياة لتعود إلى شارع القصر العينى واصلت الانطلاق إلى شقتها فى مصر الجديدة ، حيث نام ثلاثتهن فى سريرها .

فى الصباح تركت محاسن وداليا فى شقتها ؛ انطلقت إلى الجامعة الأمريكية لتأتى بقمر إلى شقتها لتعقد جلسة صلح على غدوة شهية ثم تسلمه محاسن وداليا على أرض من الصفاء ونسيان ما حدث كأن لم يكن . لم تجده بالطبع ؛ صعدت إلى مكتب الدكتور النبوى شريف النبوى المشرف على القاموس ..

– «صباح الخير دكتور !»

– «أهلا حياة ! اتفضلى ! أخبارك إيه ؟!»

– «الحمد لله بخير ! أمال فين قمر المحروقى هو فى إجازة ؟!»

ابتسم فى مرارة :

– «قمر المحروقى استقال حضرته !!»

– «إيه ؟! بتقول استقال ؟!»

– «حضرته رمى لنا الشغل وقطع العقد وتنه ماشى !!»

مقطبة الجبين شاحبة :

– «من إمتى ؟!»

– «من زمان قوى ! من حوالى خمس ست أشهر !»

ريقها ناشف كالعصا :

– « كان حصل حاجه يا دكتور ؟!»

– «الحقيقة مهمته كانت صعبة ! تقريبا أهم عواميد الشغل فى القاموس وانا كنت باراعى ده فى المكافآت وبدلات الانتقال ! »

– «كانت إيه مهمته لو سمحت ؟!»

– « تجميع التعبيرات العتيقة المتداولة فى الأحياء الشعبية ! فى الحوارى ، الأسواق ، الحانات القهاوى الغرز .. الخ ! ومعنى أو مدلول كل تعبير ! وكان بيقدم كشوفات بمصاريف انتقالاته بين الجماعات والبيئات المختلفة ! وانا كنت باضيف له فوق منها حوافز !»

– «أنا متأكدة ان حضرتك متعاطف معاه !»

– «جيت فى يوم بابص فى مكتبه لقيته بيزعق مع السعاة وموظف الاستعلامات ولقيته مقعد عنده راجل شكله مريب جدا ! مقطع ومبهدل ومصدى وشعره مغبر ! متشرد يعنى ! منظره فظيع ! مقزز ! ما تعرفيش ان كان حرامى والا متسول وإلا مجذوب المهم انه ميصحش يدخل إلا بعد استيفاء بيانات كاملة عنه !» ضحكت حياة بعمق فأشرق وجهها رغم سوء الموقف :

– «الراجل ده أكيد صالح هيصة !»

– «إنت تعرفيه ؟!»

– «ده بالمناسبة راجل كويس ! محترم جدا ويمكن يكون أحق بالاحترام من أى أفندى نظيف من اللى بيدخلوا هنا من غير بيانات !لكن .. المهم ..» – «استدعيت قمر ! مين ده يا قمر ؟! ده مصدر من مصادرى با سجل له حديث مليان مفردات وتعبيرات بيدور عليها القاموس ! طب ما سجلتش بياناته ليه ؟ قال ممعهوش بطاقة شخصية والموظف أصر على طرده ! طب وبتزعق ليه وتهيص ؟ لأنهم أهانوا صديقى قدامى !! بينى وبينك أنا اتغاظت من الحدة اللى بيكلمنى بيها قدام السعاة والموظفين ! شخطت فيه قلت له انا ما أيدش الفوضى !راح متعفرت لدرجة إنى خفت من منظره ! طلع العقد من جيبه ! مكانش لسه مضاه بعد تجديده ! قطع قطع قطع ! ورماه فى الطفاية وخد عندك : إنتو فاكرين

نفسكم إيه واحمدوا ربنا أني رضيت اشتغل معاكم ! ده قاموس مشبوه ! دى هيصة بتعملها أمريكا عشان بتخطط لاحتلال مصر ! عاوزة تعرف كل حرف بيتقال في الشارع المصرى عشان تعرف تحكمه ازاى أنا لا يمكن استمر معاكم في الجريمة دى ! عشرة جنيه من شغله شريفة أحسن لى من الهيصة بتاعتكم ! وفي لمح البصر ما لقيتوش ! ومن يومها لحد النهاردة ما شفتوش ومحرج أكلم حماه !! »

زفرت حياة كل أعماقها في دخان السيجارة ، استطاعت أن ترى من خلال الضباب الكثيف حالة قمر حيث أصبح مضطرا لهؤلاء الأصدقاء لإنقاذه ماديا من المحنة التى أوقع نفسه فيها . أسقط في يدها ؛ ماذا تقول لمحاسن ؟ تخشى لو صارحتها بالحقيقة أن يركبها النكد ؛ صحيح أنها موظفة وتستطيع الإنفاق على ابنتها ودفع أقساط ما اشترته من سلع معمرة ، لكن الحياة لا تكون محتملة طوال الشهر . قدرت بينها وبين نفسها أن مسألة عودته إلى عمله ميسورة إذا هى تفاهمت مع الدكتور النبوى شريف النبوى وهو صعيدى مثلها وتقوم بينهما علاقة من الود والاحترام وتبادل الكتب والمراجع والدوريات الأجنبية المهمة ؛ يبقى أمامها أن تعرف كيف تقنع محاسن بالبقاء عندها بضعة أيام حتى تنتهى من تسوية هذه المصيبة الطارئة ؛ وأن تعرف كيف تقابل قمر بفارغ الصبر . ذهبت إلى شقته طرقت الباب والجرس عدة مرات حتى ملت ، عاودت الطرق صبحا وظهرا وليلا دون جدوى ؛ خمنت أن يكون قمر موجودا داخل الشقة وممتنعا عن الفتح والرد على الهاتف . ذهبت إلى غرزة حكيم لتسأل عنه فلم تجد صالح هيصة ؛ سألت حكيم عنهما معا فقال إن الأستاذ قمر جاء منذ حوالى عشرة أيام - أى قبل الخناقة بثمانية أيام - وبعد انقطاعه عن الغرزة شهوراً طويلة ، حيث شرب عشرين حجرا لوحده ثم أخذ صالح وانصرف ؛ لم يكن حكيم موجودا ساعتها لكن صالح ترك له رسالة مع صابر تقول إن الاستاذ قمر وشركاءه استأجروا بيتا قديما في مريوط قرب الاسكندرية وأقاموا فيه مصنعا للفخاريات والخزف وقد عين

الاستاذ قمر صالح هيصة خفيرا للمصنع فى الليل وإن كان صابر يعتقد أن الاستاذ قمر أخذه ليخدم التحشيش له ولشركائه . اغتاظت حياة ، رجعت إلى محاسن ، أقنعتها أن قمر فى حالة عصبية حادة قد تهدد بانفجار خطير إذا تمت أى مواجهة بينهما الآن ؛ فخير لهما معا أن تظل محاسن لديها ليومين أو حتى لنهاية الأسبوع إلى أن تتمكن هى من تهدئه غضبة قمر ؛ ويا حبذا لو أخذت محاسن إجازة من الشغل ؛ ثم إنها تولت بنفسها طلب الشغل بالهاتف وأبلغت بأن محاسن فى وعكة صحية يلزمها راحة حتى نهاية هذا الأسبوع . ركبت سيارتها ؛ اتجهت إلى شقة قمر وفى نيتها أن تجلس على رصيف الكافيتريا المواجهة للعمارة لكى تضبط قمر فى لحظة دخوله أو خروجه . صعدت أولا لتتأكد ؛ وضعت أذنها على خصاص الباب كاتمة أنفاسها ؛ خيل لها أنها تسمع لغطا وأيمانات مغلظة وحواراً أقرب إلى التناحر ؛ فطرقت الباب ، فكفت الأصوات تماما ؛ ضربت الجرس ، ظلت تضرب بلا فائدة ؛ نزلت وهى متأكدة أن قمرا بالداخل مع أصدقائه ؛ وبهذه المناسبة فإنها قد رأتنى وأنا صاعد إلى شقة قمر يوم رحت أسأل عنه ؛ كادت تنادينى لتخبرنى أن قمر ليس موجوداً لكنها فضلت أن تتركنى لتختبر النتيجة ؛ ولما رأتنى أخرج من العمارة أهرول بحثا عن سيارة أجرة كادت تنادينى مرة أخرى لكنها فضلت أن تبقى وحدها وقد اتضح لها أن القاعدين داخل الشقة اغتاظوا من الطرق الملحاح مرتين فظنوا أن الطارق فى المرتين شخص واحد فطلع صاحب الدشداشة ليزجرنى . ما كادت هى تنتهى من فنجان القهوة على رصيف الكافيتريا حتى رأيت قمر المحروقى يخرج من باب العمارة وخلفه رجلان أحدهما عربى يلبس الدشداشة والآخر يبدو مصريا مألوفا لها يلبس قميصا وسروالاً . انتفضت واقفة ثم هرولت خلفهم منادية وهى ترمى على المنضدة قطعة نقدية :

- «قمر ! قمر! »

- «أهلا حياة !»

تخلف عن الرجلين حتى لحقت به . لاحظت أن القميص على كتفيه لم يتغير منذ ليلة عيد ميلاد ابنته ، وأن الخشونة والصدأ يتراكمان على يديه . عاجلها .

– «أمال محاسن فين ؟!» .

– «عندى هى وداليا والشغالة ! أصلها تعبت قوى ليلة الحفلة واضطريت اجيب لها دكتور ! ما خليتهاش تروح بيت أبوها عشان ما يتخضوش عليها خدتها عندى!»

– «طب الحمد لله إنى ما اتصلتش ببيتهم !!»

قالها ببرود ضاحك ، ثم أردف :

– «عن إذنك عشان معايه ضيوف !!»

– «بس أنا عاوزاك ضرورى ! لازم تيجى تشوف محاسن ! وداليا كمان مخضوضة والمفروض تصالحها !!»

– «أنا ماباروحش لحد ! ماصالحش حد !»

– «بسيطة ! اقعد وأنا اروح اجيبها لك تصالحك هى !»

– «خليها شوية !! عندك أو عند أهلها ! لأن أنا مسافر دلوقت حالا ! وبدال ما تقعد لوحدها تقعد مع حد زيك أو حتى مع الشغالة !!»

– «مسافر فين ؟ كام يوم ؟!»»

– «اسكندرية !»

– «ولا مربوط عشان المصنع ؟!»

– «الله ! ده إنتى شغلتى المباحث ورايا اهه !!»

– «كله بالصدفة ! المهم حتيجى إمتى؟»

– «أسبوع ! عن إذنك !»

– «قمر !»

لكنه لوح لها من بعيد ، ثم لحق بالرجلين ، حيث سلم عليهما لابس القميص والسروال ثم انصرف مهرولا ، فى حين اتجه لابس الدشداشة إلى سيارة

مرسيدس راكنة على مقربة ، فتحها ودخل ، ثم فتح الباب المقابل فركب قمر . انطلقت السيارة إلى مكان مجهول . داخت حياة ، ارتدت إلى الكافيتريا فارتمت على الكرس شاعرة بأنها أربكت نفسها بمشكلة هى أقل من أن تحتمل المضى فيها أبعد من ذلك . طلبت فنجانا آخر من القهوة لعل أعصابها تهدأ قبل أن تقود سيارتها ولربما اهتدت إلى مخرج من هذه الورطة . شربت دخنت شردت وعبثا حاولت ضبط دماغها على اتجاه معين ، ثم إذا بسيارة أجرة تتوقف أمام العمارة، ثم تهبط منها داليا ممسكة بيد الشغالة ومن ورائهما محاسن . هرولت إليها :

– «جيتى ليه ؟!»

– «شقتى وحشتنى ! قلبى بياكلنى ما اعرفش ليه ؟!»

– «قمر لسه ماشى ! كان معاه اثنين عرب ! قال إنه مسافر اسكندرية فى مشوار !»

– «براحته بقى ! ييجى وقت ما ييجى !»

صعدتا معا إلى الشقة . أخرجت محاسن مفتاحها من حقيبة يدها ، فتحت الباب . دخلت . ارتمى كل من محاسن وحياة على الكنبة في تهالك ؛ بقيتا صامتتين لوقت طويل . أخيرا قامت محاسن فغيرت ثيابها ودعت حياة إلى أن تفعل هى الأخرى ففعلت ؛ توجهتا معا إلى المطبخ شرعتا فى تدبير غدوة ملفقة . ثم أخلدن جميعا إلى نوم عميق جدا . فى حوالى الرابعة عصرا استيقظن على صوت المفتاح يدور فى قفل الباب ثم صوت الباب ينفتح وينغلق فى صخب مزعج كأن حيوانا شرسا دفعه بقدميه . خرجن بقمصان النوم إلى الردهة ، فما شاهدن إلا الرجل لابس الدشداشة يدفع أمامه إحدى مومسات شارع الهرم تضع على وجهها طناً من المساحيق وتتقصع فى كل خطوة . صرخت محاسن :

– «إيه ده ؟! إنت مين ؟! إزاى تتهجم علينا ؟!»

وقف الرجل مبهوتا :

– «إنت اللى مين ؟!»

– «أنا صاحبة الشقة دى !»

– «الشقة دى أنا اشتريتها امبارح ودفعت باقى ثمنها النهاردة الضهر ! ستة وثلاثين ألف جنيه !»

– «إطلع بره ! إطلع بره قبل ما اطلب لك البوليس !»

تقصعت المومس :

– «ياى ! البوليس ! هى فيها بوليس ؟!»

– «أنا اللى حاطلب لك البوليس ! إزاى تدخلى شقتى وأنا مش موجود ؟!»

تقدمته منه حياة البرى فى رصانة وهدوء :

– «ممكن تتفضل يا حضرة ؟»

– «أدينى قعدت!»

– وإنتى يا هانم ممكن تورينا عرض كتافك ؟!»

– « وطولى ! مش عاجبك ولا إيه ؟!»

– «روحى وإنتى يا بديعة وأنا حابقى اطلبك بالتليفون !»

هكذا قال الرجل المرأة فاندفعت بامتعاض سمج ورزعت الباب خلفها ، وصار شبشبها الغليظ يقرع رخام السلم إلى أن غاص فى الأعماق السحيقة ولم يبق منه سوى أصدائه . نظرت حياة إلى محاسن نظرة ذات معنى فيها غمزة :

– يلا يا محاسن قومى اتصرفى ! خدى التليفون جوه واتصرفى ! اطلبى أى دكان يبعت لك الطلبات عشان نغدى الضيف الطيب ده !»

– «ما فى داعى ! ما فى داعى ! أهم شىء أنا شارى ها الشقة مفروشة بكل ما فيها ! كيف نفعل فى ها المشكلة ؟!»

– «حنحلها ونحل أبوها كمان ! ده احنا مصريين ولاد بلد ونعجبك قوى ! إشرب الأول حاجة عشان تروق دمك وتعرف تتفاهم معانا!»

بحنكتها الحريفة سربت إليه رحيقها الحريف بأنثويته الحريفة ولذعتها الحريفة . زجاجة كوكاكولا فى فنجان قهوة فى سيجارتين محشوتين شربهما

الجردل دون أن يلحظ ، فى بسمتين لعوبتين انشرح صدر الرجل ورحرح فى قعدته إلى أن سمعوا طرقا حادا على الباب فاندفعت محاسن بقميص نومها تجرى لتفتح الباب . دخل ضابط الشرطة ومساعده فسأل عن المبلغة فقدمت له محاسن نفسها ، وقدمت له صديقتها وابنتها وشغالتها ثم قدمت له الرجل المقتحم . نظر ضابط النجدة فوجد أن سيدة البيت وابنتها وشغالتها وصديقتها كلهن بقمصان النوم فيما عدا هذا العملاق الدهل ، فأيقن بأن الاقتحام قد حدث بالفعل وأن الحادث لا يمكن تكييفه قانونيا إلا بكونه حادث اقتحام ، ومن ثم أسلس قياده للمبلغة بتعاطف كامل ومعلن بكل وضوح . بإيحاء ومعاونة من حياة كتب محضر معاينة غاية فى الدقة والإحكام سجل فيه كل ما يخص محاسن داخل الشقة من سرير ابنتها إلى ملابس شغالتها ؛ أما الرجل فقدم عقد بيع موقعا من قمر المحروقى وشهادة السمسار وكل من مرسى خلاف ووليد رشيد . ارتج قسم شرطة حى الدقى للحادث بعد أن هدد الرجل بتصعيد الأمر إلى أزمة دبلوماسية مما أحنق عليه الجميع . فى الليل مثلوا بشكل عاجل أمام النيابة التى تحفظت على محتويات الشقة وصرحت لمحاسن بالإقامة فيها ؛ وقال وكيل النيابة للرجل إن الشقة حتى لو لم تكن مسجلة فى العقد الأصلى باسم الزوجين معا فإنها عند اشتجار الخلاف بينهما على الزوج أن يرحل إذا كانت الزوجة قد أنجبت منه ولو طفلا واحدا . كما تحفظت النيابة على عقد البيع الأصلى المسجل باسم كل من قمر ومحاسن ، والعقد الفرعى الموقع باسم قمر وحده ، وأمرت باستدعائه لمناقشته فى صحة التوقيع ، وطمأنت الرجل بأنها ستتكفل برد حقه له على أى نحو يكون .

ختمت حياة البرى حديثها المؤلم بقولها إن مهمتنا الآن تنحصر فى الإتيان بقمر من تحت طقاطيق الأرض لتخليص زوجه وابنته من هذه الورطة المخجلة . قالت أيضا إنها – مع كل ذلك الذى حدث – ليست تحتقر قمر بل على العكس تشفق عليه ، إذ هو بهذا الفعل الانتقامى ليس يستهدف محاسن كما قد يبدو

للذهن المتعجل ، إنما هو ينتقم من نفسه ، يعذب نفسه ؛ إنه على فرط ذكائه واتساع مخه يتصرف بعاطفية محضة تجاه كل شيء وهي بكل أسف عاطفة عليلة، حتى في قراراته المصيرية لا يلتفت لعقله ؛ ولكنه بعد أن يصير قراره واقعا ويتبين أنه قد أخطأ خطأ فادحاً فإنه حينئذ قد يرتد مائة وثمانين درجة نحو ما يتصور أنه العلاج للخطأ . زواجه من محاسن مثلا ، لم يكن مدروسا بل كان دفقة عاطفية جارفة استسلم لها مغمض العينين مخدر الحواس ؛ فلما اتضح له بعد العشرة أن شخصيتها قوية وعنيدة كشخصية أمه التي اشتكى من تسلطها كثيرا ؛ لم يجد أمامه - قليل الحيلة - إلا مثل هذه الاندفاعات الخرقاء يعاقب بها نفسه بجريرة إيقاعها به بين امرأتين متسلطتين تتحكمان في حريته قراره مزاجه؛ خطورة مثل هذه الاندفاعات أنها تكتسح في عنفوانها أكثر من بريء لا ذنب له على الإطلاق . إنه - لعلمك الخاص وأنت صديقه منذ زمن كما هي تعلم - ليس شريرا بالمرة ، إنما هو غلبان ، والله غلبان ، طفل شقي عنيد ناشف الدماغ يسد على نفسه جميع السكك بدلا من الركون إلى السكينة فيعذب أهله أشد العذاب .

قلت لها : لعلنا في غرزة حكيم نستطيع تسقط الأخبار من أي أحد ؛ فلابد أن حكيم أو صابر قد حصل على عنوان صالح هيصة المهم أن نأخذ حتى شواهد كلام نسافر بها إلى مريوط ونسأل أهلها عن بغيتنا ∴

في غرزة حكيم فوجئنا بصالح هيصة قاعدا في مكانه العتيد يرص الحجارة . ما كاد يرى حياة داخلة ورائي حتى انتفض واقفا متهلل الوجه ؛ ترك نفسه لأحضان حياة البرى كطفل خجول في حضن طنط . قال صالح هيصة إن المصنع لم يبدأ الشغل بعد ، كل ما هنالك بعض ماكينات لعجن الطمي وتنقيته وتدويره في أشكال متعددة كما أظهرت العينات الأولية ؛ وأنه سئم من الحياة في مريوط الساكنة الميتة على بحيرتها الموحشة ، اشتاق للصخب في حواري حي معروف ، لوساخة حكيم ، نتانة صابر ، قرف الحجارة ؛ لكن السبب الأكبر - إن جئنا

للحقيقة – هو أنه لم يحتمل إمارة شركاء قمر وغلاستهم فما كان منه إلا أن اشترى السبرتو والكوكاكولا ثم عمل الهيصة فالتم جميع القوم وكان المشهد مروعا فى مريوط ، فارتاع قمر ، أمسكه متوجها به إلى الطريق الصحراوى ، استوقف سيارة على طريق القاهرة ، دفع الأجرة مضاعفة وأوصى سائقها بأن ينزل هذا الرجل أمام مبنى فندق الهيلتون ؛ ومن هذا المبنى خرم صالح إلى معروف وقد صحصح بعد نوم عميق داهمه فى السيارة . حكى هذه التفاصيل على امتداد عشرين حجرا شربناها من يد ضابر ، وحينما لمحت له حياة بأنها تريد قمر على وجه السرعة لأن ابنته مريضة جدا ، قال إنه عاهد نفسه ألا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، ولكنه من أجل خاطر الست حياة مستعد للرجوع فى كلامه والقيام معها الآن وفورا طالما أن سيارتها تحت يدها ، فرفعت حياة يدها برشاقة فى صيحة إعجاب طالبة يد صالح ؛ ثم تصافحه فى صكة بهيجة وبقيت قابضة على يده حتى أوقفته ينفض ثيابه تأهبا للرحيل .

حمامة

منذ سافرت حياة البرى إلى مريوط لم أرها ؛ لكننى بعد حوالى ثلاثة أيام كنت على موعد مع برنامج البريد الطائر الذى يقدمه صديقى مأمون النجار فى إذاعة ركن السودان لأسجل فيه أقصوصة من تأليفى ، وكنت مبتهجا لأن التسجيل سيتم لأول مرة فى استديوهات المبنى الجديد فى ماسبيرو على مقربة من غرزة حكيم ، أى أن المزاج بات قريبا من الشغل وخاصة فى مثل هذه الاصطباحة الرايقة . فوجئت بصالح هيصة جالسا فى مكانه العتيد يرص الحجارة . ما إن رآنى حتى تهلل مبتسما ولوح بيده بحركة تشخيصية كأنها تقول: «أما حصل وحصل وحصل» ؛ وكأن الحديث كان ممتدا بيننا ولم ينقطع سوى بعض هنيهة .

وسواء كانت هى قدرته على التوصيل أم هى قدرتى على الاستقبال فإننى فهمت من تلويحات ذراعه أنه يقصد ما دار فى مريوط منذ أن سافر إليها مع حياة البرى ؛ لاحظت أيضا أنه سعيد إذ يشارك فى مؤامرة بريئة ضد صديقه قمر المحروقى خدمة للحق والواجب ؛ ثم غير صوته قليلا كأنه يفتح قوسا أو يخط شرطة لجملة اعتراضية قال فيها إنه حينما علم من الست حياة بما فعله الأستاذ قمر وهما فى الطريق زعل جدا من قمر وانتوى أن يدلقه من دماغه نهائيا، لولا أن صديقه ربح قلبه من جهته وارتد إلى الصواب بسهولة ؛ ثم فتح صوته كأنه يقفل القوس أو شرطة الاعتراض ليستأنف حكى ما حدث من طقطق لسلاموعليكم ..

اصطحبته حياة البرى إلى أحد الفنادق فى وسط المدينة اسمه الكوزموبوليتان خلف البورصة ، أظنك تعرفه وتسكر فى باره أحيانا . قابلت رجلا يلبس الدشداشة ، أتت به فركب السيارة معنا ؛ وقد نزلت أنا لأترك له الكرسى

المجاور للست حياة ، لكنها أشارت للرجل إلى الكنبة الخلفية . بدت السعادة على وجه صالح وهو يبلغنى هذه العبارة . وكان لابس الدشداشة ، قد تفرس فى وجه صالح باسترابة ثم قال :

- «ريتك قبل الحين !»

فضحك صالح :

- «مع الأستاذ قمر !»

فهز رأسه موافقا وعزم عليه بسيجارة مارلبورو ، فاعتذر صالح قائلا إنها لا تكيفه مثل الكليوباترا كنج سايز السخنة وأن كل ما هو مصنوع من أم الدنيا طعمه حريف مثلها ولذيذ . فابتسمت حياة ولم يعلق الرجل فيما انسابت الفولكس واجن كالضفاعة تزرق يمينا وشمالا حتى تملكت الطريق السريع فاندفعت بأقصى سرعتها إلى مريوط .

فوجىء قمر . كان جالسا فوق مصطبة فى حوش الدار مع صحابه الثلاثة : مرسى ووليد ووجدى الذين يسافرون إلى قمر بين يوم وآخر منها فسحة على الطريق الخالى ومنها مباشرة مشروعهم المستقبلى المهم . كانوا منهمكين فى التحشيش بجدية فيما يرسمون خريطة الإنتاج المزمع تقديمه فى القريب العاجل . تجمد قمر فى قعدته بينما وقف صحابه مهللين فيما يشبه الترحاب المهرجانى الصاخب ، فى حين تقدم لابس الدشداشة ليفعل ما اتفق عليه مع حياة أثناء قدومهما فى السيارة : انقض على قمر قابضا على طوقه فى عنف صائحا وهو يتلفت حواليه :

- «أهه ! تعالى يا بيه اقبض عليه ! اتفضل يا حضرة الظابط ! هى الشرطة مش سامعانى ولا إيه ؟!»

ودفع قمر بعنف فأجلسه على المصطبة فارتج واصطك دماغه بالحائط ؛ ثم اندفع نحو الباب صائحا فى طلب الشرطة وقد اندمج أكثر من اللازم ، حينئذ اعترضته حياة بجسدها فى جدية تمثيلية بارعة ، صارخة فيه بغضب حقيقى :

– «من فضلك ! إحنا ما اتفقناش على كده!»

– «إزاى يا ست هانم ؟ أشوف اللى نصب علىّ واسيبه ؟ أمال باجيب الشرطة معايه ليه ؟!»

– «الشرطة جايه على سبيل الاحتياط واحنا متفقين إنها تراقب من بعيد لبعيد وما تعلنش عن نفسها !»

– «كيف ما تعلن عن نفسها ؟!»

– «حضرتك عارف أن أنا تعهدت للنيابة بإنى أحل المشكلة بشكل ودى ! وحل المشكلة إنك تاخد فلوسك ! لو أنا فشلت فى الحل يبقى من حقك تجرى تنده لهم يقبضوا على الأستاذ قمر ! سيبنى بقى أتفاهم !»

– «ما يخالف ! فرجينا !»

بمعلمنية مبكرة خفيفة الظل تقدم وليد رشيد نحو الرجل بوجه بشوش :

– «حضرتك اتفضل اقعد استريح الأول ! إحنا رقبتنا سداده ! إنت فاكرنا عيال ولا إيه ؟ دا احنا رجاله قوى وجدعان قوى ونعرف نتصرف !»

أردف مرسى خلاف :

– «كل شىء حيتحل بإذن الله »

استدرك وجدى الوكيل :

– «تحبوا تتغدوا إيه الأول ؟ قصدى تتعشوا ! عندنا هنا ثلاجة مليانة خيرات ربنا ! ولا .. أشوى لكم خروف أحسن وأسرع ؟»

نظر له لابس الدشداشة فى ارتياب مظنة استعمال الخروف للسخرية منه . الوحيد الذى التقط هذا المعنى من ملامح وجهه ، فصاح بصوت مفتوح ضاحك النبرة :

– «ده مش كلام طق حنك يا آبا الحاج ! عدم المؤاخذة دول قدها وقدود ما تبصلهمش البصه دى ! عربياتهم راكنة بره يمكن شفتها باسم الله ما شاء الله اللى مرسيدس واللى بوجو واللى فالفو !»

صاح فيه مرسى :

- «ما تولع لنا النار يا صالح !»

- «النار الكبيرة يعنى ؟»

- «شوف انت بقى النار اللى حتشوى خروف!»

وقف وجدى وسحب صالح :

- «تعالى أما اطلع لك خروف التلاجة الكبيرة !»

ومضى به حتى اختفيا . هبط مرسى خلاف على الأرض وأخذ يلم النار فى المنقد حول براد الشاى الذى زوده بماء وتلقيمة ، ثم رص حجرا ودخل بالجوزة على الرجل الغريب :

- «مساء النجف !»

أزاح البوصة بخشونة مبرطما بغباوة :

- «مابا طفحوش !!»

رمقه مرسى فى حنق مهذب محكوم بالحياد ، ثم لوح بذراعه فى هدوء أعصاب يحسد عليه ، انطبعت على عينيه غمزة تؤكد أنه أصيع خلق الله قاطبة إذ يعلق بلباقة :

- «عنك يا باشا! إحنا بقى بنطفحه ! أصله كيف ما بيولفش على كل الحلوين!»

ثم استدرك وهو يبلع الدخان فى لذة فائقة :

- «اللى زى حضرتك يعنى !»

دخل وجدى الوكيل حاملا خروفا كاملا مسلوخا لتوه كان جزار فى الدار المجاورة لدارهم يهم بتقطيعه لوضعه فى الثلاجة . اقترب به من لابس الدشداشة :

- «يستاهل بقك !»

وطبع على أطراف أصابعه قبلة ؛ ثم التفت آمرا ببكوية منتحلة لكنها لطيفة جدا :

- «يلاً يابو الصلح ولع لنا حريقة فى الدار بسرعة !»

وسلمه الخروف ومضى خلفه إلى الداخل . ودخل مرسى بالجوزة على حياة :

- «إيه بقى الموضوع يا ست حياة ؟»

سحبت حياة نفسا عميقا من الجوزة ثم نفثت دخانه الكثيف ولابس الدشداشة يرمقها بنظرات هى مزيج من الانبهار والتشكك والإعجاب والاشتهاء والحيرة . قالت وهى تزن كل كلمة :

- «الحكاية باختصار محاسن وبنتها قاعدين فى شقتهم بصوا لقوا الباب انفتح والراجل ده داخل عليهم ومعاه واحدة مومس !»

نكس مرسى رأسه . شحب وجه قمر ، ظهر عليه الاضطراب الفاجع ، زام بعمق ، تمتم :

- «قلت لك الحق غير المفتاح واللا حط قفل !»

- «ما بالحق ! أنا ما باسرق !»

استأنفت حياة :

- «حضرته بلغ النيابة إنه ضبط لصوص جوه شقته ! جه البوليس خدنا كلنا !!»

- «وانتِ ليه طيب ؟!»

هكذا سأل وليد الذى كان يتابع بشغف . قال :

- «لأنى كنت مع محاسن ساعتها ! المهم خدونا عرضونا على النيابة !»

- «النيابة ؟!»

هكذا هتف قمر وهو يعتدل فى قعدته . قالت :

- «طبعا ! مش جناية ؟! الراجل الطيب ده قدم عقد موقع من قمر ! ومحاسن قدمت عقد ملكية باسمها هى وقمر ! يعنى عقد الراجل ده غير قانونى !»

قاطعها قمر وقد بدا أنه ثاب إلى رشده .

- «المهم باختصار!!» .

- «بكل أسف مطلوب ضبطك وإحضارك بقرار من النيابة!»

صاح وليد فى احتجاج غاضب :

-«لكن ازاى يا قمر ماقلتلناش إن الشقة باسمك أنت ومراتك ؟!»

لكزه مرسى فى عصبية :

- «ما تدقش على قمر ! خد من ده كتير !»

ثم التفت إلى حياة :

- «حضرتك قلتِ إنك جايه تتفاهمى !»

- «مفيش حل قدامنا غير التفاهم!»

- «يعنى الراجل ده لو خد فلوسه ينتهى الإشكال ؟»

- «طبعا ! ونكتب محضر صلح نشهد عليه كلنا وأروح أنا وقمر والراجل الطيب-نسلمه ويا دار ما دخلك شر !»

بنظرة رئيس العصابة القوى الذى يثق أن أحداً لن يعارضه مهما كان ، فى نفس الوقت بلهجة أخوية دافئة رنا مرسى خلاف إلى قمر ليسأله :

- «فاضل معاك كام من المبلغ يا قمر ؟»

- «أقل من النص ! يمكن التلت مش فاكر »

هكذا أجاب قمر بحلق جاف وهو مطرق إلى الأرض لا يكاد يحتمل ثقل رأسه.

ران على الجميع صمت مشحون قطعه وجدى الوكيل زاعقا فى غوغائية لطيفة وهو يقبل نحوهم كأنه يحذرهم :

-«على فكرة فيه عربية مشبوهة عمالة تروح وتيجى بره ! يظهر عليهم شاكين فى صالح هيصه بيفتكروه متسول عاوز يعمل حاجة!!»

قال مرسى :

- «إقعد يا وجدى عايزينك! »

قعد وجدى على قرافيصه ناظرا فيهم بحركة مسرحية :

- «وأنا متوقع وجاهز أهه !»

قلب مرسى نظراته فيهم :

– «حد منكم يشترى نصيب قمر فى المصنع ؟ وقمر حيفضل معانه برضه بس مدير بالماهية !»

أطرقوا مفكرين لبرهة . قال وليد :

– «طب ما نوزعه على نفسنا ! ندى لقمر فلوسه وتبقى الشركة متساوية بالتلاته !»

– «وماله ! كل واحد يحط نصيبه هنا !»

وأخرج من حقيبته رزمة نقود تخينة وضعها على الأرض أمامه . رفع وجدى رأسه نحو وليد :

– «إدفع نصيبنا احنا الاتنين ونبقى نتحاسب !»

– «ماشى!!»

سحب وليد حقيبته السمسونيت ذات القفل المرقم ، فتحها ، اعتراه قليل من الارتباك سرعان ما تفهمت حياة البرى سببه حينما لمحت بعض قطع حلى نادرة الشكل من الذهب المطعم بالياقوت الحر . كان وليد مدربا على التحوط فأخفى محتويات الحقيبة تحت ذراعيه وسحب مجموعة رزم من فئة العشرات رمى بها فوق فلوس مرسى . قال مرسى فى حسم وإن اتسم بشكل الأخوية :

– «هات يا قمر الفلوس اللى معاك !»

تردد قمر قليلا ، لكنه فتح حقيبته الهاندباج وأخرج منها محفظة جلدية ، سحب منها رزمة مؤستكة مغلفة :

– «دول عشرة مفقولين!»

ومن جيب آخر فى الهاندباج سحب رزمة أخرى مفكوكة :

– «دول ألفين وخمسمية!»

ومد يده فى جيب سترته فسحب قبضة مطوية :

– «وأدى خمسمية يبقوا تلتاشر !»

ورفع مرسى وجهه موجها للرجل نظرة متحدية :

- «فلوسك كام يا حضرة ؟»

- «ستة وثلاثون ألف !»

جعل يعد والرجل يعد وراءه رزمة بعد رزمة حتى كفت الفلوس وفاضت . فى الحال سحبت حياة حافظتها الجلدية ثم شرعت تكتب إيصال استلام بالمبلغ ، وورقة صلح تنازل فيها الرجل عن شكواه وأقر بفسخ العقد المبرم بينه وبين قمر . تهيأت حياة للرحيل فجعلت تستحثهم على النهوض لمرافقتها ، لكن وجدى الوكيل أصر على أكل الخروف المشوى . ومع خيوط الفجر الأولى انطلقت على الطريق الصحراوى أربع سيارات تقطر بعضها بعضا تعاكس بعضها بعضا وقطرات الندى على زجاج السيارات تشى بأن الشمس العرقانة وشيكة الظهور خلف موكبها الضبابى المتدافع المشعث كفوران اللبن الحليب .

فرحة ما تمت

لم يعد من العسير على أى واحد من الشلة أن يعترف بأنه قد أصبح فيه شىء من صالح هيصة . فى الأول كنا نتفاكه حينما يتصرف الواحد منا تصرفا ما ثم يتضح لنا بعد أو أثناءه أنه كان صورة ممسوخة من صالح هيصة ، نتقبلها ضاحكين مهما كانت درجة المسخ ماسخة ؛ ثم صرنا نشجع من يجىء تصرفه صالحيا هيصيا متقنا على نحو ما نراه فى كل من قمر المحروقى وطلعت الإمبابى من قبل . حتى حياة البرى أصبحت هى الأخرى من المنافسين الأقوياء فى تبنى الصالحية الهيصية بشغف لا يقل عن شغفها أيام كانت مفتونة بالأفكار الماركسية فى زمن الصبا الغض الغرير .

باتت حياة البرى زبونة دائمة فى غرزة حكيم ، تجىء وحدها فى العصارى ، تجلس بيننا ، أمام الربوة أو فوقها ، ببنطلونها الچينز الحابك على فخذيها وعجيزتها والمثير أكثر مما لو كانت عارية تماما . باتت أيضا صالحية هيصية قلبا وقالبا تردد عباراته بشغف وحميمية ، تضحك ضحكته المتقطعة المنطلقة النبرة ، تناديه باسمه مجردا ، تودعه كما تودع الحبيبة حبيبها ، باى باى يا صلوحة ؛ فنكاد نذوب من فرط الشعور بالغبطة وربما الحسد لصالح مع أنها تنادينا جميعا بأسمائنا المجردة ، إلا أننا – ربما – كنا نفتقد فى أسمائنا على صوتها نبرة ما ، إيقاعاً شعورياً ما .

جميعاً كنا على علاقة طيبة بها . حتى أولاد الحارة كانوا يحبونها لله فى لله يتنافسون على تلبية طلباتها التى كانت فى العادة تخترعها كمبرر للإغداق عليهم من عطفها وقروشها الفضية التى لا تنفد من بكها مطلقا ، صارت أميرة على الحارة كلها : فلان يغسل السيارة ؛ فلان يغير العجلة الاحتياطى ؛ فلان يذهب ليلحمها وينفخها ، فلان يخطف رجله ليأتى لنا بفول وطعمية ساخنة من التابعى

فى باب اللوق .. إلخ إلخ . الحق أنها عوضت الشلة عن أعضائها الغائبين سيما وأن قمر المحروقى أصبح نادر المجىء بصورة لم تعد ملحوظة ، كما أن يجىء – إن جاء – فى أوقات عشوائية غريبة ، فى باكورة الصباح يوقظ حكيما من أحلى نومه ، فى آخر الليل والغرزة قد شطبت ، فى قيظ الظهيرة والناس روحها فى مناخيرها ، ودائما مستعجل متوتر يخطف العشرين أو الثلاثين فى تركيز ، منه لمن يسقيه صدّ ردّ ؛ لم يتخل عن أناقته وإن ظهرت عليه الخشونة واعتلاه الصدأ أصابه الزهد فى الكلام فى الفكاهة أصبح أشبه بعسكرى الجيش – الدفعة – حين يظهر عليه الجهد والإرهاق والسهر بعد طول رفاهية . كان يترك فى الغرزة أشياء نتعرف منها عليه : فخاريات من منتجات المصنع ، حجارة جوزة مصقولة لامعة تستحق أن توضع فى فترينة ، أكواب كبيرة مرسوم عليها نقوش فرعونية ، أطباق عليها رسوم وآيات قرآنية تعلق على الحوائط ؛ يشير حكيم إليها بابتسامته المعتقلة بين شفتيه قائلا لكل من يلقاه :

– «ما تعرفش واحد يشتغل مندوب للمصنع ؟
الأستاذ قمر بيدور ! عاوز واحد أفندى محترم
يشيل عينات ويلف يعرضها على المحلات وياخذ
عمولة كويسة ! ماتعرفوش حد يا اسيادنا ؟!»

فى جدية صادقة تعلق حياة البرى :

– «والله لو عندى وقت كنت اشتغلت الشغلة دى !»

كل رواد الغرزة وأهل الحارة كانوا متفائلين بظهور حياة البرى فى غرزة حكيم إلى جانب ابتهاجهم بوجود أنثى تحشش معهم جنبا إلى جنب . ذلك أن يوم ظهورها فى الغرزة كان مقرونا بخبر انتظره المصريون طويلا على أحر من الجمر فشموا أنفاسهم واتسعت صدروهم وارتفعت هاماتهم بعد طول انكسار ومذلة . يوم حضورها كزبونة جاءت للتحشيش فحسب كأى واحد من هؤلاء الرجال ، كان معها جهاز مذياع فى حجم الكف تشبكه فى حزامها وتفتحه من حين لآخر تقلب

فى المحطات باهتمام ودأب كأنها تنتظر خبرا معينا تترصده كل بضع دقائق ؛ وأخيرا هبت واقفة تهتف بالجميع أن ينصتوا ، رفعت صوت المذياع ليتلقى الجميع أعظم خبر فى حياتهم فى العصر الحديث كله : لقد عبرت قواتنا المسلحة قناة السويس ، دمرت خط بارليف الحصين ، دحرت جحافل العدو الصهيونى ، أسرت فلوله ، زلزلت الأرض تحت أقدام اسرائيل فى يوم الغفران . يومها كاد الجميع يحتضن حياة ويقبلها كأنها جالبة النصر . ثم إن الفرحة غمرت البلاد كلها وصوب العالم كله أضواءه علينا حتى المتعاطفين مع العدو نظروا إلينا باحترام وتقدير ، مما أطال عمر نشوتنا وعمقها ..

حتى حينما انقلبت الموازين فجأة فحوصر الجيش الثالث الميدانى ؛ وبعد وقف إطلاق النار وخطاب السادات فى مجلس الشعب كانت الجماهير لا تزال تمارس الفرح الذى حرمت منه سنوات طويلة ؛ وبعد أن كانوا يبكون أبناءهم المفقودين فى صحراء سيناء إبان الهزيمة الستينية المروعة وأبناءهم المستمر تجنيدهم طوال حرب الاستنزاف أصبحوا يتفاخرون باعتبارهم جميعا من أصحاب الأوسمة . وصحيح أن حرارة النصر ما لبثت حتى بردت وتثلجت ، والفرحة تعكرت بالثغرة ومحاولات فض الاشتباك ، إلا أن شعورا جديدا قد طرأ علينا ، بموجبه تأكدنا من إمكانية إعادة اكتشاف العرب كقوة جبارة إذا هى أخلصت لنفسها . على أن حياة البرى كان لها رأى فى مسألة إعادة اكتشاف العرب كقوة جبارة تملك الطاقة والمياه والأرض الخصيبة والمعالم السياحية النادرة والمعادن المخبأة فى جوفها إلى يوم معلوم لا يعلمه سوى العدو الأزلى الذى يقبض دائما على مصائرنا. من رأيها أن هذا الاكتشاف المزعوم لن يتم مطلقا طالما بقى العرب مصابين بداء السلطة وعشق المريسة والإمارة ، سيظلوا أبد الدهر يعيشون فى ركاب القوى الخارجية التى تمكن كل قرصان فينا من الإمارة وما أكثر القراصنة المستعدين للتسلطن حتى وإن وعوا بأنهم مجرد خفراء وأدوات قمع لشعوبهم .

سرعان ما نسينا حرب أكتوبر التي باتت بدورها مجلبة للغم والنكد أكثر من هزيمة يونيو ؛ بل أصبحنا جميعا نترحم على أيام الهزيمة في ظل هذا الانقلاب الذي حدث في الأسعار إضافة إلى ندرة السلع إلى حد الانعدام . كان الحشيش مزاجا شعبيا صرفا ، يدفن فيه الناس توتراتهم ليتمكنوا من احتمال المرارات وتدبير لقمة العيش في أمان الله ، ارتفعت أسعاره فجأة مع ارتفاع سعر البترول كأنه فرع من فروع الطاقة يجرى عليه ما يجرى عليها ؛ مع ارتفاع سعر الدولار الأمريكي وقلة قيمة الجنيه المصرى إلى حد أنه بات هزأة بين أوراق العملة قاطبة ؛ قيل لأن تجار المخدرات يحتاجون لكميات كبيرة من الدولار الأمريكي لاستيراد الحشيش والأفيون . مع ذلك لم يكف الناس عن التحشيش ليل نهار ؛ لكنهم اقتصدوا في نفقات الحريق يعني في مصاريف الغرز ، ندرت الزبائن سيما وأن الغرز هي الأخرى رفعت سعر حجر المعسل من خمسة مليمات إلى خمسين مليما يعني من كان يشرب عشرة حجارة بشلن واحد أصبح يشرب به حجراً واحداً .

صفصفت غرزة حكيم على نخبة قليلة جدا من الصفوة راق لها الجو فارتفعت بها أسعار الخدمة أضعافا مضاعفة . انقطع الشاعر فاروق الجمل عن المجيء . تحرينا السبب فأتانا صالح هيصة بالخبر اليقين : إن الشاعر قد تعرف في نادى الإذاعة على ممثلة محدودة الموهبة غير مشهورة وإن كانت قديمة بعض الشيء ومعروفة لبعض جمهور مسرح اسماعيل يس حيث تلعب في مسرحياته بعض أدوار ثانوية إلا أنها تمثل كثيرا جدا في تمثيليات الإذاعة لأنها متفاهمة مع المفاتيح ؛ قيل وما المفاتيح يا صالح : قال إنهم من الممثلين العاطلين من الموهبة يأنس إليهم المخرجون فيكلفونهم بجمع الرشوة لهم من زملائهم الممثلين ، السهرة بكذا والمسلسل بكذا ، وشغل الإذاعة يدر دخلا يوميا فوريا كثيرا ، الممثلة عزمت الشاعر على سهرة في شقتها فطرح شباكه عليها ، رأى أنها على مشارف الأربعين من عمرها تعاني من الوحدة والفراغ العاطفي فتطوع بتقديم نفسه ليملأ

هذا الفراغ ، عرض عليها الزواج فوافقت فى الحال ، فانتقل ليعيش معها فى شقتها بحدائق القبة ، حيث أقامت له فيها غرزة صغيرة خاصة يستضيف فيها من يشاء من خلصائه المقربين ، سيما وأنها هى الأخرى حشاشة قرارية تصرف على الحشيش أكثر مما تصرف على أكلها وشربها ؛ أصبحت هى تنفق على الشاعر ببذخ شهده صالح بعينيه حينما جاءت ذات يوم فى صحبته لتشترى ربع أوقية حشيش بحاله وتتبضع من زجاجات العرقى والمزة واللحوم والفاكهة يوصلها بها صالح إلى سيارتها ماركة رمسيس شغل مصر .

سرعان ما اندفن هذا النبأ مع صاحبه فى طوايا النسيان كأنه من الأشياء التى لا نحب أن نتذكرها ؛ أو لعلنا قد ولينا وجوهنا نحو شىء جديد راح يستلفت أنظارنا ؛ تلك هى العلاقة التى جعلت تنمو نموا مطردا بين حياة البرى والممثل زكى حامد . ولما لم يكن قد بقى من الحرس القديم سوانا : زكى حامد وابراهيم القماح وأنا فإننا تلقائيا صرنا نحسب حكيم وصالح هيصة وصابر العسال ضمن أعضاء الشلة ، على الأقل بحكم العشرة القديمة التى من شأنها إزالة الفوارق الصناعية بين البشر ، حيث أصبح الحديث يدور بيننا فى ندية إنسانية . وهكذا اتفق رأينا جميعا على أن زكى حامد استخدم عينيه القويتين ببريقهما الحاد النفاذ المشع فى الإيقاع بحياة البرى واستمالتها إليه بشكل واضح تمام الوضوح

أصبحا يأتيان إلى الغرزة معا ، ينصرفان معا ، كثيرا ما تؤجل انصرافها ريثما ينتهى زكى من مراجعة دور له فى «اسكريبت» إذاعى سيسجله فى الساعة المقبلة لكى توصله بسيارتها إلى ماسبيرو . ولقد فوجئت ذات مساء وأنا جالس فى استراحة الطابق الرابع بمبنى ماسبيرو فى انتظار قدوم موظفى إدارة وحدة الصرف الفورى الخاصة بالفترة المسائية لأصرف إذناً بات معى من الأمس لا يجوز صرفه إلا من الوحدة المسائية ، فوجئت بفتاة غاية فى الرشاقة والأنوثة تمشى فى كبرياء وبساطة كأنها ذاهبة للاشتراك فى مسابقة ملكة جمال الكون واثقة من الفوز لا محالة . لويت عنقى نحوها لأتمعن فى وجهها الخلفى بعد أن

أدارنى وجهها الأمامى فكدت أقع مغشيا علىّ . من فرط التناسق الهندسى الإلهى البديع فى تكوين الوجهين مثل كفتى ميزان متوازنتين . ثم فوجئت بأن هذه الغادة الهيفاء تحيينى من بعيد ملوحة لى بذراعها البضة ؛ رقص قلبى لهذه المبادرة الهنية ، قررت اللحاق بها التعرف عليها جيدا ؛ لكنها ما لبثت حتى ارتدت عائدة من الممر الموصل لاستديو رقم ثمانية وثلاثين ، ثم اقتربت منى مادة يدها لتصافحنى ؛ فإذا بى اكتشف أنها حياة البرى . جلسنا فى الاستراحة ، قدمت لى سيجارة ، بسبست بشفتيها لعامل البوفيه المار من بعيد، فأتى ، طلبت قهوتين منضبطتين . قبل أن أترجم فضولى إلى كلمات قالت هى إنها فى انتظار زكى حامد حتى ينتهى من التسجيل فى الاستديو الثامن والثلاثين مع المخرج يوسف الحطاب فى برنامج أحسن القصص، ذلك لأنها - تقول - ستسهر الليلة مع زكى على عشاء عمل فى مكان عام إذ إنها اتفقت مع إذاعة البرنامج الثانى على أن تترجم لها مسرحية «مشهد من الجسر» للمؤلف الأمريكى المعاصر آرثر ميللر لكى يخرجها الحطاب ويمثل زكى حامد بطولتها ؛ ثم ردت على ما كنت أود أن أسأله فقالت إنها استلهمت فكرة ترجمة هذه المسرحية بالذات من وجه زكى حامد لشدة التشابه الكبير بينه وبين وجه بطل المسرحية ثم ما لبثت حتى اكتشفت وجود تشابه أقوى بين موقفيهما فى الحياة لدرجة أنها دهشت من قدرة آرثر ميللر على النفاذ إلى هذه النوعية من الشخصيات التائهة النبيلة المطحونة بين تروس ماكينات العصر الصناعى الرأسمالى القاسى . الحق أننى شخصيا سعدت بفكرة أن تترجم حياة البرى مسرحيات للبرنامج الثانى وللفرق المسرحية وللنشر كذلك لأنها فى الواقع أفضل بكثير جدا من محترفين لا يملكون احساس حياة البرى باللغة بمختلف أبجدياتها . إلا أن الإعجاب البازغ فى عينيها بشخصية زكى حامد يشى بأنه أكثر من مجرد إعجاب ، وبأن العلاقة بينهما دخلت فى طور الحب الصريح بشكل جعلنى أهتم بينى وبين نفسى بمصيره - الحب يعنى - اهتماما لا يوازيه إلا اهتمامى بمعرفة الأسباب الجوهرية التى أدت إلى قيامه على هذا النحو

القوى فى زمن قياسى لا يتناسب وحكمة حياة البرى وتعقلها : ماذا فى شخصية زكى حامد يفتن حياة البرى صعبة المراس ناضجة العواطف ؟!

صابر العسال له ابن خالة من إحدى قرى الشرقية اسمه عبدالودود وهو اسم على مسمى إذ هو حقا ودود ؛ تخرج فى كلية الحقوق منذ بضع سنوات ويعمل محاميا تحت التمرين فى مكتب الأستاذ عبدالعزيز الشوربجى ؛ هو طيب القلب جدا ، متواضع النفس والمظهر ، لا يستنكف من الموافقة على قول صابر حينما يقدمه لنا بأن الأستاذ ابن خالته ، لا يأنف من تبادل العطف والود الحميم الخاص مع صابر كابن خالة بالفعل. كان لبقا ، غير مقتحم ، لا يتطفل على قعدتنا وإن شارك فيها من بعيد لبعيد . ذات يوم فوجئ بزكى حامد جالسا بيننا ، فتهلل وجهاهما معا ، واندفعا نحو بعضهما بالأحضان بالقبلات بالسلامات الحارة ، ويا سلام على الأيام شوف الدنيا صغيرة ازاى ؟ وأخبارك إيه وعامل إيه .. الخ . علمنا أن عبدالودود زميل طفولة لزكى حامد ، إنهما مولودان فى بيت واحد وعلى يد داية واحدة فى حارة فى القرية وقد رضع أحدهما من أم الآخر ، وتزاملا فى مدرسة واحدة من أولى حضانة إلى التوجيهية – الثانوية العامة – ثم فرقت بينهما الأيام طوال تلك السنوات الغابرة . لقد سعد زكى برؤية عبدالودود فعلا ، فضحكا معا حتى النخاع ضحكا هستيريا نابعا من ذكريات مشتركة : وقد لاحظ عبدالودود ضاحكا أن وجه زكى لم يتغير مذ كان طفلا حيث كان إذا انفعل – فرحا أو غضبا – يلمع فى وجهه الأسمر معلمان بارزان : عيناه وأسنانه ؛ العينان يبدوان كفتحتين خلفتهما شريحتان منزوعتان من شيش شباك مدهون باللون الرمادى الغامق يطل منهما ضوء مموه بالظلمة يصبغ بشرة الوجه بالسلقون اللامع .

طفولة زكى حامد – طبقا لرواية عبدالودود – كانت شقية مؤلمة . أمه كانت صبية فى الثانية عشرة من عمرها يوم تزوجت من تاجر مانيفاتورة يدعى حامد نبيه الدهشان، ينحدر من عائلة ذات أصول بدوية، كان شريكا لإخوته الكثار فى

محلات كبيرة لبيع الأقمشة فى مدينة الزقازيق ويدير فرعا لها فى قريتهم صاالحجر . كان فى الأربعين من عمره ؛ طويل عريض بصحة جيدة؛ كريم معطاء يعشق السهر والمواويل وصنع المزامير من البوص على مختلف أحجامها من الأرغول المتعدد القصبات والعقلات إلى المقرودة ذات القصبة الواحدة ومن الناى إلى السلامية : حينما تقدم للزواج من هانم صغرى بنات الحاج خليفة الفرماوى شيخ خفراء البلد رحبوا به فلم يلتفتوا لفارق السن الكبير بينه وبين البنية سيما وأنه دفع مهرا كبيرا يليق بأجمل صبايا القرية . قيل إن الحاج خليفة الفرماوى كان متأكدا أن ابنته هانم تحب حامد الدهشان وترضى به زوجا أبديا . وصحيح أنها كانت تعتبر طفلة لكنها كانت ناضجة وذكية وتفهم أن حامد الدهشان رجل ولا كل الرجال . بعد شهر واحد حملت منه فى زكى ، الذى فرح به أبوه يوم مولده فرحا عارما ونذر لينفقن عليه فى التعليم حتى أعلى الشهادات ؛ لكنه مع الأسف مات قبل أن يكمل ابنه عامه الثانى ؛ حيث أصيب بوجع فى كتفه الأيسر ظل يصرخ منه طول الليل فما إن طلع الصباح ونقلوه إلى مستشفى البندر بالركايب حتى لفظ أنفاسه فى ذبحة صدرية حادة .

هانم أمه كانت أشجع من الرجال . عمرها آنذاك لم يصل بعد إلى الخامس عشر ، يعنى لا تزال طفلة رغم أنها أصبحت أما ؛ فما هان عليها أن تنتقل بطفلها إلى فراش رجل آخر بعد الذى أحبته . ولكن بعد سنة من رحيله بدأ أهلها يلحون عليها أن تلحق بنفسها قبل أن يفوتها القطار لأنها لا يصح أن تقضى العمر أرملة وهى فى عز الصبا ؛ إلا أنها أصرت على البقاء أرملة حتى تربى ابنها بعيدا عن زوج الأم أو زوجة العم ؛ فطالما أن أشقاء زوجها يرسلون اليها نفقة ابنهم بانتظام وبوفرة ويطلعونها باستمرار على ما يدخرونه له من نصيب أبيه فى الأرباح فما الذى يقلقها ؟ إلا أنها مع الأسف لم تقو على الصمود أكثر من أربع ، من أربع سنوات شافت فيها العجب ؛ كانت أشبه بالمعروضة فى مزاد علنى يتسابق إليه ويتنافس عليها أولاد السوق بالمزايدات المتصاعدة فيما هى معرضة عنهم جميعا

إلى أن جاءها السعد كله في أحد الأثرياء الكبار من قرية مجاورة كتب باسمها بضعة أفدنة وابتنى لها سراية مستقلة لأنها كانت في الواقع تنطوى على جاذبية خارقة . ضغط عليها أهلها وأهل ابنها ، كلا الأهلين يخشى عليها الفتنة رغم وثوقها وتوقهم من عفتها ورجاحة عقلها . وافقت على الزواج ؛ انتقلت فى زفة مهيبة إلى سرايتها الخاصة فى عصمة زوجها الجديد . أما زكى فقد تسلمه أهله ، عهدوا به إلى جدته أم أبيه التى كانت برغم بلوغها الثمانين من عمرها قوية متماسكة قادرة على العطاء الأمومي المكثف . ولأن أمه أصبحت فى بلد آخر بعيد، داخل دائرة مغلقة ونمط حياة تختلف كثيرا عن الجو الذى يعيش هو فيه فإن الصلة بينهما قد انقطعت إلا من سلامات وأشواق مرسلة ولقاءات خاطفة فى مناسبات متباعدة . حنان الأم الذى افتقده زكى عوضته جدته ، إلا أن شيئا ما فى حياته ظل غائبا ؛ شيئا لا يدريه على وجه التحديد كان غيابه عن حياته يرسخ فى قاع صدره جبال الكآبة والشعور القاتل بالوحدة رغم وجوده وسط عدد كبير من أبناء أعمامه المتقاربين معه فى العمر يعيشون جميعهم فى دار واحدة فى نفس القرية فيما عدا جده الكبير يعيش فى الزقازيق مع ولديه الكبيرين والقريبين منه فى العمر أنجبهما صغيرا من أم سابقة رحلت فى زمن مبكر . ومن حين لآخر كان زكى يقوم بزيارة جدته لأمه وأحيانا يبيت عندها خميسا وجمعة لكنه مع ذلك كان دائم الشكوى لعبد الودود من الشعور بالوحدة ، فهو إذا نجح فى المدرسة لا يجد من يفرح له ، مبروك ، مجرد كلمة تلقى إليه على عجل سرعان ما ينتهى صداها قبل اكتمال نطقها من عمه جدته، عمته، أحد أبناء عمه ، وإذا جاءه ملحق لا يجد من يواسيه بل قد تمضى الشهور دون أن يعنى أحدهم بمعرفة ما إذا كان قد نجح أو رسب أو فى أى عام دراسى هو ، بله أن يسأله أحد عما به أو ماذا يشغله؛ هو فى الدار مجرد فرد يأكل ويشرب ويكتسى ويأخذ مصروفا كما يشاء لكنه وحيد ، غريب ، كما أن حضن جدته العجوز الهتماء بات يعمق فى صدره الشعور بالكآبة ..

فى أعماقه كان واثقا من أحقية أمه فى الزواج ، يعلم أنه من الظلم أن يفرض عليها الانقطاع له وحده فتصير مضغة فى الأفواه مما قد ينكد عليه عيشه، إلا أنه في نفس الوقت كان حاقدا عليها ليس لشخصها بل باعتبارها رمزا لانعدام العدل فى هذا الكون ، للتخلى والانسحاب وتفضيل النفس على فلذة الكبد؛ فهو تارة يلعنها وتارة يطلق فيها قصائد المدح والثناء والتقدير . يا طالما تحدث مع عبدالودود وهما يذاكران معا فى الدراسة الثانوية عن طبيعة المرأة كشئ غامض بالنسبة له يعجز عن تفسيره وكثيرا ما كان الحوار بينهما فى اللحظات المختلسة يخضوضر يتفرع إلى حديث عن غدر الزمان وسلطان المال وانفساح الطريق دائما للأندال والأشرار يتحكمون فى مصائر الشرفاء والمساكين .

ورث زكى عن أمه جاذبيتها القوية واشعاع عينيها الملئيتين بحزن عميق بهيج شفاف فى آن ، وشفافية بشرتها البيضاء المشربة بالاحمرار كاللبن الحليب مضافا إليه مسحوق القرفة ، تتفاعل تحت هذه البشرة فتعطيها لون الكاكاو ، لدرجة أنك تحار فى لون بشرة زكى حامد هل هو أبيض أم أسمر أم برونزى أم رمادى . وورث عن أبيه ذكاءه الحاد ، العملى ، والقلب الحامى . وعن قبيلته البدوية المصرية ورث الاندفاع فى الحق، والحدة فى الدفاع عن شرف القبيلة – حل محلها الوطن – والإسراع بغوث المستغيث ، والايثار أحيانا ؛ لكن تكوينه النفسى والاجتماعى أورثة الكثير من من التناقضات المحيرة ؛ فأنت فى لحظة ما قد تعتقد اعتقادا جازما بأنه نواة رجل عظيم فذ متفرد ؛ وفى لحظة أخرى قد يداخلك اليقين بأنه خسيس غدار لا يعرف إلا مصلحته فحسب . لقد اختلفت فيه الآراء وتضاربت لكنه مع ذلك حظى بحب جميع من عرفه بشكل لافت للنظر ، لدرجة أن أقرانه ربما اشبعوه اغتيابا ووصفوه بأشنع الأوصاف وألصقوا به كل الموبقات ولكنهم ما إن يروه حتى تشرق وجوههم يأخذونه بالأحضان لا يتورعون عن انفاق آخر قرش معهم على مرضاته ، وإن غاب سألوا عنه باهتمام ، لهذا كان طوال سنوات التلمذة فى المدرسة الثانوية أشبه بنجم صغير فى محيط ضيق ؛

دائماً تراه فى كل مصيبة كل فرح كل مظاهرة كل لعبة حتى جميع الجمعيات الطلابية كان عضوا بارزا فيها من الخطابة إلى التمثيل إلى الصحافة إلى الكشافة ؛ دائما أبدا هو المحور ، هو الألفة، هو المتكلم هو المتصدر لكل شئ حتى ولو كان خطيرا يهدد مستقبله .

الولد – يقول عبدالودود – كان شعلة نشاط غير عادى ، ربما بحجم ما فيه من قلق وعدم استكانة ؛ يفضل قضاء وقت فراغه فى غرزة حشيش على أن يقضى ساعة واحدة فى محلات أهله ، يكون فى قمة السعادة حين يتعرف على ناس جدد، على مناطق وعرة فى المدينة ؛ البحث عن مغامرة جديدة يشغله باستمرار . ما إن حصل على الثانوية العامة حتى جهز أوراقه وسافر إلى القاهرة ليلتحق بمعهد الفنون المسرحية . ثم علمت القرية بقبوله فى المعهد . وصحيح أن أهله قد عجبوا من اختياره واستنكروه حيث كان جده يأمل فى استقطابه للعمل فى المحلات ، إلا أنهم سلموا باختياره ، وكانت أنباء نجاحه المستمر تبلغ عبدالودود وتفرحه ؛ ثم اتسع نطاق أخباره فأصبح يقرؤها فى الصحف ، ويسمع اسمه فى الإذاعة ، وكان يتمنى أن يراه ؛ ولقد صدق المثل حقا: مصير الحى يتلاقى ولو بعد عمر طويل .

سيرة زكى حامد هذه أصبحت ماثلة شاخصة ونحن نرقب نمو العلاقة بين حياة البرى وبينه إلى هذا الحد المتطور حتى أصبح كل منهما يتحدث نيابة عن الآخر فى غيبته. ورغم توقعاتنا لما يمكن أن يحدث من تطور بل واستعدادنا لتقبله فإن الخبر قد دهمنا بقوة أدارت رءوسنا يوم دعينا جميعا إلى قاعة ألف ليلة وليلة فى فندق هيلتون النيل المتاخم لحى معروف بحيث يستطيع السائح من غرفته فى الطابق العلوى رؤية حى معروف بكامله مثل قرحة كبيرة فى معدة المدينة المريضة بعسر الهضم تتقيأ سكانها باستمرار إما إلى القبور المزدحمة بالأحياء أو إلى الشوارع المتخمة بالأموات يمشون على الأقدام ويثيرون الجلبة الكاتمة للأنفاس: بيوت متهدمة وأخرى شائخة وآيلة للسقوط تبرقشها طشوت الغسيل والكلاب

والدواجن والورش والغرز والأعشاش والتحويطات وجبال القاذروات العفنة النتنة .
من هذه العشش خرجنا كويدان طردتها الدمامل المنفوخة بالقيح : خرمنا من سرداب أم يحيى ، إلى شارع الانتيكخانة فميدان عبدالمنعم رياض . ثم تقافزنا كالقرود أمام السيارات ونحن نعبر الطريق إلى مبنى المتحف المصرى ونحود مع جداره لتصيبنا قشعريرة التقزز من شبح مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى تزايلنا بمجرد عبور حارتها إلى مبنى الهيلتون .

الدعوة التى تلقيناها كانت للاحتفال بدخلة حياة البرى على الممثل زكى حامد وسط جمع غفير فوجئنا بارتفاع مستواه بصورة سخفتنا تحتها : وفود من الأمريكان والانجليز والفرنسيين والسوفييت والطلاينة ، لفيف كبير من كبار الفنانين من مختلف المجالات ، وكلاء وزارات ومديرو محطات اذاعية ومقدمو برامج تليفزيونية ، صحفيون وكتاب ومترجمون ، مطربون وراقصات ملء السمع والبصر تطوعوا بالغناء والرقص والتهريج ، أما العروسان فلم يكونا هما على الإطلاق ، بحثنا فى وجهيهما عن ملامح زكى حامد وحياة البرى فلم نجد أى ملمح يمت اليهما بصلة إنما عرفناهما بالويم من خلال بعض الإيماءات وظلال الحركات الخاصة بكل منهما .

أثناء عودتنا من الحفل بعد منتصف الليل بدا أننا غير قانعين بما نلناه من بعض كئوس الويسكى والبيرة وشرائح اللحم ، فاتجهنا تلقائيا إلى موطن المزاج الحق فى معروف. دهمتنا كآبة الغرزة بعد الأضواء الصاخبة ، تحسسنا الكراسى فى ظلمة الحارة تحت الربوة ورأينا أن نوقع حجرا بحجر، ثم رحنا نشرب فى صمت عميق. أخيرا قال عبدالودود انه الليلة اكتشف شيئا خطيرا جدا جدا هو أن الشبه بين حياة البرى وهانم أم زكى حامد قوى إن لم يكن متطابقا وانه لمتشائم من هذا الاكتشاف لأن أقل ما ينبئ به أن الزواج لن يكون ناجحا . قلت لعبد الودود: هل ترى أنه سيحاكم أمه فى شخص حياة مثلا ومن أجل هذا الدافع الخفى تزوجها ؟! قال عبدالودود كأنه يقرر بديهية : بل ليستردها فحسب ! هو

الآن فى قمة السعادة لأنه قد استرد أمه التى سلبت منه فى طفلولته فسلبت طفولته ! ولكن السؤال الآن : حتى متى ستستمر هذه الفرحة ؟ الله وحده أعلم .

الحق لقد استرحت لتحليل عبدالودود ، أوشكت على اعتناقه ؛ وبدا كأن إبراهيم القماح قد توصل هو الآخر إلى تحليل خاص به ، ثم بدا كأننا معا اتفقنا سرا على عدم فتح هذا الموضوع كلما التقينا ؛ كنا نقضى الساعات الطوال فى صمت وروقان يتخلله صوت كركرة الجوزة وشد الأنفاس ، وقد نرفع رأسنا فجأة فتلتقى العينان بالعينين فنندمج فى ضحك عميق بلا صوت على الإطلاق كأننا ننفض جسدينا فى الأرض بقوة ؛ ثم نزفر زفرة ذات معنى ويغطس كل منا فى بئره الخاص . ثم فوجئت ذات عصرية بزكى حامد يمر على الغرزة بعد انقطاع طويل جدا تحول خلاله إلى صفحة من تراث الغرزة يحلو لنا أن نتصفحها من حين لآخر فى زهو وغبطة ثم نطويها قائلين : ربنا يسهل له . كان قد دخل بالفعل فى طور النجومية حيث لعب بطولة مسلسل تليفزيونى حظى بقبول جماهيرى ملحوظ فانفتح له طريق البطولات فى المسرح والتليفزيون. عصريتذاك كان ذاهبا إلى استديو جلال للمشاركة فى دبلجة فيلم روسى - لعله هاملت الروسى - إذ إن المخرج المصرى اختار زكى ليطبع صوته بالعربية على صوت ممثل هاملت الروسى . لاحظت أنه يرتدى فانلة من القطن بنصف كم بدون ياقة ، صورة طبق الأصل من الفانلة التى نرتديها تحت ثيابنا لكنها تتسم بالأناقة فوق بنطلون من الصوف الرمادى الخفيف : جسده امتلأ بعد الزواج ، اكتنزت ملامحه ، غزر شعره فتركه مهوشا ؛ وفيما هو يلتفت ليمسك ببوصة الجوزة رأيت جانب وجهه حيث اختفى الفك فى العنق الممتلىء ، فتملكتنى رعدة خفية حيث بدا لى لحظتئذ صورة طبق الأصل من صالح هيصة . ها هما معا فى المواجهة ؛ أقسم بالله أن لا فرق بينهما سوى فى شكليات طفيفة كبياض الشعر عند صالح ونظافة الملبس عند زكى ، فيما عدا ذلك فإنهما - فيما بدا لى - جوهر واحد فى صوت واحد على لهجة واحدة، بمفردات واحدة، إن زكى الذى كان فيما مضى مغرما بتقليد

صالح هيصة أصبح الآن أكثر إتقانا من صالح هيصة نفسه بطبيعة الحال حيث براعة التقليد على أرض من الموهبة الكبيرة استشفت الجوهر تقمصته أو تقمصها ليس ثمة من فرق ، صار النموذج أكثر بهاء ولمعانا من الأصل تماما كالتمثال المنحوت لسعد زغلول مثلا بأزميل المثال مختار حتى يبدو أكثر غنى وجاذبية من سعد زغلول نفسه . صارت الابتسامة الشقية ترف على شفتى رفيف الخاطر الخبيث الذى راح يناوشنى ليدخل فى روعى أن حياة البرى قد تزوجت فى حقيقة الأمر صالح هيصة . على أن زكى حامد اعتاد – من جديد – أن يمر على الغرزة من حين لآخر ، لا ليخطف مزاجا سريعا يستعين به على تصوير أو عرض مسرحى ، فحسب ، بل ليمتع نفسه ويمتعنا معه بمنظر الأطفال وهم يتحلقونه ويتسابقون لمصافحته يداً بيد ، وبتمييز الخدمة التى سنحصل عليها إكراما لخاطره .

البركان

مثلما فاجأتنا الهزيمة الكافرة فى العام السابع والستين ؛ ومثلما داهمنا – على غير توقع أيضا – خبر انتصارنا الساحق على العدو الصهيونى فى العام الثالث والسبعين : ومثلما داهمنا خبر الثغرة ، وحصار الجيش الثالث الميدانى ، وخبر وقف إطلاق النار .. داهمنا كذلك – وعلى غير توقع على الإطلاق – خبر زيارة الرئيس السادات الى القدس لتقديم النوايا الطيبة لقادة اسرائيل إثباتا لجديته فى اعتزامه إجراء صلح بيننا وبينهم .

السكين سرقتنا لوقت طويل ، كنا نظن خلاله أن الرئيس السادات يمزح بنكتة مصرية متطرفة ، ثم داخلنا الاعتقاد بأنه يناور لغرض فى نفسه لاشك سينقذنا من الورطة ، يفك حصار الجيش الواقع بين فكى الكماشة ؛ لكننا فوجئنا بأن الأمر واقع شاخص نراه فى التليفزيون عيانا بيانا .. ها هو ذا الرئيس السادات يأخذ أعداءنا ويأخذونه بالأحضان ، يجلس مع بيجين وشارون وديان وجولدا مائير على مائدة واحدة فى ديارهم المنتزعة منا عنوة واستقدارا ..

صالح هيصة يشير إلى بعض الصحفيين المعروفين صائحا فى ضحك يختلف تمام الاختلاف عن ضحكه المبهج الصافى المنطلق ، إنما هو ضحك يتكيء على إيقاعات التوتر البركانى المزلزل بعنف : يصيح :

– «هاها هاى ! واخد معاه الهيصة كلها ! كل واحد من دول فى هيصة ! عامل الهيصة ! عشان يلحق الهيصة اللى حيشتروها بدم عيالنا ! يلا يا كحيانين يا ولاد الوسخة ! بتنصبوا علينا بقى لكم خمسة وعشرين سنة باسم الثورة وتحرير الأرض وقضية فلسطين !! هاها هاى ! إلْ .. حـ .. ق ! فاكرينا مصدقين!! إلْ .. حق ! طب نصدق الحرب اللى حصلت دى كلها ازاى ؟! إلْ .. حاق ! ولاد الناس ماتوا أو نطه ف أونطه عشان شوية مجانين كراسى يفضلوا على الكراسى ؟ هأوها .. إلحق !!»

في غمرة انفعاله رمى الحجارة ونط خارجا . كان واضحا أن مسا من الجنون قد أصابه ؛ بعد تخطيه عتبة الغرزة ارتد عائدا ، لكز حكيم في كتفه :

– «هات نص جنيه بسرعة !»

لم يتردد حكيم ، كبش من سيالته حفنة برايز ورقية جمع منها خمسة سلمها له ؛ فأخذها وهرول خارجا .

ليلتذاك تجمعت الشلة بصدفة عجيبة بعد طول شتات ، ولكن يبدو أن خبر الزيارة الفعلية ونقلها مباشرة على الهواء ليراها العالم أجمع كان قد رفع درجة حرارة البركان الجماهيرى فبدأت تفجراته السلمية تجد لها متنفسا في الأرض الرخوة ؛ هجّ الناس من بيوتهم إلى الشوارع والمقاهي ولم يبق في البيوت إلا عدد محدود ممن يملكون أجهزة بث تليفزيوني . التأم شمل الشلة ، باستثناء طلعت الإمبابي ومصطفى لمعي لسفرهما تواجد قمر المحروقي وإبراهيم القماح وفاروق الجمل وزكي حامد وعبد الودود ومرسي خلاف ووجدي الوكيل ووليد رشيد . التليفزيون الباى ١٧ بوصة أبيض وأسود – الذى كنا نتفرج عليه – أتى به زكي حامد من سيارته الفيات ١٣٢ التى اشتراها مؤخرا من لاعب كرة شهير بألفي جنيه : قال إنه كان يترقب انتقال الإرسال الى القدس فرأى أنه لن يحتمل رؤية هذا المشهد المخزى إلا بين صحابه ومع التحشيش بعمق لعله يهدىء ثائرة بركان يتقلب في جوفه منذ الصباح ؛ ثم أردف بلهجة خطيرة ينتقد بها نفسه وينتقدنا :

– «مصيرنا كله بيتغير اللحظة دى واحنا قاعدين نحشش !!»

فشوح إبراهيم القماح قائلا إن المسألة كلها من أول قيام الثورة إلى هذه اللحظة مجرد تحشيشة كبيرة في.أمسية مواتية طولها ربع قرن من الزمان . فعلق حكيم :

– «مظبوط يا بو خليل ! الرئيس السادات باسط الشعب من الناحية دى على الآخر ! حشيش للركب في حته ! أنا مش فاهم انتو زعلانين منه ليه ؟ ! المثل بيقول ! الإيد اللى متقدرش تقطعها بوسها !! وده لا سمح الله مش رايح يبوس

أيادى ! بالعكس ! الراجل ده معلم دقرم ! قرصهم قرصة طلعت بالدم ! وراح لهم مالى مركزه يقول لهم أنا أهه عايزين تصطلحوا أهلا وسهلا مش عايزين حيبقى كل يوم من ده !!

وبعدين احنا مصريين دمنا زفر ما يتاكلش !!»

وغطس دماغه بين كتفيه وهو يحبس الابتسامة بين شدقيه فبدأ كأنه يعصرها فى حلقه ، وبدا عليه الإحباط لأن كلامه لم يبدد شيئا من الكآبة التى استوطنت جميع ملامحنا فكأننا فى مأتم حار ؛ لكن حكيم انتفض فجأة واقفا كأن قطعة نار سقطت فى حجره ؛ ثم أقعى مشيرا بذراعه المعروقة إلى شاشة التليفزيون صائحا فى ذهول :

– «أهه ! أهه ! فاكره يا أستاذ قمر ؟ يا ابراهيم ؟ الواد وجيه فرحان ! الشاعر الكحيان اللى كان قارفنا فى عيشتنا وابراهيم كان بيدفع له بقية الحساب!

آه يا بتن يا ابن النتن ! قال بيقولوا من بلد يوسف عتريس الصحافى ! آخر مرة كرشته هو والبنت السنكوحة بتاعته !»

كانت غدسات التصوير قد ركزت على موكب الرئيس السادات لحظة استقباله والتفطت وجه وجيه فرحان فيما هو ينادى على أصدقائه المصريين المصاحبين لموكب الرئيس ، يأخذ الإذاعى على فايق زغلول بالأحضان ، ويصافح الصحفيين والمذيعين بحرارة تنضح حميمية صادقة . جمدنا الذهول ، أعيننا جميعا جوّفها الغباء فبدت محض ثقوب يفح منها الظلام . المرجح أن كل واحد فينا يقلب الآن فى محتوياته الداخلية ليعرف ماذا دار ذات يوم بينه وبين هذا الوجيه فرحان الذى يستقبل الوفد المصرى المصاحب للرئيس السادات باعتباره أحد ألمع الإعلاميين الإسرائيليين . أصابنا الدوار العنيف أنا شخصيا حاولت جاهداً أن أتذكر آخر مرة رأيته فيها منذ سنوات طويلة فاختلط على الأمر بين مرة كانت فى مكتب الإذاعى على فايق زغلول يتفق على كتابة فواصل زجلية تربط بين فقرات برنامج

مسرح المنوعات الذى يسجل فى مسرح بحضور جمهور ، ومرة فى مكتب الإذاعى الأزهرى يحتال عليه بابتسامته الداهنة لكى يسلفه جنيها على ذمة برنامج سيسجله بعد غد لإذاعة ركن السودانى والدليل على صدق كلامه أن مأمون النجار جالس قبالة إيهاب وها هو يومىء برأسه لإيهاب أنه سيسجل بالفعل ؛ لا أدرى أى المرتين كانت هى الأخيرة ؛ لكننى عجبت جدا كيف أننى لم أتذكره طوال هذه السنين المنصرمة على الإطلاق ؟! لا ولم يتذكره أحد من الشلة مطلقا حيث انقطعت سيرته بانقطاعه المفاجىء عن المجىء . نظرت فيمن حولى ببلاهة :

– «إيه تفسيركم لده ؟!»

قال فاروق الجمل :

– « لو كان طلعت هنا كان قال : مالهاش إلاتفسير واحد : الولد ده إسرائيلى! والموساد زرعه فى مصر عشان يتجسس على الوسط الثقافى والسياسى من قلب الإذاعة ! يستغفلنا كلنا وينقل أخطر المعلومات !!»

ضحك قمر المحروقى فصار حنكه كحنك التمساح :

– «وجيه فرحان مصرى ! أنا أعرف أهله وناسه كلهم فى بلدهم ! وله عم ف مصر عتيقة على ما أظن بيشتغل سواق فى هيئة النقل العام ! وأعرف ناس كانوا زمايله فى المدرسة !!»

شوح إبراهيم القماح فى أسى عميق :

– «دى تبقى أوسخ يا جدع !من ناحيتى أنا .. ياريته كان طلع يهودى كان أحسن ! ما كنتش حازعل ! لكن مصرى ؟ ومسلم ؟ هى دى الكاينه الكبيرة يا جدع ! الناس جرى لها إيه يا جدعان ؟!».

لمع البريق الجهنمى فى عينى زكى حامد :

– «حقاش يكون الموساد زارع العيلة دى بحالها فى أرض مصر من القرن الماضى مثلا !!».

ومال وجدى الوكيل بجذعه كله نحونا وعدل المنظار الطبى الذهبى على أرنبة أنفه ثم راح يلوح بأصبعه فيما يشبه الولولة :

- «طب إيه رأيكم إن أنا شفت الولد ده ف مطار ليبيا يوم ما سافرت أشتغل هناك ؟! هو اللى جه سلم علىّ وفكرنى بنفسه ! افتكرت : لاحظت ان كان فيه ناس بتقف لما يقف وتمشى لما يمشى ! أبو الله العظيم كده ! افتكرت كمان إن الكام شهر اللى قعدتهم فى ليبيا كان فيه زباين تكلمنى عن مصر وبعدين تسألنى عنه أقول لهم دا هنا ف ليبيا وأنا شايفه وبقيت مضطر أحلف لهم ستميت يمين إنى ما أعرف عنوانه !!»

صوت صرخة طفولية أوقفه عن الاسترسال ، فى أعقابه اندفعت ابنة حكيم الطفلة تلهث هاتفة :

- «إلحق يابا ! البوليس نازل ضرب فى صالح هيصة!»

شوح حكيم فى وجهها متفجعا :

- «مالناش دعوه ! يقطعوه حتت ! يستاهل!

عامل الهيصة وحيودينا ف داهية ! باقول لكم إيه يا جماعة ؟ اقفل الباب ده يا صابر وانقلوا جوه ! طفى نور الكهربا وشغل لمبة الجاز عشان اللى ييجى يعرف ان احنا شطبنا ! الليلة دى باين عليها مش حتعدى على خير ! قليل ان ماجه البوليس يهجم علينا بسبب المجنون ابن المجنونة !!»

قال زكى حامد :

- «طب ما نمشى كلنا !! إحنا كده احلوينا خلاص ! يلا بينا يا جماعة !»

بسرعة رشيقة مد ذراعه نحو حكيم بورقة من فئة الخمسة جنيهات رافعا يسراه نحونا ليوقف أيدينا عن الدخول فى جيوبنا :

- «الحساب كله يا حكيم !»

اتجه قمر وصحابه إلى سياراتهم الراكنة فى شارع عبد الخالق ثروت أمام نقابة الصحفيين تحت كنيسة القلب المقدس . واتجهت مع زكى حامد إلى سيارته الراكنة فى شارع الأنتيكخانة . رأينا البوليس يجرجر صالح هيصة يدق عنقه

بدباشك البنادق يشوط مؤخرتها بالشلاليت ، وهو فى عز الفرهدة والهوان يحاول عدل لسانه المبروم فى حلقه ، يجعر بأعلى صوته :

مين قال له يروح يصطلح مع اسرائيل ؟! بيتصرف بمزاجه ؟! طقت فى دماغه زى ما بيقول ؟! أنا بقى طقت فى دماغى أوريه مركزه !

ما .. ما .. ما هى طقققان بطلقان خلاص بقى كل واحد تطق فى دماغه حاجة يعملها !! طب وعيالنا اللى ماتوا دول ؟ طياراتنا اللى اتدمرت فى أنشاص من قبل ما تحارب ؟! دا فيه عيال لسه ما رجعتش من سبعة وستين ! طب ومدرسة بحر البقر ؟! حد فيكم يرد يا جبنا »

انهالت عليه الشلاليت والبونيات من كل حدب وصوب ؛ مقتلة بمعنى الكلمة . ارتعشت أطراف زكى حامد وظهر الشحوب علىّ ينذر بأننا - هو وأنا - سنقع حالا فى كارثة ربما سوت بيننا وبين صالح فيما يلاقيه . فجأة صار زكى حامد يدمدم بصوت مرتفع كأنه يهتف فى جماهير عريضه :

- «لأ بقى ! دى مقتله ! هو ينفع كده برضه ؟!

إحنا فين ؟! ده مهما كان مواطن مصرى له حق الاعتراض !

هى طريقته اللى ميعرفش غيرها تعملوا فيه كده ؟!»

حاولت أن أسحبه الى السيارة ، أن أجعله يخزى الشيطان ويركب ليبعدنا عن هذا المنظر البشع ؛ لكنه شد ذراعه من يدى بقوة ؛ اتجه منفعلا إلى أحد كبار الضباط يقف بجوار عربة الشرطة ، هتف به :

- «يا افندم أظن حرام اللى بيحصل ده ! المنظر ده عيب قوى فى حق الشرطة وحق مصر كلها ! وأكيد زمان وكالات الأنباء كلها صورته !!»

- «نعم يا روح امك إنت كمان ؟!»

- «ما اسميش روح امك ! اسمى زكى حامد ! ومعايا مؤهل عالى زيك وشهادة ميلاد مصرية زيك !»

- «خلاص عرفناك ! شغل المنظرة بتاعكم ده ما احناش فايقين له الساعادى ! مش انت اللى حتعلمنا شغلنا !»

– «يا كابتن مفيش حد بيعلم حد شغله ! بس ده راجل مش فى وعيه ! وغضبان من المفاجأة اللى حصلت !»

– «ده مجنون واحنا عارفينه !»

– «طب ما دام عارفين إنه مجنون سيبوه يروح لحاله !»

– «تحب تشرفنا فى الحجز الليلادى ؟!»

جاء العسكر بصالح هيصة جثة مكتوفة اليدين والرجلين مكمم الفم ؛ ألقوا به فى سيارة الشرطة ، فتح عينيه فرآنا ، فهتف به زكى بصوت متحشرج :

– «ما تخافش يا هيصة ! حنجيب لك واحد محامى يطلعك حالا!»

اتجه نحو سيارته وقد انهمرت دموعه بغزارة :

– «أنا لازم أروّح دلوقتى أشوف حياة يمكن تعرف حد كبير له نفوذ عند الشرطة ! لازم نطلع هيصة قبل ما يقتلوه من التعذيب ! يا ريتنى ما اتدخلت !»

وراح يضرب رأسه بيديه فى قوة وعنف وغضب فيما هو يواصل الدمدمة :

– «أنا غلطت غلطة بشعة ممكن صالح يروح فيها ! دلوقتى حيفتكروا إن صالح ده مخلب قط ! إن وراه حزب سرى سياسى معارض ! أنا وانت كده ظهرنا كإننا معاه ! كإننا مسلطينة ! إحنا الرءوس المدبرة وهو الأداة ! حيقتلوه عشان يعترف لهم بأسماء المدبرين ! طبعا حيفتكروها عملية كبيرة ! أنا تايه عن البوليس المصرى ؟! تلتميت ضابط عاوزين ينزقوا فى عملية زى دى ف وقت زى ده !!» .

فتح لى الباب اليمين فركبت بجواره ؛ سحب منديلا ورقيا وجفف به دمعه :

– «أرجل واحد فينا !! حد يقدر يعمل اللى عمله ؟!»

فى تلك اللحظة ظهرت طائفة من العسكر مقبلة نحو سيارة الشرطة ساحبة صديقنا الكاتب والمترجم الماركسى إبراهيم منصور وبعض المثقفين الذين كانوا على مقهى ريش منذ برهة . وكانت الخطبة الفلتانة التى خطبها إبراهيم على المقهى قد وصل إلينا رذاذها وأخذ يقترب إلى أن ظهر إبراهيم مكتوف اليدين يجعر بأعلى صوته : يا خونة ! يا مجرمين ! بتبيعوا البلد لمين ؟، وكانت قامته

أطول من قامة العسكر ، ورقبته الطويلة هى البارزة كلها فوق الرءوس برأسه الدقيق وفكيه الحادين الطويلين فبدأ كحوت قفز على سطح الماء يلتقط جرعة هواء تأمله زكى وابتسم بمرارة :

– «أهو ده راخر عاوز حد يطلعه !»

وانطلقت السيارة حيث أنزلتنى فى باب اللوق ثم واصلت طريقها إلى مصر الجديدة .

كل الوسائط التى أتينا بها من كل ناحية عجزت عن الإفراج عن صالح هيصة، بل عجزت حتى عن الإثبات بأن هناك شخصا اسمه صالح هيصة . من بين الوسائط أديب ولواء شرطة فى نفس الوقت يعمل مساعدا لوزير الداخلية فى شئون العلاقات العامة وهو تقريبا حلقة الوصل بين الوزير ورجال الإعلام المكتوب والمسموع والمرئى ، وإلى ذلك هو رجل دمث يكتب الدراما التليفزيونية ويحضر معنا فى الكثير من الندوات والأمسيات الفنية . هذا الرجل الجاد المحترم استشاط غضبا من عجزه عن فهم ملابسات الموقف فما كان منه إلا أن اصطحبنا فى سيارته : حياة البرى وزكى حامد وأنا ، فمررنا على جميع الحجوزات وسجن القلعة ، وجىء له بجميع الدفاتر فلم يجد بين المحتجزين شخصا باسم صالح هيصة لا ولا الاسم الذى صححناه بصالح عبد البر ! كان صديقنا اللواء نور الدين فى غاية الحرج من إصرارنا على الاعتقاد بوجود شخص بهذا الاسم تحت يد الشرطة فى حين أن كل الذين قبض عليهم بسبب التظاهر ضد المبادرة قد خرجوا حتى اسألوا صديقكم إبراهيم منصور ورفاقه ؛ ثم نبهنا إلى أن علينا البحث فى تخشيبات أقسام الشرطة حيث هى مخصصة لأمثاله من المشبوهين جنائيا ..

كانت عملية أشبه بالنكتة السمجة حينما أخذنا نلف بسيارتى زكى وحياة على جميع التخشيبات وقد حرصنا على التوضيح : صالح عبد البر مهران وشهرته صالح هيصه ! ، ولم نترك مستشفى إلا وفتشنا فى دفاتر استقباله ، حتى

المشرحة زرناها وراجعنا محتويات الثلاجة من الجثث المستفة فيها وكل ذلك دون جدوى . كدنا نصاب بالجنون فعلا ، فلجأت حياة إلى أصدقائها من الصحفيين والكتاب المسموح لهم بالمزاح الشكلي الخفيف مع الحكومة فكتبوا تساؤلات ولقطات وكبسولات فى نهاية أعمدتهم ويومياتهم ، وحاولت حياة البحث عن صورة فوتوغرافية له كي تنشرها الصحف ضمن التائهين أو المفقودين فلربما يكون قد فقد الذاكرة وهام على وجهه فى بلاد الله ، فلم نجد له أى صورة ؛ فإذا بحياة التى لم تجرب الرسم طول حياتها ولا تعرف عنه أى شىء - تعتكف فى بيتها أربعا وعشرين ساعة أمام الورق والريشة والألوان تعصر نفسها عصرا حتى تمكنت من رسم صورة مكبرة لوجه صالح هيصة من ذاكرتها . يا إلهى ، إنه لشىء خارق ؛ الذهول يجمدنا ونحن نتناقل اللوحة لنتمعن فى كل ملمح فيها مأخوذين بالتطابق التام بين اللوحة والأصل بل إن اللوحة قد أصلت الأصل بثت فيه إشراقا يهتف قائلا : ها أنذا صالح هيصة بذات نفسه . تقدمت حياة بهذه اللوحة إلى صديقها محرر الصفحة الأخيرة فى جريدة الأهرام لينشرها فى بابه الناجح لعلها تساعد من يراها على معرفة صاحبها فيتصل بالرقم الفلانى لفلانة الفلانية ، فما كان من محرر الأهرام إلا أن نشر اللوحة بالفعل داخل برواز فى مكان بارز ولكنه كتب تحتها : بورترية بريشة حياة البرى .

كبرت المسألة فى دماغ زكى حامد بصورة أصبحت تهدد استقرارنا ، بل أصبحت بالنسبة له قضية شخصية يترتب عليها أن يكون أو لا يكون كصديقه الحميم هاملت شيكسبير . أبدا لم يستطع نسيان الأمر برمته فلا ينى يغلى ؛ حتى حياة المتعقلة بحكمتها لم تقو على تهدئته بل لعلها كانت تغذى انفعاله باستمرار. فوجئت به يقتحم علىَّ حجرتى فى فندق أمبريال بشارع رمسيس ؛ كان متوترا مهموما ، يدخن بشراهة . ظننت أنه - أصله ممكن يعملها - قد اختلف مع حياة البرى فطلعت زرابينه فضربها بآلة حادة شجت رأسها أوربما شالها ورماها من الشباك أو على الأقل رمى عليها يمين الطلاق ومشى ..

– «خير يا زكى ؟ مالك ؟ !»

– «قوم البس وتعال - معايا بسرعة ! عندنا معاد !»

– «مع مين ؟ فين ؟»

– «مع مدير الأمن !»

– «مدير الأمن ؟ ليه يا زكى ؟!»

– «أنا أصلى جددت القضية ! قدمت بلاغ للنائب العام اتهمت فيه مديرية أمن القاهرة بإخفاء شخصية صالح هيصة ! وانا وانت شاهد عيان شفنا الضباط وهما بيضربوه وبيحطوه فى عربية الشرطة ! وانا احتكيت بالضابط وعندى استعداد للإدلاء بأوصافة كاملة ! والنائب العام مطالب بالكشف عن حقيقة لغز صالح هيصة خصوصا إن البلد بحالها أصبحت على علم بيه وعايزين يعرفوا مصير مواطن !»

– «يعنى احنا دلوقت رايحين للنيابة واللا المديرية ؟!»

– «المديرية ! المعاد مع مدير الأمن ! هو اللى طلبنى ! استدعانى ! أنا كاتب نمر تليفونى وعنوانى !»

– «يا زكى : اخزى الشيطان ! احنا مش قدهم !»

– لا غلط ! إحنا قدهم وقدود ! لازم يفهموا كده !»

– « يا زكى ! إنت ناسى انهم أثبتوا إن مفيش فى دفاتر المواليد كلها واحد بالاسم ده ؟!»

– «صدقتهم يا عبيط ؟!»

– «ممكن يكون ساقط القيد فعلا ! فيه ناس كتير ما بتقيدش عيالها الصبيان عشان ما ياخدهمش الجيش !»

– «غبى زيهم !!»

–«ليه بس ؟!»

– «أنا ربنا ألهمنى وجبت لهم وثيقة دامغة حتخليهم يكلموا نفسهم !!»

– «معقولة ؟!»

أخرج من جيبه ورقة مطوية من أوراق تصوير المستندات فى الحال ، فردها ولوح بها . تناولتها ، ذهلت من ذكائه . إنها شهادة من مدرسة معروف الابتدائية تثبت أن صالح عبد البر مهران كان تلميذا بها وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة كذا ضمن دفعة مكونة من ومن ومن ، وتحت أحد الأسماء خط زكى خطا ثقيلا بالفلوماستر ؛ سألته عن صاحب هذا الاسم فقال وبريق شيطانى يمرح فى عينيه إن هذه هى المفاجأة الصاعقة ، فصاحب هذا الاسم هو النائب العام نفسه الذى حصل على الشهادة الابتدائية من نفس المدرسة فى نفس دفعة صالح. ثم قال إنه لفت نظر النائب العام فى بلاغه إلى هذه الملاحظة ولابد أنه قد تذكر زميل طفولته .

مدير الأمن كان حادا وحازما ولطيفا معا ؛ طلب لنا قهوة مخصوصة من بن فى درج مكتبه . جعل يطيل من فترة الترحيب بنا يتفرس فى ملامحنا يتذوق كل كلمة نقولها يدرس شخصية كل منا فى هدوء وترو ؛أخيرا اعتدل فأخذ الهيئة الرسمية الصرفة :

– «يا أخ زكى إنت بتقول إنك احتكيت بالضابط اللى قبض على الأخ صالح هيصة !»

– «وآدى شاهد عيان !»

وأشار نحوى بإصبعه . قال مدير الأمن :

– «إذن ! لو عرض عليك الضابط تقدر تعرفه ؟!»

– «طبعا يا افندم ! لأنى كرهته ساعتها من كترَ إهانته لى من غير سبب ! وعشان حقدت عليه ملامحه اتثبتت فى دماغى ! أعرفه من وسط مدينة !»

– «حاعرض عليك السادة الضباط وأنت تشاور عليه من وسطهم !»

– «هو ده الكلام الجميل !»

– «اتفضل ! هات الشاهد بتاعك وتعالَ !»

وقف رافعا سماعة الهاتف قائلا إنه نازل على الفور ، ثم وضع السماعة وأشار لنا بالتحرك ..

فى حـوش المديرية اصطف مـا لا يقل عن مـائتى ضـابط شـرطة بالملابس الرسمية . بدأ من أول الصف ، زكى وأنا صرنا نتفحص نتفرس نتمعن فى كل وجه من الأمام ومن الجنبين ومن بعيد ومن قريب . سيادة مدير الأمن طول باله علينا إلى أقصى درجات البرود المتقن الموظف كأنه يريد أن يقول لنا : أما اشوف إيه أخرتها معاكم ، لكنه يكاد يبتسم فى رضاء كلما اقتربنا من آخر ضابط عنده هز زكى رأسه بحركة نفى رصينة وأضاف :

- « متأسف يا افندم ! الضابط اللى انا احتكيت بيه مش فى دول ! بس انا متأكد انه ضابط عندكم ! أنا ممثل ودارس وابن بلد يعنى أعرف شخصية الضابط حتى ولو كان عريان ومغير شكله كمان !!»

يكاد مدير الأمن يهتف به : لقد صدقت يا بنى ؛ إنما ابتسم ، اختلجت ملامحه وهز رأسه بحركة تنم عن احترامه لصدقنا ؛ ثم أوضح قائلا إن هذه فعلا كانت محض مناورة يختبر بها حقيقة نوايانا ؛ فعلا إن جميع هؤلاء الضباط لم يشتركوا فى العمل ليلة زيارة الرئيس السادات للقدس ؛ ولقد تعمد سيادته أن يشعرنا بالملل والضغط النفسى لعلنا نتعجل فنختار أى واحد والسلام ، لكى تثبت الدفاتر الرحيمة أنه لم يكن فى الخدمة ليلتها وبالتالى تفتضح كذبتنا أمام سيادة النائب العام ؛ أما وقد تأكد له أننا صادقون فى بلاغنا وواثقون من كلامنا فإنه يقودنا الآن إلى العرض الحقيقى للضباط الذين كانوا فى الخدمة ليلتها من شرطة قصر النيل إلى شرطة الخانكة . دخل بنا غرفة اجتماعات كبيرة جدا ، تحتوى على أكثر من عشرة صالونات ، امتلأت مقاعدها بضباط فى ملابس مدنية توقعنا أنهم من رجال المباحث . وقفوا جميعا بمجرد ظهورنا أمامهم . صاح مدير الأمن فى زكى بلهجة رسمية :

- « شوف مين فى دول اللى أنت احتكيت بيه !؟»

ثم مشى بجوارنا يشاركنا التفرس ؛ إلا أن زكى كان قد انشدَّ بصره من لحظة دخولنا إلى ركن قصى يجلس فيه اثنان بدا عليهما الاستهانة بزملائهم على

وقوفهم . كان من الواضح أنهما يتعاملان مع المشهد بخفة وبروح هزلية لدرجة أنهما بقيا جالسين فاختفيا وراء الواقفين . أزاح زكى شخصين عن بعضهما فوسعا له فاخترق الطريق إلى الركن القصى ثم تفرس فى الجالسين ثم وضع يده على كتف أحدهما هاتفا :

– «هو ده يا أفندم !»

تمعنته أنا الآخر ، وجدتنى أصيح :

– «فعلا هو ده ! مفيش غيره !»

لوى الضابط عنقه ناظرا لزكى حامد فى كبرياء وعجرفة ، فإذا بزكى حامد يسلط نظراته القوية على عينيه . لم يقو الضابط على مقاومة اللهب الذى يفح من عينى زكى حامد ؛ نكس رأسه فى الأرض برهة ثم رفع وجهه صائحا فى هستيريا:

– « إنت كداب ! أنا ما اعرفكش ! ما شفتكش !»

زكى حامد ليس يستهان به ؛ ركز نظرات التقريع والتأنيب والسخرية مرددا : إه ! اتق الله . ثم إذا به يتقمص شخصية الضابط ليلتذاك ، فيتكىء بذراعه على حافة الكرسى موجها الحديث لى باعتبارى هو ليلتها ؛ وقد وفقه الله توفيقا مروعا فى تقليد لهجة الضابط والتقاط لوازمه الشخصية الثابتة فى الحركة والإيماءة واللفتة لدرجة أن جميع الضباط انفجروا ضاحكين ، بل نسى بعضهم وصبقق بإعجاب ناظرين لزميلهم بإشفاق . أما مدير الأمن فقد كتم ضحكته مستردا وقاره وجديته ثم قال :

– «خلاص يا أستاذ زكى ! مهمتك انتهت !إحنا حنقدم حضرة الضابط للتحقيق !»

ثم التفت إلى الضابط :

– «اطلع لى فوق !»

ورافقنا إلى باب المصعد حيث صافحنا بحرارة مؤكدا لنا أنه سيجرى محضرا

بما تم بمعرفته وأن القانون سيأخذ مجراه لا محالة وأن علينا أن نطمئن تماما إذ إن هذا الضابط سيعرض فى مساء اليوم على النائب العام .

بقينا ننتظر يوما ما وراء يوم ، وسربت حياة إلى الصحف أخباراً بما حدث من مستجدات فى قضية المعتوه الغائب كما أسمتها الصحف ؛ فإذا بالصحف كلها فى اليوم التالى تنشر قراراً من النائب العام بإيقاف النشر عن هذه القضية طالما أنها رهن التحقيق . على أن حدثاً آخر من نفس الفصيلة طرأ علينا فعمق المتاهة فى مشاعرنا ، أفقدنا القدرة على التمييز بين الوهم والحقيقة فبدا لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن المتاهة هى الحقيقة الوحيدة وما عداها حتى وجودنا نفسه محض أوهام من الأوهام . ذلك أن بيجين رئيس وزراء إسرائيل ، الإرهابى المحترف ذا التاريخ الحافل بالجرائم والمذابح ، الذى استمد فخره وأمجاده من إبلائه البلاء الحسن فى قتل العرب وإذلال الفلسطينيين وإهانة المصريين والادعاء علنا تحت سمع وبصر العالم وأمام الرئيس المصرى أن أجداده اليهود هم بناة الأهرامات ، فى طريقه لزيارة القاهرة - ردا على زيارة السادات للقدس - بصحبة وفد رسمى على أعلى مستوى ؛ فيما عرف بتبادل النوايا الحسنة وإعادة بناء الثقة بين الدولتين المتحاربتين مصر وإسرائيل وكأن الثقة كانت موجودة فى يوم من الأيام قبل الحرب.

صبيحة يوم الزيارة كنت فى ماسبيرو ؛ كالعادة مررت على صديقى الإذاعى على فايق زغلول لأشرب القهوة معه . لحظتها كان يوزع ورق الفقرات التمثيلية على الممثلين الذين سيشتركون معه فى هذه الحلقة من برنامجه [مسرح المنوعات]. ما كدت أجلس حتى انفتح الباب ودخل زكى حامد فإذا به من بين المشاركين فى هذه الحلقة التى سيتم تسجيلها بعد غد فى مدينة بورسعيد الباسلة . ما كادت القعدة تروق لنا ثلاثتنا حتى طرق الباب ثم انفتح ، ليطل منه وجه معروف لنا جيدا وإن ظهر كالمتنكر فى ثياب نظيفة محترمة : سنزة من الصوف الثمين فى غاية الأناقة فوق قميص حريرى برباط عنق من ماركة عالمية ذائعة الصيت وبنطلون

أسود وحذاء ذى مهابة تخجل منها الأرض بسجاجيدها . هتف مهللا وهو يقبل نحونا :

- «مش ممكن ! الحبايب كلهم هنا !»

وقفنا هاتفين مذهولين :

- «وجيه فرحان ؟! يخرب بيتك !»

المفاجأة جمدتنا فى وقفتنا فلم ننتبه إلى أننا قد استجبنا لعناقه ؛ لكننى شعرت أنى قد انخطفت لبرهة فى شبه غيبوبة خيل لى خلالها أن يدا كانت تربت على كتفى وأن صوتا يقول لى : « مشتاق لك والله !» ثم جلسنا ؛ زكى وأنا رحنا نرقبه فى تركيز على وجهه ؛ لعلنا كنا نبحث فيه عن شىء قديم كنا نعرفه منذ أكثر من عشر سنوات مضت . كان هو هو ، نفس الوجه نفس الصوت نفس القوام وإن امتلأ وظهرت عليه الراحة والتغذية ، نفس العيون الضيقة ، الباجسة ، الزئبقية لا تمكنك من التقاط أى شعور منها على الإطلاق ؛ عيون مراوغة مثل اللقطات الخاطفة فى أفلام الإثارة لا تعطيك فرصة الإلمام بأى شىء ؛ خدان نحاسيان بارزان تنزلق فوقهما نظراتنا بعد إذ عجزت عن الإلمام بشىء من عينيه ؛ حتى ابتسامته التى تبرز من بينها أسنانه الكبيرة ، والتى كانت فيما مضى تنضح بشقاء وعناء غامضين ، هى الآن صارت جثة ميتة ممددة على منضدة ، وجهه فوق ملاءة قرمزية . هذا الشاب المصرى الذى كان منذ حوالى عشر سنوات واحدا من شلتنا يقاسمنا هموم الوطن يكتب أشعارا بالعامية المصرية يتغنى فيها بأصالة الشعب بالثورة بالغد المشرق بالأسى لضياع الضمير عند بعض المسئولين، ينشر ديوانا يقدمه له صلاح جاهين قائد حركة شعر العامية ، يحشش معنا فى غرزة حكيم .. هذا الشاب هو الآن ضيف دبلوماسى على مصر بجوار سفر إسرائيلى ضمن وفد رسمى على أعلى مستوى ؟! هل هذا وهم أم حقيقة ؟! هل جاء مباركا أم شامتا أم متشفياً ؟! أم تراه قد اشتاق إلى أهله فى قرية البيروم شرقية ؟! ..

توارد الخواطر بينى وبين زكى حامد كان عجيبا أو لعله كان طبيعيا إذ سأله فى الحال :

– «أبوك وأمك لسه عايشين يا وجيه ؟!»

قال مبتسما بصوته الجهورى المقتحم :

– «أتعشم انى ألحق اشوفهم بكره ولا بعده ! حسب الظروف على كل حال ! أنا أصلى مرتبط بوفد الرئيس بيجين !»

صوته لا يزال مطبوعا بآثار عالقة به من مرارة نتيجة لاستمرارئه الشكوى المستمرة تحت شعور جارف بالاضطهاد . كل الألوان تتقلب على وجه زكى حامد، خيل لى لحظتها أنه يقاوم رغبته فى الانقضاض عليه وخنقه . صدق حدسى إذ لاحظت أن على فايق زغلول قد لاحظ هو الآخر حالة زكى حامد فقدم سيجارة ، خصيصا ليغمزه قائلا :

– «ولع ولع ولا يهمك !»

لم ينتبه وجيه فرحان لهذه الملاحظة لأنه – بروح معنوية عالية – كان مندمجا فى حكى موقف طريف حدث له فى المطار ، حيث – يقول – تقدمت منه مباحث أمن الدولة للقبض عليه ؛ فقام لغط هائل فى الوفد الإسرائيلى كاد ينذر بأزمة دبلوماسية فى لحظة غبية كهذه لولا أن وجيه فرحان حسمها بالإشارة إلى جواز سفره الإسرائيلى الدبلوماسى ، أى أن الشرطة المصرية لاسيادة لها عليه ولا يجوز القبض على مواطن إسرائيلى فى زيارة دبلوماسية ضمن وفد يرأسه رئيس الوزراء ؛ ورغم أن الشرطة تراجعت مكظومة مقهورة فأعادت إليه جوازه مع اعتذار ذليل فإن مدير مكتب بيجين نهر الشرطة وأعطاها درسا فى حسن السلوك. كان يحكى هذا الموقف باستمتاع عظيم . غبت عن الوعى برهة ثم أفقت فإذا هو يبدى رغبته أو يعلن شوقه لزيارة كل الأماكن العزيزة التى شهدت فقره واضطهاده خاصة مكتب إيهاب الأزهرى ووحدة أذونات الصرف الفورى ؛ ثم نظر نحوى قائلا إنه فكر فى المرور على مكتبى فى المجلة ليأخذنى إلى غرزة حكيم

لنشرب حجرين رغم أنه لم يعد يشرب إلا الويسكى والمكيفات الراقية خاصة أن إسرائيل تترفع على الحشيش . فعلق زكى حامد قائلا إن إسرائيل هى التى تصدر الحشيش وتشترى بثمنه طائرات تضرب بها العرب .

حتى لحظتذاك ، كان زكى حامد لا يزال يميل للأخذ برأى طلعت الإمبابى من أن وجيه فرحان يهودى إسرائيلى زرعه الموساد فى مصر فلما أدى مهمته أو تأكد من عدم صلاحيته للاستمرار قام بسحبه إلى إسرائيل قبل وقوعه فى قبضة الأمن المصرى . أما الآن فقد مال على أذنى وهمس بأنه اقتنع بالعكس تماما ، أى أن المخابرات المصرية قامت بزرع وجيه فرحان فى إسرائيل ليكون عيناً لها هناك ، فانكشف أمره فاحتفظوا به كوثيقة يثبتوا بها تفوقهم علينا وفى نفس الوقت يكون مصدرا للمعلومات عن الحياة الداخلية فى الواقع المصرى ؛ هذا هو المعنى الوحيد لإتيانهم به إلى مصر ضمن الوفد الرسمى الإسرائيلى كرسالة خبيثة لإذلال المخابرات المصرية وكسر أنفها ؛ وهذا أيضا هو التفسير الوحيد لحالة وجيه فرحان وروحه المعنوية المرتفعة . وحينئذ كثر توافد الممثلين على مكتب فايق زغلول وصاروا يبحثون عن مقاعد ، فوقف وجيه فرحان مسلما يقول لى إنه ربما تتاح له فرصة لرؤيتى مرة أخرى . فوقفت ، ووقف زكى حامد ، وضع ذراعه على كتف وجيه ودفعه برفق نحو الباب فيما قصد أن يلاطفه :

- «بتقول انك نفسك تشرب حجرين ! إذن فخير البر عاجله ! يلا بينا قوام قوام ! فيه ناس كثير حبايبك نفسهم يشوفوك !!»

قال وجيه فرحان إنه يرحب تماما ؛ كل ما فى الأمر أنه لابد أن يمر على عمه فى مصر عتيقة ليسلم عليه ويترك له بعض الهدايا التى أتى بها لعياله من إسرائيل ، فإن كان لدينا استعداد لمرافقته إلى بيت عمه ثم ننزل معا فى العصارى الجميلة فإن ذلك سيسره خاصة أنه يريد اليوم صحابا مثلنا يفتحون شهيته للغداء فى بيت عمه . كنت أظن أن زكى حامد لفرط اشمئزازه سيتقاعس عن هذا العرض بحجة أو بأخرى فإذا هو يتلقف الاقتراح بوجه مشرق ويشير له

فى بساطة أن : هيابنا .. فتأكدت أن زكى قد نوى أن يغربله بالمنخل الحرير ليعرف أصله وفصله . إلا أن ما أدهشنى حقا هو أن وجيه فرحان ليس لديه أية تحفظات على أى شىء ، بل ليس يشعر أنه أتى أمراً يستحق عليه أى لوم ، ثم إنه لا يبدى الرغبة فى الهروب منا خشية أن نذكره بما فعل بل هو على العكس يستبقينا بكثير من الحميمية !! ومن يدرى ؟ ربما كان فى أعماقه يعتبر نفسه بطلا من نوع ما !! ولربما هو يريد أن يحكى لنا طرفا من أخبار بطولته !! المرجح أننا الآن بالنسبة له مجرد مادة ومصدر لأخبار مطلوبة ! بل المؤكد بداهة أنه مكلف بالاختلاط بالمثقفين ما أمكن لمعرفة مدى صدق المصريين فى الإقدام على هذه الخطوة الجنونية غير المتوقعة وهل الصلح مجرد رغبة ساداتية للخروج به من مأزق حرج أم أن لإعلان الرغبة فى الصلح عمق شعبى ؟!

بيت عمه أشد عتاقة من جى مصر عتيقة ؛ فى حارة ضيقة متاخمة لمحطة المترو ، خلف قسم شرطة مصر القديمة . صعدنا إلى الطابق الثالث على سلم رخامى حلزونى ضيق ذى درابزين لا يزال متينا ؛ أى سحر وحميمية تنطوى عليها مثل هذه البيوت ذات الشقق المتقابلة بأبواب من درفتين بشراعتين من شبكة حديدية وباب زجاجى أسدلت عليه من الداخل ستارة بيضاء محندقة ومكرنشة . فوق بكية الباب لمبة كهربائية سهارى ، وعلى صدغه جرس كهربائى ، وتحت الشراعة لافتة نحاسية عتيقة صدئة بيضاوية محفور عليها : جمال فرحان .. رئيس حركة بهيئة السكك الحديدية .

ممر صغير ضيق يفتح عليه الباب حيث يوجد على يسار الداخل مباشرة بابان متجاوران مفتوحان على مطبخ وحمام يسمح بالكاد للجسم أن يستدير حول نفسه، تحت دش الماء الصدىء ذى خروم لاشك مسدودة . توجد ترابيزة ماركة إيديال عليها مفرش كالح من المشمع الملسوع بالنار فى أكثر من بقعة ، يحيط بها أربعة كراسى من البلاستيك ؛ عبرناها إلى حجرة فى المواجهة تطل على الحارة بتراسينة محندقة لها باب بدرفتين مفتوحتين على السياج الحديدى للتراسينة

الشبيهة بجسد البطة . فى الحجرة سرير ودولاب وكنبة بلدى منجدة . جلسنا على الكنبة في حين فضل الحاج جمال أن يجلس على شلتة فوق الأرض . الشبه بينه وابن أخيه واضح للعيان ، نفس السحنة نفس الملامح نفس الصوت وشكل الأسنان البارزة ؛ إلا أن الطيبة المصرية واضحة عليه وضوح نهر النيل فى أحشاء الوادى . حدثنا عن طفولة وجيه الشقية بسبب من هوايته لكتابة الأزجال والأغانى وقراءة الكتب التى عطلته وألهته عن كل شغلة حاولوا إلحاقه بها . ثم قال إن ابن أخيه معذور فيما فعل لأن المخابرات المصرية طاردته عاكسته فى رزقه ضيقت عليه الخناق فى كل مكان ؛ فى الأول ظنته شيوعيا فلما اتضح لها أنه ولد غلبان يريد أكل العيش فى أمان استضعفته رسمت لتشغيله - بالمجان طبعا - مخبراً على أهل الإذاعة والتليفزيون وزملائه المكاتبين فى الجرائد ؛ إلا أنه غشيم لا يعرف كيف يلعب هذه اللعبة ؛ فلم يجد المسكين مفرا من الهرب إلى مكان لا تجرؤ الشرطة المصرية على الذهاب إليه : إسرائيل .

فيما كنا نتناول غذاء الحاج جمال فرحان ، المكون من شرائح بطة مع ملوخية وأرز ودقية بامية فرن فى أبرمة ؛ طلب زكى حامد من وجيه فرحان أن يحكى لنا بالتفصيل الممل كيفية خروجه من مصر ودخوله إلى إسرائيل . فانفتح فى تدفق تلقائى لا تنقصه الحرارة ؛ حكى لنا أنه تسلل إلى ليبيا للبحث عن عمل هناك ، لكن السلطات الليبية أمرته بمغادرة البلاد بعد ثمانية وأربعين ساعة من وصوله . وحينما استدعوه إلى مديرية الأمن لإبلاغه بأمر الرحيل أوعزوا إليه أن السلطات المصرية وضعت اسمه فى قائمة الممنوعين من السفر وأنها سوف تصطاده من ليبيا إن عاجلا أو آجلا فخير له إذن أن يغادر البلاد حتى لا يتسبب لهم فى حرج مع السلطات المصرية الشقيقة . كان قد سارع فور وصوله بتسجيل بعض أحاديث وأشعار للإذاعة الليبية عن طريق مذيع مصرى كبير يعرفه فيها ؛ فأسرع بصرف مكافآتها ، واقترض مبلغا من صديقه المصرى ، وسحب زوجته وركب أول سفينة متجهة إلى إيطاليا . وما إن أبحرت السفينة حتى اكتشف على متنها بعض

ركاب مصريين ؛ ولاحظ أنهم يتحككوا به وبزوجه ، يفرضون عليهما خدماتهم ، استدرجوهما حتى تخبطا فى الكلام فأعزوا إليهما أن بينهم من يستطيع إلحاقهما بعمل شريف فى إيطاليا : وعندما رست السفينة على شاطىء نابلى أراد الهرب من هؤلاء الملاحقية لكنه وجد نفسه فى موقف ضعيف حين عجز عن التفاهم مع موظفى الميناء فلحق به بعضهم وشرحوا موقفه بأنه زائر عابر بغرض السياحة لساعات معدودة ؛ ثم طلبوا منه أن ينتظرهم عند باب الخروج من الميناء ؛ لكنه ما كاد يخرج من بوابة الميناء حتى رمى بنفسه وبزوجه فى أول سيارة ليموزين زحفت نحوه ؛ ولم يكن قد حدد اتجاهه حينما نظر خلفه فرأى ملاحقيه يبحثون عنه متلفتين فى كل اتجاه ، وأخيرا ركبوا سيارات كانت فى انتظارهم ومن الواضح أنها تتبع السفارة المصرية ؛ عندئذ لحقوه فى السيارة الليموزين فإذا به يصرخ فى السائق بانجليزية ركيكة : القنصلية الإسرائيلية من فضلك وظلت سيارة المصريين تلاحقه إلى أن هبط بسرعة وانزلق إلى باب القنصلية تاركا لسائق الليموزين كل ما كان معه من ليرات استقضاها على ظهر السفينة .

طلب مقابلة القنصل لأمر مهم : فأدخل إليه فى الحال شبه مقبوض عليه هو وزوجه بعد تفتيشهما بدقة . كان مباشرا وصريحا إلى حد النفاذ ؛ قال للقنصل إنه شاعر مصرى مناضل ضاقت به الحياة فى مصر فى ظل كيت وكيت ، وأنه قد اختار بمحض إرادته واقتناعه أن يكون مواطنا إسرائيليا يتمتع بنظامها الديمقراطى المفتوح ويجد الحرية للتعبير عن نفسه والعيش بكرامة افتقدها فى بلاده فى ظل الدكتاتورية المصرية القائمة ، وأنه مستعد للوضع تحت كافة الاختبارات للتأكد من صدق نواياه . حقيقة الأمر أنه كان من المستحيل عليه - وعلى أى مخلوق سواه - الإفلات من قبضة السلطات الإسرائيلية من لحظة اقتحامه لمبنى قنصليتها : جرت الاتصالات السريعة بين القنصلية والسفارة وبين السفارة ووزارة الخارجية ثم وزارة الداخلية المهم أن العصفور قد وقع فى القفص وانتهى الأمر ، وبعد مايقرب من شهر عاشه فى جناح سكنى ملحق بالقنصلية

تحت جميع ألوان وأنواع الاختبارات والتحريات والمحاولات والدردشات انقطعت صلته بالحياة تماما لمدة لا يعرف مداها لكنه حين أفاق منها وجد نفسه وزوجه فى مطار إسرائيل الدولى كلاجىء سياسى مصرى . ساعدوه فى إيجاد مسكن يؤويه، ألحقوه معداً للبرامج بإذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية ، راقبوه طويلا رغم يقينهم أن الجاسوس لا يمكن أن يدخل على هذا النحو المكشوف ؛ كثر زواره من علماء الاجتماع ونقاد الأدب والمؤرخين والمحللين والمعلقين للاستعانة به فى شرح تعبيرات أو عادات أو معتقدات شعبية ؛ وكلهم أجمعوا على طهره الإنسانى وصدق موقفه فى اختيار الحرية والديمقراطية ، فتوسطوا له فمنح الجنسية الإسرائيلية وفى نفس الوقت – شوف الحرية والتقدم – لم يرغموه على التخلى عن جنسيته المصرية!!

وكان الطعام قد توقف فى حلوقنا منذ وقت طويل دون أن نقوى على بلعه أو بصقه درءاً للقرف ؛ ربما من أول لقمة : ثم ما لبث حتى صار فى نظرنا جثثا ميتة من لحم أطفال لعلهم من تلاميذ مدرسة بحر البقر ؛ فشعرنا بتقزز وبمغص مؤلم . صارت قدمى وقدم زكى حامد تتغامزان تحت الترابيزة ؛ كلانا يريد أن يدخل دورة المياه ليتقيأ لكننى كنت تعبا جدا : أزحت الفوطة قائلا : الحمد لله ؛ ووقفت طالبا دورة المياه ؛ فاقتادنى الحاج جمال إليها وهو يحتج على انصرافنا عن الطعام . أغلقت باب الحمام وجعلت أجاهد حتى لا أصدر صوتا مقززا ، فلم ينزل من جوفى سوى مياه سائبة مصحوبة بمرارة وحرقان وانقلاب معوى ؛ أخيرا غسلت يدى ووجهى وخرجت لأجد زكى واقفا بالباب . وإلى أن عاد بعد وقت طويل كان وجيه فرحان لا يزال يأكل بشهية وشراهة وقد عجبت إذ لم أجد فى حياتى كلها شخصا كهذا قادرا على الأكل بملء الشدقين والكلام بطلاقة ووضوح فى آن واحد كأن أسنانه تعمل بمعزل عن لسانه .

بنظرة متبادلة بينى وبين زكى خبط على جبهته قائلا :

– «يا ..ه .. نسيت إن ورايا تسجيل دلوقت !»

ثم هب واقفا . فتبعته زاعما أنى مرتبط بنفس التسجيل وأننا يمكن أن نلتقى غدا فى جروبى سليمان فى الخامسة مساء على مقربة من غرزة حكيم التى يعرفها جيدا . ولما كان لا يزال يأكل فإنى حمدت الله أن جنبنى المصافحة باليد .. باى .. ثم دفعت زكى أمامى ؛ فتحنا باب الشقة وخرجنا . ركبنا سيارة زكى التى مضت بنا من تلقاء نفسها إلى غرزة حكيم ، انخرطنا فى التحشيش بعمق وتركيز وصمت مطبق لمدة لا تقل عن ثلاث ساعات ، شعرت خلالها أن عقلى قد انعجن فى قلبى فى دموع داخلية سخنة كانت تتدفق وراء قناعين متصلبين أثار منظرهما رعب الجميع من حولنا . حتى عند انصرافنا من الغرزة لوح كل منا للآخر بيده فيما يتباعد كل منا فى اتجاه نحو سردابين متباعدين يوصلان كلاهما إلى طريقين مختلفين تحت سماء نفس المدينة الصاخبة المضببة التى توشك من فرط الزحام أن تؤوب إلى مقبرة .

البعث

بعد يومين اثنين من مقابلة وجيه فرحان الكاتمة للصوت دخلت غرزة حكيم في حصة العصر فوجدت زكى حامد قاعدا هناك وحده. قال إنه عائد لتوه من مدينة بورسعيد بعد انتهائه من تسجيل برنامج على فايق زغلول مسرح المنوعات، وأنه اشترى من هناك تعميرة جيدة رأى أن يذوقها قبل عودته إلى البيت، ثم عرضها علي، فلما رأنى منبهراً بها إذ هي كلكيعة فى حجم البيضة تحفظ قائلا:

– «خلى بالك إنها شركة بينى وبين حياة!»

– «يعنى حندوقها واللا بلاش؟!»

– «حتدوقها طبعاً!»

واقتطع سنتين فى حجم النبقة، كورها ووضعها فى كفى:

– «دى علشانك تشوف بيها نفسك مع نفسك! وأنا حارس طول القعدة!»

– «عداك العيب!»

قال أيضا إن إبراهيم القماح شرب معه عشرة حجارة وانصرف. ثم راح يحدثنى عن مدينة بورسعيد ومدى ما شاهده فيها من بؤس مؤلم، وظهور طبقة جديدة من تجار العملة تمنكوا من الاستيلاء على الشاطئ وعلى بحيرة المنزلة. ورحت أحدثه عن رواية انتهيت لتوى من قراءتها لكاتب رومانى يهودى، عنوانها (الساعة الخامسة والعشرون) تصور معكسرات التعذيب النازية لليهود وكيف تم تشريدهم بقسوة لايقبلها العقل مطلقا. وبعد أن لخصتها له أبديت دهشتى من قدرة الخيال اليهودى على حبك هذه الأسطورة بكل هذا السحر الفنى الذى لايمكن أن ينجو القارئ العادى من تأثيره إذ لابد أن يأسف لليهود ويتعاطف معهم ويشعر بالذنب تجاههم، فأن تترجم هذه الرواية إلى العربية وتنشرها دار نشر بيروتية بهذه الفخامة فمعنى ذلك أن نفوذ الدعاية الصهيونية ضارب فى

أحشائنا منذ أوائل القرن تقريبا. وقال زكي حامد إنني لو كنت جدعا بحق فإنني يجب أن أرمى القفاز فى وجه المؤلف اليهودى الرومانى، أقلب عليه الترابيزة، كيف يا زكى؟ قال إننى يجب أن أقتبسها وأعكسها فى مسلسل تليفزيونى بحيث أجعل البطل اليهودى فلسطينيا وأجعله يتعرض لنفس المحنة وأحداث التعذيب والتشريد ولكن من القوى النازية الجديدة: اليهود الصهاينة الذين هم الأصل والجذر فى الأفكار النازية فالواقع أن أسطورة الجنس الجرمانى الأرقى لم تنشأ فى حقيقة أمرها إلا لمواجهة أسطورة شعب الله المختار التي استعلى بها اليهود على جميع الشعوب. نشط خيالى، وفى لمح البصر تخيلت العمل الفنى كله بجميع أحداثه ومشوقاته ومعطياته لكننى انتبهت فجأة إلى أن الجو قد اصطبغ فى ناظرى بغلالة شفافة من الخيال السحرى البديع كأن كل المرئيات أمامى من بشر وأشياء داخل فترينة زجاجية ملونة تلعلط وتتألق؛ فأيقنت أن التعميرة جيدة بالفعل وأننى يجب أن أحسن الانتفاع بها فى الغوص داخل أعماقى البعيدة للتفتيش فيها عما قد يساعدنى على فهم نفسى جيداً مثلما هو فألى مع كل تعميرة جديدة طازجة.

الحياة تبدو فى نظرى الآن محض خيال يغرى بالمشاهدة: لكن الصرخة التى دوت فى الحارة زلزلت جدران الغرزة فاصطدمت رءوسنا بأرض صخرية فيما هى لاتزال واقفة على أكتافنا. هاهى ذى تتكرر متطاولة؛ ها نحن نفيق وتتطاير الأنفاس من رءوسنا كالعصافير المذعورة. إنها صرخة فيها من الفرح قدر ما فيها من الفجيعة؛ سرعان ما ترجمت إلى كلام يقتحم علينا الغرزة فى هيئة امرأة كرنبيل البطاطا. تأكدنا أنها أم يحيى. من هول المفاجأة بهتنا جميعا تبلدنا لم نعرف إن كانت أم يحيى تزغرد فرحا وطربا أم تصرخ مولولة باكية. مضت برهة طويلة قبل أن نستوعب ما كانت تقول:

– «صالح هيصه رجع يا ولاد! صالح هيصه جه يا حكيم! إنتو يا أفنديات مش كان صاحبكم ؟ أهه رجع اهه!».

اشرأبت الأعناق ترسل النظرات في اتجاه الباب في انتظار أن يدخل صالح هيصة، ووقف حكيم ينفض جلبابه كأن صالح سيدخل على الحجارة مباشرة: ثم جعل يتساءل:

- «هو فين يا أم يحيى؟ ماجاش ليه؟!»

- «قاعد يعمل هيصه في الخرابة اللي بيبات فيها!»

صاح زكي في ابتهاج عظيم:

- «حقه ياعم! حقه!»

واندفعنا جميعا خارجين. صرنا نهرول: نخترق حيشانا من المفترض أنها بيوت مسكونة: نخوض في هديم تلو هديم، وصلنا إلى ذلك البيت الذي لم يبق منه سوى جدران حجرة داخلية كاملة يتخذها صالح مأوى له. صرنا نتعثر في حجارة وقوالب طوب وغائط أطفال حتى اقتحمنا الأطلال. رأينا صالح هيصة مقعيا على قرافيصه، مسنداً ظهره للحائط، مريحا رأسه على كتفه، يده قابضة على زجاجة كوكاكولا مقطوشة الرأس ملآنة بمخلوط السبرتو الأحمر مع الكولا، وبجواره زجاجة أخرى فارغة، وورقة من كتاب مدرسي عليها بقايا قطع من الطرشي تبدو متعفنة. هتف حكيم بصوت جهوري فرحان:

- «واد يا صالح!»

فبدا لنا كأنه يبتسم، البسمة تملأ وجهه كالعادة غير أنه مغمض العينين ، تقدم منه زكي، عدل رأسه ربت على صدغيه، أسنده على الحائط، فتهاوى الرأس.

اقترب حكيم شاحب الوجه؛ أمسك برسغه في حين وضع زكي يده على قلبه. أقعيت أنا أمامه مرتعبا لم يكن فيه ثمة من حياة . أسقط حكيم اليد فتهاوت. رفع زكي يده وأقعى بجواري ناظرا إلي في شعور بالفجيعة:

- «على فكره ده لسه ميت قريب! بالكتير خالص نص ساعة وإلا كان زمانه اتخشب!»..!

انفجر حكيم فى النحيب وهو يحتضنه. إنهمرت دموع زكى بغزارة وهو يعتدل واقفا:

- «أجل العياط دلوقت ياحكيم شوف حنعمل إيه؟!»

قال حكيم:

- «شيل معايه نروحه عندى لحد ما نتصرف!».

شخط فيه زكى:

- «أوع حد ييجى ناحيته لحد البوليس ما ييجى يعمل محضر والنيابة تعاين! ده كان غايب من مدة طويلة والحكومة أنكرت وجوده من الأساس! لازم ياخدوا خبر باللى حصل! أمال حتطلع شهادة وفاة ازاى وتصريح دفن؟ يلا أنت وأم يحيى وصابر على قسم قصر النيل تبلغوا باللى شفتوه! مايهمكش! كل مصاريفه على حسابى أنا وحياة لحد ما نروحه معزز مكرم أربعة وعشرين قيراط!».

هز حكيم رأسه فى امتثال. قال للواقفين:

- «حد منكم يقعد جنبه يا جماعه!».

ونظر لى:

- «أنا وأنت طرف في القضية! يستحسن إننا ما نكونش هنا خالص الساعادي!».

سحبنى ومضينا. خرمنا على شارع عدلى جلسنا فى حديقة جروبى، بكينا بعمق وحرقة، شربنا قهوة سوداء، دخنا بشراهة، حاولنا تصور ملابسات الحادث من جميع النواحى فلم نفلح. هل فى الأمر شبهة جنائية؟ هل كان طرف الشرطة كل هذه الأيام فعلا؟ المؤكد أنه لو كان حرا فى الخلاء ماغاب دقيقة واحدة عن غرزة حكيم. هل يتعين علينا أن نحرك الدعوى قضائيا لنثبت كذب الحكومة ونطالب بتقرير الطبيب الشرعى؟ أم الأفضل أن نختفى من المشهد كله حتى لانعرض أنفسنا لمتاعب لسنا بقادرين على احتمالها سيما وأننا فى مفتتح حياتنا الطموحة علما بأن جميع مؤسسات التنفس الأدبى والفنى من صحف ونشر وغناء

وتمثيل ومسرح وسينما وإذاعة وتليفزيون كلها ملك للدولة، وليس بخاف علينا أن مستقبل الواحد منا في هذا البلد قد يوقف نموه لمجرد أنه تفوه بلفظة بريئة لم تعجب شخصا بعينه، مستقبل مصر نفسها مرهون بمزاج فرد من الأفراد.

انصرفنا دون أن نصل إلى قرار محدد، لكننا فى ظهر اليوم التالى تلاقينا فى غرزة حكيم. كانت أم يحيى قد كنست أرض الحارة ورشتها بمياه الغسيل المخلوطة برائحة الصابون المعطر. الحارة يخيم عليها صمت وقور، من شدة وقاره بدا أن له جانبه الفكاهى، تماما كشخصية صالح هيصة التى جمعت بين الوقار والهزل فى توازن قلما ينجح إلا مع مثله . كان إبراهيم القماح جالسا على المصطبة وعيناه من شدة البكاء منتفختان . ثمة لغط فى داخل الدار الموصولة بالغرزة. قال إبراهيم إن حكيم ذهب من صبيحة ربنا إلى القسم لتخليص إجراءات الدفن، وأن النيابة عاينت الجثة وسمحت بنقلها إلى الدار، وأن أم يحيى استدعت من يغسله، وأنه – إبراهيم – اقتطع له أثواب الكفن من أفخر نوع بالمجان من أحد المحلات التى ينظم لها القتارين. قال زكى: وأين سندفنه؟ قال إبراهيم:

– «عندنا فى الطربة بتاعتنا ما احنا لنا طربة فى الإمام الشافعى! وأنا اتصلت بالطربى من الفجر عشان يجهز نفسه!».

بعد قليل جاءت حياة البرى. كان منظرها بديعا حقا، أجمل حزن رأيته فى حياتى: البنطلون الچينز القطيفة الأسود، والبلوزة السوداء، والرقبة الصعيدية السرحة بجيدها الأتلع، والوجه المليئ بالمعانى والأسرار والثقافات رغم بساطته وصفاء ملامحه، والسيجارة المارلبورو بين أصابعها حزينة هى الأخرى تحرق نفسها على مهل مخلفة رماداً متماسكا يأبى الانفراط قالت:

– «الجثة جوه!».

أومأنا بالإيجاب، اتجهت إلى داخل دار حكيم وهى تميل بنصفها العلوى تلقى نظرة متفحصة فى ظلام الحجرة الداخلية: فبدا ظهرها الطويل من الخلف أشبه

بمركبة فضائية تلامس كوكبين متلاصقين لكل منهما مذنب خاص به. اختفت في الدخل، فما لبثنا حتى سمعنا نهنهات وآهآهات متقطعة، وصوت أم يحيى يردد بعض كلمات المواساة. دقائق معدودة ثم حضر قمر المحروقي ورفاقة الثلاثة مرسي خلاف ووليد رشيد ووجدي الوكيل، وعرفنا في الحال أن إبراهيم هو الذي كلمهم بالهاتف ليلة أمس من سنترال عدلي. ثم جاء عبدالودود، وجاء فاروق الجمل وصديقه رسام الكاريكاتير الذي بات يرافقه منذ أن عينا معا في مجلة أسبوعية كاريكاتورية. وفي حوالي الثانية مساء جاء حكيم وبيده تصريح الدفن. أخذنا نتباحث في كيفية نقله إلى مدافن الإمام: فما كدنا نختلف حول الطريقة التي ينقل بها حتى دخل علينا رجل عجوز يرتدي بدلة وقورة يقوده طفل من عيال الحارة، قال بمجرد دخوله:

- «مدام حياة البرى فين لو سمحتم!».

بادره زكي متمعنا في وجهه:

- «نقول لها مين حضرتك؟».

- «أنا صبري الحانوتي إللي هي اتفقت معاه!».

- «أيوه! جبت العربية؟».

- «واقفة بره!».

شاركنا جميعا في حمل الجثة والمرور بها من السرداب الطولي حيث كانت عربة نقل الموتى بشكلها المميز تحتجز مساحة كبيرة من عرض شارع معروف.

ركب ابراهيم القماح وحكيم بجوار السائق وركبت أنا مع زكي في سيارته. وركبت أم يحيى وزوجة حكيم في سيارة حياة الفولكس. وركب قمر سيارة مرسي وركب الجمل مع وليد، والرسام مع وجدي ، مضينا في موكب من السيارات تكاد تكون مشتبكة في بعضها بجنزير خفي. اخترقنا وسط المدينة ، أصر إبراهيم القماح أن يلف الموكب من شارع معروف إلى الأنتيكخانة إلى ميدان عبدالمنعم

رياض فرمسيس فعبدالخالق ثروت فسليمان فميدان التحرير فميدان لاظوغلى عبوراً للمبتديان فزينهم إلى مدافن الإمام.كان موكبا مهيبا جميلا لفت جميع الأنظار استقطب سيارات كثيرة من الجانبين تطل منها رءوس فضولية تسألنا عبر النوافذ فى وقار حزين مقدماً:

- «هو مين اللى مات لو سمحت؟!».

نقول بنفس الوقار والجدية:

- «صالح هيصة تعيش أنت!».

فيكتم الناس ابتساماتهم، يرد بعضهم كأنه كان على علاقة به قوية:

- «مش معقول! إنا لله وإنا إليه راجعون!».

أمام المقبرة تولى الصنايعية وضع الجثة فى نعش، جاء شيخ أعمى من طرف الطربى، وقف أمام النعش فى اتجاه القبلة، فوقفنا جميعا وراءه فى صف واحد بما فينا حياة البرى وأم يحيى وزوجة حكيم. أدينا الصلاة وقوفا فى ورع حقيقى ولحظة أن زحفت الجثة مائلة لتغيب فى جوف القبر، انفجرت المناحة بشكل جماعى؛ أما حياة البرى فأقعت مستندة بظهرها إلى شاهد المقبرة واضعة رأسها بين يديها فى وهن وشحوب، مطرقة فى الأرض محركة شفتيها والدموع كقطر الندى تتساقط من ورود خديها. وكان واضحا أنها - الماركسية العتيدة السابقة - تقرأ بعض الآيات القرآنية لعلها آية الكرسى أو سورة يس. وزعنا كثيرا من الجنيهات خرج معظمها من جيبى مرسى ووليد. ثم عدنا إلى غرزة حكيم ومعنا ثلاثة كيلو جرامات من الكباب والكفتة وتل من الخبز وعلب الطحينة والسلطات اشتراها وجدى الوكيل لأننا جميعا لم نذق طعم الأكل مذ داهمنا الخبر. قعدنا على الأرض بدون أى فراش، فردنا الطعام، أكلنا بشراهة، بقيت فضلة كبيرة، لفها حكيم بعناية ووضعها على المصطبة قائلا فى تلقائية اعتيادية:

- «خليها يمكن صالح ييجى ياكلها!».

فتحدرت دموعنا؛ فقال:

– «والله كان قصدى أقول صابر !».

ودخل وراء زوجته ثم عاد حاملا جهاز الراديو البلاستيك ماركة صوت العرب، وضعه على أرضية الشباك، فتحه، ضبطه على إذاعة القرآن الكريم، انطلق صوت الشيخ محمود خليل الحصرى مليئا بالورع والمهابة؛ فاعتدلنا فى قعدتنا، نكسنا الرءوس، رحنا نستمع فى خشوع فطري؛ فيما تقرفص حكيم وراح يجهز لنا طاقما من الحجارة التى لاشك ستقوى أجنحة خيالنا على التحليق فى سماوات الآيات المشرقة بالآلاء الدامغة المكذبة لكل زور وبهتان.

★★★

كان هذا هو آخر اجتماع لنا، وبعده مباشرة نشطت الحكومة فجأة فأزالت جميع الغرز، دمرت سوق الباطلية وكان من السهل علينا أن نفهم أن هذه الحركة لم تكن إلا بتحالف من جميع المهربين الكبار ذوى النفوذ فى كل مكان، لإزاحة الحشيش الذى يكلف غلبة ودوشة دماغ فى نقله وتهريبه وتوزيعه، تمهيدا لإغراق البلاد بوابل من الكوكايين والهيروين وبرشام الصليبة وحقن الماكس فورت، وهذا كله مما خف حمله وغلا ثمنه وتكفى أرباحه لإرضاء طموح كل من يشارك فى التهريب ولو بالطرمخة أو بإغماض العين. فلم يبق لفئات الشعب الكادحة من عقار يشاغب مزاجهم سوى ذلك النبات السودانى المسمى بالبانجو، حزمة بخمس جنيهات تدوش دماغ شلة كاملة.

سنوات صعبة كثيرة مرت، حدثت فيها أحداث جسام غيرت مجرى الحياة تماما، القوالب نامت والأنصاص قامت، وصلت الهيصة إلى أقصى ذراها الهزلية؛ أبرمت اتفاقية كامب ديفيد للسلام مع العدو الإسرائيلى وكتب كبار الكتاب يوجهون عواطفنا لحب اليهود، استرد أعداء ثورة يوليو ممتلكاتهم ومراكزهم وأحزابهم وجرائدهم؛ اغتيل أنور السادات بأيدى الجماعات الإسلامية المتطرفة؛ بيع القطاع العام، هاجر المثقفون وكل النخب المتميزة فى جميع المجالات إلى بلاد النفط وأوروبا؛ سقطت الماركسية اللينينية بفضيحة مدوية وتفكك الاتحاد

السوفييتي وتبدد كأن لم يكن في دقائق معدودة، بات العرب يهرولون نحو الصلح مع إسرائيل، قامت حرب الخليج المروعة ليحتل الأمريكان منطقة الخليج، طلقت حياة البرى من زكى حامد وتزوجت من أستاذ جامعى هولندى هاجرت معه إلى أمريكا، طلقت محاسن عاصم من قمر المحروقى بعد أن أنجبت منه ولدا بات يناهضه ويتحداه، فشل المصنع وبات قمر فى الشتات يخرج من ضياع إلى ضياع: أصبح زكى حامد نجما شعبيا، استحوذ صبيان الحكومة على جميع الصحف فانعزلت صحافة مصر عن العالم، أصبحت دفتر أحوال للمؤسسة الحاكمة: استولى رجال المال والاستثمار على جميع المنافذ الحيوية فى البلاد، انضربت جميع القيم النبيلة، الحرية والشرف والأخلاق والوطن كلها أصبحت مفردات سيئة السمعة، تضخمت سلاسل قتل الزوجات للأزواج وخطف الإناث.

نالنى من هذه الهيصة الكبرى نصيب، بالكاد تمكنت من الزواج فى شقة متواضعة لم تدخلها المياه بعد، اشتريت سيارة ماركة رمسيس بخمسمائة جنيه كانت السيارات الفاخرة الفارهة التى تدفقت على البلاد تأخذ منها ومنى موقفا عدائيا عجيبا باعتبارها من بقايا فضلات ثورة يوليو المشئومة. وكانت هذه السيارة بالفعل غبية عنيدة نذلة لايحلولها العطل إلا فى اللحظات الحرجة. تعطلت بى ذات يوم فى مدينة المهندسين قبل الغروب بدقائق: فركنتها فى منعطف وركبت إحدى سيارات الأجرة من مدخل كوبرى ستة أكتوبر لكى أستحضر الميكانيكى من ورشته فى بولاق، كان مبنى ماسبيرو يقترب على اليسار، ومبنى هيلتون النيل على اليمين فيما نحن مقبلين فوق الكوبرى على ميدان عبدالمنعم رياض حينما فوجئت بهصية كبيرة على إفريز الكوبرى: جمع كبير من الرجال والسيدات والأطفال، تمهلنا لنرى إن كانت حادثة قد وقعت لإحدى هذه السيارات الراكنة على اليمين: فإذا بى أفاجأ بصالح هيصة شخصيا، واقفا بلحمه وشحمه، بسحنته الخلاسية وشعره الأبيض كطاقية من الثلج المندوف، وقامته الفارعة، تحت كشافات وأضواء مبهرة. نزلت من التاكسى، جريت إلى صالح هيصة بشوق عارم عرامة القهر

والمذلة طوال السنين الفائتة. كنا لانزال مكسورين من تدمير أمريكا لدولة العراق الشقيق بعد إجلائه قسرا عن الكويت حيث اضمحلت آخر شمعة كانت فى يد جيلنا: القومية العربية. كنت فى متاهة الشعور بالضياع التام فى حاجة فعلية إلى صالح هيصة لعله يفلسف لى - بمنطقه البدائى الحكيم - أحزانى الكثيرة التى من فرط تراكمها أصبحت أجهل أسبابها..

تدافعت بين الزحام أريد الارتماء على صدر صالح هيصة. أوقفتنى أيد كثيرة فى اللحظة التى داهمتنى فيها الأهوال، حيث تبينت عن قرب أن صالح هيصة الواقف أمامى هو الممثل زكى حامد يصور لقطة فى أحد أفلامه حيث يقف مستندا على السور الحديدى للكوبرى ناظرا بأسف وحسرة فى ميدان الشهيد عبدالمنعم رياض الذى راح يعج بسيارات لاحصر لها وزئيط جنونى وسحب من الدخان الأسود. وراح صوته، نفس الصوت الحميم بكل نبراته الحبيبة، ينساب بلهجة فجائعية تحذيرية كلهجة العراف تيريزياس فى المآسى الإغريقية:

- «ربنا خلق الدنيا هيصة! كل واحد فى هيصة! بيعمل هيصة! عشان يلحق الهيصة! ويايلحق ياميلحقش! وكلهم كحيانين! كل واحد كحيان بطريقته! وأنا زعيم الكحيانين! عشان كحيان بكل الطرق!!».

فى الحال انطفأت جميع الأضواء فغرقت المدينة فى ظلام دامس. صرنا نتخبط كجثث تتقلب فى قبر أضيق من حمام الحاج جمال فرحان.

تمت

صقر قريش - المعادى - مايو ١٩٩٩

رقم الايداع : ٢٠٠٠/٩٥٧٥
I. S. B. N
977 - 07 - 0903 - 4

روايات الهلال تقدم :

غريبان فى قطار

تأليـــف

باتريشيا هايسميث

ترجمـــة

محمد عبدالمنعم جلال

تصدر : ١٥ أغسطس سنة ٢٠٠٠

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٠٧	رمزة ابنة الحريم	قوت القلوب الدمرداشية	يوليو ١٩٩٩	٥,٠٠
٦٠٨	مالون يموت	يوجين يونسكو	أغسطس ١٩٩٩	٥,٠٠
٦٠٩	عيون البنفسج	علاء الديب	سبتمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٠	تل الهوى	يوسف أبو رية	اكتوبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١١	قط وفار	جونتر جراس	نوفمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٢	الكائن الظل	اسماعيل فهد اسماعيل	ديسمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٣	طيور العنبر	ابراهيم عبدالمجيد	يناير ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦١٤	خمرية	أمين العيوطى	فبراير ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٥	القلق السرى	فوزية رشيد	مارس ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦١٦	فئران بلا جحور	أحمد ابراهيم الفقيه	ابريل ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٧	خزانة الكلام	جميل عطيه ابراهيم	مايو ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٨	بوح الاسرار	محمد جبريل	يونيه ٢٠٠٠	٥,٠٠



خيرى شلبى

- من مواليد عام ١٩٣٨.
- روائى ، وكاتب قصة قصيرة، والمقال الادبى، حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٠.
- قدم للمكتبة العربية خمسين كتابا،من أشهر رواياته «الأوباش»، «السنيورة»، «اللعب خارج الحلبة» ، «الوتد» ، «الشطار»، «رحلات الطرشجى والحلوجى»، «وكالة عطية»، «أولنا ولد»، «ثانينا الكومى»، «ثالثنا الورق». وتدور أحداث رواياته فى البيئة الشعبية المصرية، خاصة أحياء مصر القديمة والمناطق الريفية العتيقة.
- وتحولت بعض أعماله الروائية إلى أفلام سينمائية ، مثل «الشطار» ، «سارق الفرح».

هذه الرواية

كثيراً ما نعبر إلى جوار أماكن ما ، دون أن نشعر أن هذه الاماكن الصغيرة يمكن أن تكون شاهداً صادقاً على عصر بأكمله ، بل على تاريخ طويل من حياة الأشخاص.

وفى شارع صغير، بوسط مدينة القاهرة يقع مقهى صغير ، يعمل فيه صالح هيصه .. شاهد على عصر .. بأشخاصه ، وأحداثه، وتدفقاته ، وجنونه ...

وبلغته المتدفقة الحية ، استطاع خيرى شلبى أن يستخرج باطن العصر، واسراره ، واستجلب شخصيات حقيقية من لحم ودم .

صالح هيصة

ليست فقط اضافة جديدة فى مسيرة الكاتب الروائية بل هى لبنة جديدة فى جدران الرواية العربية الملهمة.